

كارين هورني

واحدة من أكثر المحللين النفسيين الكبار بعد فرويد.
كارين هورني كانت رائدة في المفاهيم المألوفة الآن مثل الاعتزاز،
وإدراك الذات، والصورة المثالية،
وأدخلت إلى التحليل النفسي فهماً جديداً للأهمية الثقافية والبيئية.



مسرعاتنا الباطنية

نظرية بنـاء
عن مرض

المُصاب



مكتبة

ترجمة: نور ياسين

مسرعاتنا الباطنية

نظرة بناءة
عن مرض

الغضب

مكتبة

t.me/soramnqraa

24 5 23

*Neurosis and Human Growth:
The Struggle Towards Self-Realization*

Karen Horney

■ اسم الكتاب: صراعاتنا الباطنية

■ المؤلف: كارين هورني

■ ترجمة: نور ياسين

■ الطبعة الأولى © 2022

حقوق الترجمة العربية محفوظة للناشر

لا يجوز نسخ أي جزء من هذا الكتاب أو استعماله بأي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الألكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافية والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي منشورات **نصوص**.

ISBN: 978-9953-592-43-5

■ الإخراج الفني: TRIGRAPHICS

نصوص
مكتبة



بيلان بيروت - شارع المفوضية - طابق 10 - بناية 101
الهاتف: 00961 01 740 495 | 00961 76 938 980

www.nousous.com | nousous.ir@outlook.com

كارين هورني

مكتبة | 1173

مسرعاتنا الباطنية

نظرية بناءة
عن مرض

الغضب



| ترجمة: نور ياسين

مكتبة

t.me/soramnqraa

7	تمهيد
11	مدخل
23	الجزء الأول «الصراعات العصبائية نظرية بناءة عن مرض العصاب»
25	الفصل الأول «حدة الصراعات العصبائية»
39	الفصل الثاني «الصراع الأساس»
57	الفصل الثالث «التحرك نحو الناس»
75	الفصل الرابع «التحرك ضد الناس»
89	الفصل الخامس «التحرك بعيداً عن الناس»
119	الفصل السادس «الصورة المثلى»
141	الفصل السابع «التخريج»
161	الفصل الثامن «الوسائل الإضافية للتوافق المصطنع»
173	الجزء الثاني «الصراعات العصبائية ومحاولات الحل»
177	الفصل التاسع «المخاوف»
191	الفصل العاشر «استلاب الشخصية»

221	الفصل الحادي عشر «القنوط»
235	الفصل الثاني عشر «النزعات السادية»
265	خاتمة «تصريف الصراعات العُصابية»

إن هذا الكتاب مكرس لغرض الارتقاء بتحليل النفس، فلقد نما عن خبرتي في ممارسة التحليل مع مرضاي ومع ذاتي. وبينما كانت النظرية التي يقدمها قد تكاملت عبر فترة من السنوات، فإن آرائي لم تتبلور نهائيًا إلا بعد أن أخذت على عاتقي إعداد سلسلة من المحاضرات تحت رعاية المعهد الأمريكي لتحليل النفس. كانت الأولى تدور حول النواحي الفنية للموضوع، وكان عنوانها «مشكلات أسلوب التحليل النفسي» (1943). وقد أقيمت السلسلة الثانية التي شملت المشكلات المشار إليها هنا. في عام 1944، بعنوان «تكامل الشخصية». وقد عرضت موضوعات مختارة: «تكامل الشخصية في علاج التحليل النفسي»، «علم نفس العزلة» و«مغزى النزعات السادية» في أكاديمية الطب وأمام جمعية الارتقاء بتحليل النفس.

إنني آمل أن يكون هذا الكتاب مفيدًا للمحللين النفسيين الذين يمتلكون اهتمامًا جادًا في تحسين نظريتنا وعلاجنا. إنني آمل أيضًا أنهم لن يضعوا الآراء المطروحة هنا في متناول مرضاهم فحسب بل سيقومون بتطبيقها على أنفسهم كذلك. إن الارتقاء

بالتحليل

بتحليل النفس يمكن أن يتم فقط عبر طريق محفوف بالصعاب، عبر طريق يضم أنفسنا وصعابنا. فإن بقينا دونها حراك وغير مكترئين بالتغيير، فستؤول نظرياتنا إلى الجذب والحزم.

غير أنني، على كل حال، مقتنعة أن أي كتاب ينحو إلى ما وراء مدى الأمور الفنية أو النظرية النفسية البحتة، ينبغي أن يفيد أيضًا جميع أولئك الذين يرغبون في التعرف على أنفسهم، والذين لم يفقدوا الأمل في نموهم الذاتي. وعلى الرغم من أن أمراض العُصاب الحادة ترجع إلى أيدي الخبراء، فإنني ما زلت أعتقد أننا إذ بذلنا جهودًا لا تكفل، فإننا نستطيع أن نقطع شوطًا بعيدًا باتجاه فك شرك صراعاتنا العُصابية.

يعود امتناني العظيم لمرضاي الذين من خلال عملنا معًا، قدّموا لي فهمًا أفضل عن المشكلات. كما أنني مدينة أيضًا لزملائي الذين آزروا عملي بفضل اهتمامهم وتفهمهم المتعاطف. إنني لا أشير إلى زملائي الأكبر سنًا فحسب بل أيضًا إلى الأصغر سنًا، ممن تدرّبوا في معهدنا، والذين كانت نقاشاتهم الناقدة مثيرة ومثمرة.

أحب أن أشير إلى ثلاثة أشخاص خارج حقل التحليل النفسي الذين أعطوني دعمًا، بطريقتهم الشخصية الخاصة، في دفع عجلة عملي إلى الأمام. كان الدكتور ألفن جونسون هو الذي قدّم لي الفرصة بغية عرض أفكاره في المدرسة الحديثة للبحوث الاجتماعية في حين كان فيه تحليل فرويد التقليدي يمثل المدرسة الوحيدة المميزة

في النظرية التحليلية والتطبيق، وبصفة خاصة فإنني مدينة إلى كلارا ماير، عميدة كلية الفلسفة والآداب الحرة في المدرسة الحديثة للبحوث الاجتماعية. فعن طريق اهتمامها الشخصي المتواصل شجعتني عامًا بعد آخر، أن أطرح على بساط البحث أية مكتشفات جديدة تتجمع من خلال ممارساتي التحليلية. ثم هناك ناشر كتابي، دبليو. دبليو. نورتن الذي أدت نصائحه المفيدة إلى تحسينات عديدة في مؤلفاتي. أخيرًا وليس آخرًا، أحب أن أعبّر عن تقديري إلى موفيت كون التي قدمت لي العون بشكل كبير باتجاه تنظيم أفضل للمادة وصياغة أوضح لأفكاري.

كي. أج.

مهما تكن نقطة الانطلاق وكيفما تكن الطريق ملتوية، فإننا يجب أن نصل في النهاية إلى اضطراب في الشخصية كمصدر للعلّة النفسية، نستطيع أن نردد القول نفسه عن هذا كما نستطيع التحدث عن أي اكتشاف نفسي آخر تقريبًا: فهو واقعيًا إعادة الاكتشاف. لقد عرف الشعراء والفلاسفة في كل العصور أن الشخص الهادئ المتزن لن يقع ضحية الاضطرابات النفسية، بل الشخص الذي تمزقه الاضطرابات الباطنية، إن أي عُصابٍ، مهما كانت صورة الأعراض المرضية، هو بلغة العصر، عُصاب الشخصية. لذلك يجب أن تتجه جهودنا في النظرية والعلاج، نحو فهم أفضل لبناء الشخصية العُصابية.

في الواقع، تركّز جهود فرويد الريادي على هذه الفكرة بصورة متصاعدة - رغم أن أسلوبه في النشوء لم يتح له فرصة التوصل إلى صياغته على نحو بَيِّن. غير أن الآخرين الذين واصلوا وطوروا جهد فرويد - بصفة بارزة: فرانز الكساندر، أتورانك، وهليم رايخ، وهارالد شولتز هانكه - كانوا قد قاموا بتعريفه بصورة أكثر جلاءً، على أية

حال، لم يتفق أحد منهم حول كنه الطبيعة المحددة والقوى المحركة وراء بنية هذه الشخصية.

كانت نقطة انطلاقي مختلفة. فقد أثارت في ذهني مسلمات فرويد فيما يتعلق بعلم النفس الأثوي، التفكير حول دور العوامل الثقافية. كان تأثيرها على أفكارنا حول ما يؤلف الرجولة أو الأنوثة جلياً، كما أمسى جلياً لديّ أن فرويد كان قد توصل إلى نتائج معينة مغلوطة لأنه فشل في أخذها بنظر الاعتبار. وأخذ اهتمامي ينمو بهذا الموضوع خلال فترة خمسة عشر عامًا. وقد تعزّز في جزء منه بالاشتراك مع إيريك فروم الذي جعلني، من خلال معرفته العميقة بكل من علمي الاجتماع والتحليل النفسي، أكثر وعياً بأهمية العوامل الاجتماعية التي هي أكبر كثيرًا من تطبيقاتها المحصورة في علم النفس الأثوي، ثم تأكدت انطباعاتي عندما جئت إلى الولايات المتحدة عام 1932. حينئذ، شاهدت أن مواقف وأمراض العُصاب عند الأشخاص في هذا البلد كانت تختلف بطرق عديدة عن تلك التي كنت قد لاحظتها في الأقطار الأوروبية، وأن الاختلاف في الحضارة فحسب يمكن أن يكون مسؤولاً عن ذلك.

ثم وجدت استنتاجاتي التعبير عنها في كتاب شخصية عصرنا العُصابية. كان محور البحث الرئيس هنا أن أمراض العُصاب قد أُحدثت من قبل العوامل الحضارية. مما كان يعني بصورة أكثر تحديداً أن أمراض العُصاب تُولّد من قبل الاضطرابات في العلاقات الإنسانية.

أثناء السنوات التي سبقت تألّفي كتاب الشخصية العُصابية . كنت ألاحق خطأً مختلفاً من البحث الذي نما عن الفرضية السابقة منطقيًا. كان هذا يدور حول التساؤل عن ماهية القوى الدافعة في مرض العُصاب. وكان فرويد أول من أشار إلى أن هذه كانت دوافع قسرية. وقد اعتبر هذه الدوافع موجودة غريزيًا في الطبيعة، تهدف إلى الإشباع كما أنها لا تحتمل الإحباط إلا قليلاً. ونتيجة لذلك، فقد أعتقد أنها تقتصر على أمراض العُصاب كما هي، لكنها كانت تؤثر في كل الكائنات البشرية. فإذا حدث، على كل حال، أن نشأت أمراض العُصاب عن اضطرابات في العلاقات الإنسانية، فهذا الافتراض لا يمكن أن يكون صحيحًا. كانت الأفكار التي توصلت إليها في هذا المضمار كما يلي بشكل مختصر: إن الدوافع القسرية هي دوافع عُصابية محددة، تتولد عن إحساس بالعزلة، القنوط، الخوف، والاعتداء، وتمثل أساليب في مواجهة العالم رغماً عن هذه الأحاسيس؛ وهي تهدف بصورة رئيسة لا إلى الإشباع بل إلى النجاة، وترجع طبيعتها القسرية إلى القلق المترصد خلفها. ظهر اثنان من هذه الدوافع: الرغبة العُصابية الملحة إلى الحنو، وإلى التسلط بشكل مجسم واضح، وقد عُرِضا بالتفصيل في كتاب الشخصية العُصابية.

و على الرغم من احتفاظي بما كنت أعتبره أساسيات تعاليم فرويد، فقد أدركت في ذلك الحين أن بحثي عن فهم أفضل قادني إلى اتجاهات كانت تتناقض مع فرويد، إذ كان العديد من هذه العوامل

التي اعتبرها فرويد غريزية يتقرر ثقافيًا، وإذا كان الكثير جدًا مما اعتبره فرويد نابعًا عن الطاقة الجنسية يمثل حاجة عُصابية للحنو التي استثارتها القلق والتي تستهدف بالشعور بالأمن مع الآخرين، إذاً فإن نظرية الطاقة الجنسية لا يمكن الدفاع عنها. بقيت خبرات الطفولة ذات شأن هام غير أن التأثير الذي مارسه في حياتنا ظهر تحت ضوء جديد. ثم تبع ذلك بالنتيجة اختلافات نظرية أخرى. من هنا أصبح من الضروري أن أحدد في ذهني أين كنت أقف أنا بالنسبة إلى فرويد. فكانت حصيلة هذا الانجلاء كتاب تحت عنوان: طرق حديثة في تحليل النفس.

ثم تواصلت بحثي، في الوقت ذاته، من أجل القوى الدافعة في مرض العُصاب، فدعوت الدوافع القسرية بالزعات العُصابية، ووصفت عشرة منها في كتابي اللاحق. عند ذلك، كنت أنا أيضًا، قد توصلت إلى ومضة إدراك بأن بنية الشخصية العُصابية كانت ذات أهمية مركزية عظيمة. كنت أعتبرها أنثد كنوع من العالم المصغر المكون من عوالم صغيرة عديدة يتفاعل كل واحدٍ منها مع الآخر: في نواة كل عالم صغير كانت هناك نزعة عُصابية. كان هناك تطبيق عملي لنظرية مرض العُصاب هذه. فإذا لم يتضمن تحليل النفس أساسًا ربط مساعينا الحالية بخبراتنا الماضية، إنما اعتمد بالأحرى على فهم تفاعل قوي في شخصيتنا الحاضرة، إذاً يكون إدراك كنه ذاتنا والعمل على تغييرها بمعاونة يسيرة أو حتى بدون معاونة من قبل الخبراء،

ممكنًا عمليًا بكل معنى الكلمة. ثم بدا أن تحليل الذات يقدم أملاً في إشباع حاجة حيوية، على ضوء الحاجة السائدة للعلاج النفسي وندرة العون المتوفر. ولأن الجزء الأوفر من الكتاب تناول بعض إمكانات وحدود وطرق تحليل أنفسنا فقد دعوته تحليل الذات.

على كل حال، لم أكن راضية تمامًا عن استعراضي للنزعات الفردية. فقد وصفت النزعات ذاتها بصورة دقيقة، إلا أن الشعور كان يخامرني بأن هذه النزعات ظهرت، بتعدادها البسيط، بصورة منعزلة أكثر مما يجب. واستطعت أن ألمس أن الحاجة العُصابية للحنو والتواضع القسري، والحاجة إلى «رفيق» كانتا ترتبطان معًا، لكن ما فشلت في ملاحظته أن هذه النزعات كانت تمثل معًا موقفًا جوهريًا تجاه الآخرين وتجاه الذات، وفلسفة مستقلة عن الحياة. تؤلف هذه النزعات مراكز ما كنت قد جمعتها الآن معًا على أنه «التحرك نحو الناس». كما لاحظت أيضًا، أن هناك شيئًا مشتركًا يجمع بين الرغبة الشديدة القسرية للتسلط والمكانة وبين الطموح العُصابي.

وهي تؤلف عمومًا العوامل التي تتعلق بها سادعوه «التحرك ضد الناس». لكن الحاجة للاستحسان والدوافع نحو الكمال، رغم أنها كانت تمتلك جميع سمات النزعة العُصابية المميزة وتؤثر في علاقة الشخص العُصابي مع الآخرين، فقد بدت تتعلق بعلاقته مع ذاته بصفة أساسية. كذلك، بدت الحاجة إلى الاستغلال أقل أهمية من كل من الحاجة للحنو أو للتسلط وبدت أقل شمولية من هاتين، كما

لو أنها لم تكن تؤلف كياناً منفصلاً بحد ذاتها، بل كانت قد اجتزئت من كل هو أكبر منها.

برهنت تساؤلاتي منذ ذلك الحين على أنها كانت على حق. وتحول محور اهتمامي في السنوات اللاحقة نحو دور الصراعات في مرض العُصاب. كنت قد ذكرت في شخصية عصرنا العُصابية أن مرض العُصاب كان يحدث من جراء تصادم النزعات العُصابية المتنافرة. وكنت قد ذكرت في تحليل الذات أن النزعات العُصابية لم تعزز بعضها بعضاً فحسب بل كانت تخلق الصراعات أيضاً. ومع ذلك بقيت الصراعات قضية جانبية. كان فرويد في الماضي على وعي متزايد بأهمية الصراعات الباطنية، وقد نظر إليها على كل حال على أنها معركة بين القوى المكبوتة والقوى القمعية. أما الصراعات التي بدأت أراها فقد كانت من نوع مختلف. كانت تدور بين مجموعات متناقضة من النزعات العُصابية، ورغم أنها كانت أصلاً تتعلق بالمواقف المتناقضة تجاه الآخرين، فقد ضمت إليها بمضي الزمن مواقف متناقضة تجاه الذات وسجايا ومجموعات متناقضة من القيم.

ثم أنار بصيرتي تصاعد متعاضم من الملاحظة حول الأهمية البالغة لهذه الصراعات. إنَّ ما لفت نظري بقوة أولاً، كان عدم إدراك المرضى للتناقضات الجلية في ذاتهم. وحينما بينت هذه التناقضات لهم أخذوا يتملصون وبداء عليهم أنهم فقدوا الاهتمام. بعد تجارب متكررة من هذا النوع أدركت أن المراوغة كانت تعبر عن بغض

عميق لمعالجة هذه التناقضات. أخيراً، أظهرت ردود الفعل المدعورة استجابة لإدراك مفاجئ لصراع من الصراعات؛ أنني كنت أتعامل مع مادة متفجرة. كانت لدى المرضى أسباب وجيهة للنفور من هذه الصراعات: كانوا يرتعدون هلعاً من جبروتها في تمزيقهم إرباً.

بعد ذلك بدأت أدرك المقدار المذهل من الحيوية والذكاء الذي استثمر في جهود يائسة قلّت أم كُثرت في «حل» الصراعات، أو بصورة أدق، في إنكار وجودها واختلاق توافق مصطنع. لقد شاهدت المحاولات الأربع الرئيسة في الحل على نحو يقترب من السياق الذي أشرت إليه ضمن هذا الكتاب. كانت المحاولة المبدئية تحتم التفوق على جزء من الصراع وإبراز نقيضه لكي يتسلط. وكانت الثانية تتمثل في «التحرك بعيداً» عن الناس. فظهرت وظيفة العصبانية في ضوء جديد. لقد كانت العزلة جزءاً من الصراع الأساسي - أي أحد المواقف الأصلية المتصارعة تجاه الآخرين؛ لكنها كانت تمثل أيضاً محاولة حل، ذلك لأن الإبقاء على بعد وجداني بين الذات والآخرين، يضع حدًا لفعل الصراع. كانت المحاولة الثالثة مختلفة جداً في نوعها. فبدلاً من التحرك بعيداً عن الآخرين، ابتعد مريض العُصاب عن ذاته. أصبحت ذاته الحقيقية برمتها غير واقعية بالنسبة له إذ اختلق مكانها صورة مثلى عن نفسه أضحت فيها الأجزاء المتصارعة متغيرة المظهر جداً بحيث أنها لم تعد تبدو كصراعات بل كجوانب متنوعة من شخصية ثرة. ساعدت هذه الفكرة على إيضاح

الكثير من العضلات العُصائية التي كانت ما تزال حتى الآن خارجة عن حدود فهمنا بالتالي خارجة عن متناول علاجنا. ثم وضعت كذلك اثنتين من النزعات العُصائية التي كانت تقاوم الاندماج سابقاً في موضعها المناسب. وبدت الحاجة إلى الكمال على أنها محاولة من أجل التوصل إلى هذه الصورة المثلى؛ إذ يمكن أن يُرى التوق إلى الاستحسان على أنه حاجة المريض لكسب الثقة بأنه كان حقاً صورة ذاته المثلى. ومن المنطقي أنه كلما ابتعدت الحاجة الأخيرة عن الواقع أكثر كلما أضحت أشدّ نهماً. وربما تكون الصورة المثلى هي الأعظم أهمية من كل محاولات الحل بسبب تأثيرها العميق على الشخصية بكاملها. غير أنها بدورها تحدث صدعاً باطنياً لهذا تتطلب إصلاحاً أكبر. وتنشد محاولة الحل الرابعة التخلص من هذا الصدع في المقام الأول، رغم كونها تساعد كذلك في التخلص من كل الصراعات الأخرى. تجرب العمليات الباطنية من خلال ما أسميته بعملية التخريج لكونها تتواصل خارج الذات. فإذا كانت الصورة المثلى تعني اتخاذ خطوة بعيداً عن الذات الحقيقية فإن عملية التخريج تمثل انفصلاً أشدّ تطرفاً عنها. إنها تخلق صراعات جديدة مرة أخرى أو بالأحرى تزيد كثيراً في الصراع الأصلي - وهو الكائن بين الذات والعالم الخارجي.

كنت قد سميت هذه محاولات الحل الأساسية الأربعة، جزئياً لأنها تبدو فاعلة بصورة منظمة في جميع أمراض العُصاب - رغم

كون ذلك يبدو بدرجات متفاوتة - وجزئيًا لأنها تحدث تغييرات حادة في الشخصية. لكنها ليست الوحيدة إطلاقًا. هناك محاولات أخرى أقل شمولية في أهميتها، تتضمن استراتيجيات مثل العدالة الاعتبارية؛ حيث تكون وظيفتها الرئيسية تهدئة جميع الشكوك الباطنية وضبط النفس الصارم الذي يجعل شخصًا منهارًا يتناسك بقوة الإرادة المحضة والسخرية التي باستخفافها بجميع القيم تتخلص من الصراعات المتعلقة بالمثل.

في الوقت ذاته، كانت نتائج جميع هذه الصراعات تغدو أوضح بالنسبة لي تدريجيًا. كنت أشاهد المخاوف المتشعبة الجوانب التي تولدت وتبدد الطاقة والتعويق الذي لا مناص منه للسلامة الخلقية واليأس العميق الذي كان حصيلة الإحساس بالوقوع في شرك لا خلاص منه.

بعد أن أدركت أهمية اليأس العُصابي، ظهر لي أخيرًا معنى النزعات السادية واضحًا للعيان. كانت هذه تمثل، مثلما فهمت آنئذٍ، محاولة في العودة إلى سابق الحال من خلال حياة بديلة قد اقتُحِمَت من قبل شخص كان يائسًا على الدوام من عودته إلى نفسه. كما أن الانفعال المستنزف لكل شيء والذي غالبًا ما يمكن ملاحظته في الممارسات السادية، كان يتطور عن الحاجة النهمة لمثل هذا الشخص إلى انتصار ثأري. بعد ذلك أصبح واضحًا لدي أن الحاجة للاستغلال المدمر لم تكن في الحقيقة نزعةً عُصابية منفصلة، لكنها كانت تعبيرًا لا يقل عن

تلك الوحدة الكاملة الشاملة التي ندعوها بسبب الافتقار إلى تعبير أفضل: السادية.

هكذا ظهرت إلى الوجود نظرية في العُصاب محورها الفعال هو صراع أساسي بين مواقف «التحرك نحو» و«التحرك ضد» و«التحرك بعيداً» عن الناس. وبسبب خوفه من انهياره من جهة وضرورة تأديته لوظيفته كوحدة واحدة من جهة أخرى يقوم الشخص العُصابي بمحاولات يائسة لحل هذه الصراعات. وبينما يستطيع النجاح بهذه الطريقة في خلق نوع من أنواع التوازن المصطنع تُؤدّد لديه صراعات جديدة بصورة متواصلة مما يتطلب علاجات أخرى باستمرار من أجل القضاء عليها. كل خطوة في هذا النضال من أجل الوحدة تحيل المريض العُصابي إلى شخص أشد عدواناً وأشدّ بؤساً وأكثر رهبة وأكثر اغتراباً عن ذاته وعن الآخرين، بالمحصلة فإن الصعاب المسؤولة عن الصراعات تصبح أشدّ حدةً ويصبح التخلص منها أكثر تضاملاً. فيصبح المريض في النهاية يائساً وقد يحاول التوصل إلى نوع من العودة إلى سابق عهده عبر مساعٍ سادية لها تأثيرها في تصاعد يأسه وهي تخلق بدورها صراعات جديدة.

إن هذه صورة كئيبة بكل معنى الكلمة عن التطور العُصابي وبنيته الشخصية الناجمة. فلماذا أدعو نظرتي بالنظرية البناءة؟ فهي بالدرجة الأولى تلغي التفاؤل غير الواقعي الذي يدّعي أننا نستطيع «شفاء» أمراض العُصاب بوسائل بسيطة وعلى نحو متهافت. لكنها كذلك

لاتضمن تشاؤماً غير واقعي. إنني أدعوها بناءً لأنها تتيح لنا لأول مرة أن نقارع وأن نصرّف اليأس العُصابي. كما أنني أدعوها بناءً قبل كل شيء لأنها رغم اعترافها بصرامة العقد العُصابية فهي لا تتيح لنا تلطيف الصراعات الكامنة فحسب، بل وتصريفها بصورة حقيقية أيضاً، وهكذا تمكّنتنا من أن نعمل باتجاه تكامل حقيقي لعناصر الشخصية. ليس من المستطاع حل الصراعات العُصابية بواسطة القرارات المنطقية. كما أن محاولات الشخص العُصابي في حلّها ليست عديمة الجدوى فحسب بل ومضرة أيضاً. لكن هذه الصراعات يمكن أن تُصرف عن طريق تغيير الأحوال ضمن الشخصية التي أوجدتها. إن كل جزء من مهمة التحليل النفسي الذي يُنفَّذ ببراعة، يُغيّر هذه الأحوال بحيث يجعل المرء أقلّ يأساً وأقلّ رهبةً وأقلّ عدواناً وأقلّ غربةً عن ذاته وعن الآخرين.

لقد انبثقت تشاؤمية فرويد فيما يتعلق بأمراض العُصاب وعلاجها من أعماق إنكاره للطيبة الإنسانية والنمو الإنساني. فلقد سلّم بأن الإنسان محكوم عليه أن يكابد أو أن يهلك. فالغرائز التي تدفعه يمكن أن يسيطر عليها فحسب، أو في أفضل الأحوال، يمكن أن «تسامى» أما اعتقادي الخاص فيتمثل في أن الإنسان يمتلك القدرة وكذلك الرغبة في أن يطور إمكاناته ليصبح كائنًا بشريًا لائقًا وأن هذه الإمكانيات قد تفسد تدريجيًا إذا استمرت علاقته مع الآخرين، ومن هذا المنطق، مع نفسه بالاضطراب. إنني أعتقد أن الإنسان يمكن أن

يتغير وأن يستمر في التغير طالما بقي حيًّا. وقد نما هذا الاعتقاد مع فهم أكثر عمقًا.

الجزء الأول

المراعات العُصابية نظرية بناءة عن مرض العصاب

الفصل الأول

حدة الصراعات العُصابية

مكتبة

t.me/soramnqraa

دعني أذكر بدءاً اذي بدء: لا يعتبر عُصابياً من كانت لديه صراعات، فمن حين لآخر تتجه رغباتنا ومصالحنا وقناعاتنا نحو التصادم مع تلك التي ارتبطت بالآخرين من حولنا. وكما أن مثل هذه الصدمات بين أنفسنا ومحيطنا هي شيء مألوف كذلك صراعاتنا داخل أنفسنا هي جزء لا يتجزأ من الحياة البشرية.

تقرر أفعال الحيوان من قبل الغرائز على نطاق واسع. فتزواجه وعنايته بصغاره وبحثه عن الطعام ودفاعه ضد الخطر، مقرر بشكل قليل أو كثير ويقع خارج نطاق الإرادة الفردية. على العكس من ذلك فهي ميزة كما أنها عبء بني البشر أن يكون باستطاعتهم ممارسة الاختيار وأن يتعين عليهم اتخاذ القرارات. فقد يتعين علينا أن نحسم

الأمر بين رغبتين تقودان إلى جهتين متعارضتين. إذ ربما نريد مثلاً أن نترك لوحدنا ولكننا نحب أن نكون برفقة صديق كذلك. ربما نريد أن ندرس الطب ولكننا نحب أن نتعلم الموسيقى أيضاً. أو قد يكون هناك صراع بين الرغبات والالتزامات: فقد نرغب أن نكون برفقة حبيب عندما يحتاج إلى رعايتنا شخص يمر بمحنة. وقد نكون منقسمين على أنفسنا بين رغبة عارمة في أن نكون على وفاق مع الآخرين وبين قناعة قد تتضمن إبداء رأي مصاد بالنسبة للآخرين. أخيراً، ربما نكون في صراع بين مجموعتين من القيم كما يحدث حينما نؤمن أيضاً بواجبنا تجاه عوائلنا.

يقرر نوع ومدى وعمق مثل هذه الصراعات على نطاق واسع من قبل الحضارة التي نعيش فيها. فإذا كانت الحضارة وطيدة والتقاليد راسخة، يكون تنوع الاختيارات التي تطرح نفسها محدوداً. كما يكون مدى الصراعات الفردية المحتملة ضيقاً. حتى حينذاك لا تنعدم الصراعات. فقد يتعارض ولاء مع آخر وقد تقف الرغبات الشخصية بوجه الالتزامات تجاه الجماعة. غير أنه إذا كانت الحضارة تمر بمرحلة تحول سريع، حيث تتواجد قيم شديدة التناقض جنباً إلى جنب مع طرق مختلفة من العيش، تكون الاختيارات التي يجب على المرء اتخاذها متشعبة في أنواعها وصعوبة. فالمرء يمكن أن يعمل وفقاً لتوقعات الجماعة أو أن ينهج نهجاً فردياً مخالفاً؛ أن ينزع إلى العيش مع غيره من جنسه أو يعيش منعزلاً عن العالم؛ أن يقدر النجاح أو

يحقره؛ أن يمتلك إيماناً في الانضباط الصارم للأطفال، أو أن يسمح لهم أن يترعرعوا دون تدخل كثير؛ يستطيع أن يؤمن بمعايير خلقية مختلفة بالنسبة للرجال والنساء أو أن يتمسك بأن المعايير ذاتها ينبغي أن تطبق على كليهما؛ أن ينظر إلى العلاقات الجنسية كتعبير عن المودة الإنسانية أو يفصلها عن روابط الوجدان؛ يستطيع أن يعزز التمييز العنصري أو أن يقف إلى جانب فكرة أن القيم الإنسانية مستقلة عن لون الجلد أو أشكال الأنوف، وهلم جرا.

هناك بلا ريب اختيارات كهذه يجب أن تتخذ في الغالب من قبل الناس الذين يعيشون ضمن حضارتنا، ولهذا السبب قد يتوقع المرء أن الصراعات في مثل هذه الأوضاع تبدو شائعة تمامًا. غير أن الحقيقة البارزة هي أن معظم الناس ليسوا على وعي بها، وكنتيجة لذلك لا يصر فونها عن طريق أي تصميم واضح. ففي أحوال غالبية ينجر فون ويتركون أنفسهم تتأرجح تحت وطأة الأحداث. إنهم لا يعلمون أين يقفون؛ فيقدمون تسويات دون وعي بفعالتهم تلك ويتورطون في التناقضات دون معرفة بذلك. إنني أشير هنا إلى الناس الأسوياء ولا أعني بهم الناس، الناس المتوسطين أو المثاليين بل الأشخاص غير العُصايبين فحسب.

إذاً يجب أن تتوفر متطلبات أساسية من أجل تمييز القضايا المتناقضة ومن أجل اتخاذ القرارات على هذا الصعيد. تكون هذه المتطلبات الأساسية رباعية. فيجب أن نكون على دراية باهية

أمنياتنا، بل أكثر من ذلك، بماهية أحاسيسنا هل نحب شخصًا ما حقًا أو نظن فحسب أننا نحبه لأنه يفترض ذلك فينا؟ هل نشعر بالحزن حقًا عند موت أحد الوالدين أو أننا نمر عبر الأحداث فحسب؟ هل يرغب أن يصبح أحدنا حقًا محاميًا أو طبيبًا أو أنها تبدو لنا كمهنة محترمة ومربحة فحسب؟ هل نريد حقًا أن يسعد أطفالنا وأن يستقلوا بأنفسهم أو أننا نغير الفكرة اهتمامًا عابرًا؟ قد يجد معظمنا صعوبة في الإجابة على مثل هذه التساؤلات؛ أي أننا لا نعرف حقًا ماذا نشعر أو نريد.

بما أن الصراعات غالبًا ما تتعلق بالقناعات والمعتقدات أو بالمعايير الخلقية فإن إدراكها يفترض سلفًا أننا كنا قد طورنا مجموعتنا الخاصة من المعايير. إن المعتقدات التي اضطلعنا بها والتي هي جزء منا نادرًا ما تمتلك القوة الكافية لأن تقودنا إلى صراعات أو أن تؤدي الغرض كمبدأ قيادي في اتخاذ القرارات. وحينما تتعرض لمؤثرات جديدة ستترك مثل هذه المعتقدات من أجل غيرها بسهولة ويسر - فإذا كنا قد تبينا ببساطة قيمًا راسخة في بيئتنا، فإن الصراعات التي ينبغي أن تبرز في سبيل مصالحنا العليا، لن تبرز. مثلاً إذا لم يسبق أن ارتاب أحد الأبناء بحكمة أب يتصف بضيق الأفق فسيكون هناك صراع ضئيل حينما يريد والده أن ينتمي إلى مهنة غير تلك التي يفضلها هو نفسه. والرجل المتزوج الذي يقع في غرام امرأة أخرى هو في الحقيقة متورط في صراع؛ لكنه إذا كان قد فشل في توطيد قناعاته الشخصية

عن القصد من الزواج فإنه سينجرف ببساطة عبر ممر مقاومة ضئيلة جدًا، بدلاً من مواجهة ذلك الصراع واتخاذ قرار بطريقة أو بأخرى.

حتى إذا أدركنا صراعاً ما على اعتبار أنه كذلك، فيجب أن نكون راغبين وقادرين على أن نتخلى عن إحدى القضيتين المتناقضتين. لكن القدرة على التخلي الواعي والواضح أمر نادر لأن مشاعرنا ومعتقداتنا تكون مشوشة وربما بسبب أن معظم الناس في التحليل النهائي لا يشعرون بالأمن والسعادة بصورة كافية للتخلي عن أي شيء.

أخيراً لاتخاذ القرار يفترض سلفاً وجود الرغبة والقابلية على تحمل المسؤولية. ذلك سيتضمن المجازفة باتخاذ القرار الخاطيء والرغبة في تحمل النتائج دون لوم الآخرين بسببها. سيتضمن ذلك الشعور بأن «هذا هو اختياري وعملي» ويفترض سلفاً قوة واستقلالاً ذاتياً أكثر مما يمتلكه معظم الناس هذه الأيام، كما يبدو.

كما هي الحال بالنسبة للعديد من منا من هم أسيرون في قبضة الصراعات الخائفة - مهما تكن غير معلنة - فإن ميلنا هو أننا ننظر بحسد وإعجاب نحو الناس الذين تبدو حياتهم تناسب متقدمة بيسر دون أن يعكس صفوها أي اضطراب. قد يكون للإعجاب ما يبرره. فقد يكون هؤلاء هم الأقوياء الذين كانوا قد وطدوا دعائم السلسلة الهرمية لمعاييرهم الخاصة، أو الذين كانوا قد حصلوا على مقدار من راحة البال، حيث كانت الصراعات والحاجة لاتخاذ القرار قد

فترت قوتها المدمرة بمرور السنين. لكن المظهر الخارجي قد يكون خادعاً. ففي أغلب الأحوال يكون الناس الذين نحسددهم بسبب من التهاون أو الامتثال أو الانتهازية، غير قادرين حقاً على مواجهة صراع ما أو على محاولة تصريفه حقاً على أساس من قناعاتهم الخاصة، وفي النتيجة يكونون قد انجرفوا أو حُمِلُوا على تغيير آرائهم بواسطة الكسب المباشر.

إن تجربة الصراعات في حال كوننا على وعي بذلك رغم أنها قد تكون موجهة إلا أنها يمكن أن تكون شيئاً نافعاً لا يقدر بثمن. فكلما واجهنا صراعاتنا الشخصية وبحثنا عن حلولها الخاصة، كلما اكتسبنا قوة وحيوية باطنية أكبر. نستطيع أن نقرب من مثال كوننا ربابنة سفننا حينما نكون راغبين في تحمل وطأة المسؤولية فحسب، فراحة البال المزيفة المتأصلة في البلاد قد تكون أي شيء عدا كونها أمراً يُحَسَدُ عليه. فهي بالتأكيد تُحِيلُنَا إلى ضعفاء وفرائس سهلة لأي نوع من التأثير.

حينما تتمحور الصراعات حول قضايا الحياة الأساسية فسيكون من الصعب مواجهتها وتصريفها. غير أنه ليس هناك سبب يحول دون قدرتنا أن نفعل ذلك مبدئياً بشرط أن نزرخ بالحيوية بما فيه الكفاية. يستطيع التعليم أن يفعل الكثير لمساعدتنا على الحياة ونحن على دراية أعظم بأنفسنا وبتطوير قناعاتنا الشخصية. إن إدراك أهمية العوامل المتعلقة بالاختيار قد يعطينا مثلاً نكافح من أجلها، وفي ذلك توجه من أجل حياتنا.

تزداد الصعاب الكامنة في تمييز وتصريف صراع ما دائماً بشكل لا حد له حينما يكون الشخص عُصابياً. فمرض العُصاب الذي نشير إليه هو دوماً مسألة درجة - وعندما أتحدث عن «شخص عُصابي» فإنني أعني بصورة ثابتة «شخصاً عُصابياً إلى درجة ما». وبالنسبة إليه يكون وعي المشاعر في مستوياته الدنيا. في الغالب، تكوّن المشاعر المجربة بصورة واعية وواضحة ردود فعل من الخوف والغضب بالنسبة للضربات الموجهة إلى المواضيع المعرضة للهجوم، وقد تكبّت حتى أمثال هذه الأمور. أما أمثال هذه المثل الأصلية التي تتوفر فعلاً فتتخللها مقاييس قسرية إلى درجة قد تجردها من قوتها في إعطاء التوجيه. كما أن القدرة الشخصية على التخلي تؤول إلى العقم تحت تأرجح هذه الميول القسرية، كما أن القابلية على تحمل المسؤولية عن النفس تكون مفقودة تقريباً.

قد تتعلق الصراعات العصبية بنفس المشكلات العامة التي تحير الشخص السوي. لكنها تكون مختلفة جداً في نوعها بحيث أن التساؤل كان قد طرح فيما إذا كان من الجائز استخدام المصطلح نفسه لكليهما. إنني أعتقد أن ذلك جائز، غير أننا يجب أن نكون على وعي بتلك الاختلافات. ما هي إذاً صفات الصراعات العصبية؟

فيما يلي مثال مبسط نوعاً ما على سبيل الإيضاح: غالباً ما كان أحد المهندسين العاملين مع آخرين في بحث يختص بالآلات يصاب بنوبات من الإعياء وحدة الطبع. وكانت إحدى النوبات قد

أثيرت بواسطة الحادث العرضي التالي. استقبلت آراؤه في إحدى الاجتماعات المتعلقة ببحث بعض المسائل الميكانيكية بتقدير يقل عن تقدير آراء زملائه. وبعد ذلك بفترة وجيزة اتخذ قراراً أثناء غيابه، ثم لم يمنح بعده فرصة من أجل عرض مقترحاته. كان يمكنه في هذه الظروف أن يعتبر الإجراء ظالماً وأن يفتعل شجاراً، أو كان بوسعه أن يتقبل قرار الأغلبية عن طيب خاطر. وكان باستطاعة أي من ردي الفعل أن يكون ردّاً راسخاً. غير أنه لم يقيم بأي منهما. فهو لم يقاتل رغم شعوره بالمهانة. شعورياً، كان يعي كونه ساخطاً. كان الغيظ القاتل في دخيلة نفسه يظهر في أحلامه فحسب. هذا الغيظ المكظوم - مزيج من غضبه العام ضد الآخرين وغضبه العام ضد نفسه - بسبب اعتداله الشخصي - كان مسؤولاً بشكل رئيس عن إرهاقه الشديد.

لقد تحتم إخفاقه في رد الفعل بصورة متناسبة من قبل عدد من العوامل. كان هو قد رسم لذاته صورة فخمة تطلب أن يتنازل الآخرون لتدعيمها. وكانت هذه غير واعية آنذاك: تصرف ببساطة مفترضاً أنه لم يكن هناك من كان يمثل ذكائه وكفاءته في حقل الاختصاص كما كان هو.

وكان أي انتقاص من المحتمل أن يُعرض هذا الافتراض للخطر يثير حفيظته. إضافة لذلك كان يمتلك اندفاعات سادية لا شعورية في توبيخ الآخرين وإذلالهم - إنه ولا شك موقف مرفوض بشدة

من قبل بحيث كان يخفيه تحت ستار من المودة المفرطة. ثم أضيف إلى ذلك دافع لا شعوري لاستغلال الناس، مما يجعله مضطراً لأن يبقى عند حسن ظنهم. وتفاقم الاعتماد على الآخرين عبر الحاجة القسرية إلى الحنو والاستحسان، متحدة كما هي العادة مع مواقف المطاوعة والاسترضاء وتجنب الشجار. وهكذا كان هدف الصراع بين انفعالات العداء المدمرة - غيظ رد الفعل والانفعالات السادية - من جهة ومن جهة أخرى الحاجة إلى الحنو والاستحسان، مع الرغبة في الظهور بمظهر العادل والمعقول في عينه هو. وكانت النتيجة جيّشان باطنيّ مرّ دون أن يُلاحظ، بينما شلّ الإعياء الذي كان يمثل مظهره الخارجي كلّ فعل لديه.

عندما نراقب العوامل المشمولة بالصراع نُجابه أولاً بتنافرها المطلق. قد يكون من العسير حقاً أن نتصور نقائص متطرفة جداً أكثر من المطالب الكبيرة التي تدعو إلى الإذعان لإرادة فرد من الأفراد والتملق له. ثانيًا، يظل الصراع برمته لا شعوريًا. إذ لا تدرك الميول المتناقضة الفاعلة فيه، لكنها تُكبت على نحو خطير. ولا تطفو على السطح غير فقاعات قليلة فقط من المعركة المحتدمة في الأعماق. كما تبرر العوامل الوجدانية، فالمسألة مسألة ظلم وقضية استهتار، فقد كانت آرائني أكثر صوابًا. ثالثًا، تكون الميول في كلا الاتجاهين ميولاً قسرية. وحتى لو كان لديه شيء من التصور الذهني عن مطالبه المفرطة أو وجود طبيعة اتكالية لديه، فليس بوسعه تغيير هذه

العوامل طوعًا. لكي يكون قادرًا على تغييرها سيتطلب ذلك جهدًا لا يستهان به من تحليل النفس. فقد كان مدفوعًا في كل من الناحيتين بواسطة قوى مُكرِهَةٍ لا سيطرة له عليها: لم يكن ليستطيع أن ينبذ أيًا من الحاجات المكتسبة بسبب الضرورة الباطنية الملحة. لكن أيًا منها لم يكن يمثل ما كان يريده هو نفسه أو يبحث عنه حقًا. إذ لم يكن يريد أن يستغل أو أن يكون مطاوعًا وكان في الحقيقة يحتقر هذين الميلىن. قضية كهذه على كل حال تمتلك أهمية بعيدة الغور نحو فهم الصراعات العُصابية. إنها تعني عدم توفر قرار عملي هنا.

مثال آخر يقدم صورة مماثلة. أحد مهندسي الديكور ممن يشتغل لحسابه الخاص كان يقوم بسرقة مبالغ صغيرة من صديق حميم لديه. لم يكن الوضع الظاهري يعطيه أي مسوغ للسرقة؛ لقد كان بحاجة للمال، لكن صديقه كان قادرًا لأن يعطيه المال برحابة صدر كما سبق أن فعل ذلك أحيانًا فيما مضى. فكان اضطراره للسرقة مثيرًا للدهشة إذ أنه كان رجلاً نزيهاً وممن كان قد أرسى مع الآخرين دعائم صداقة وطيدة.

كان الصراع التالي يقبع في أعمال الصداقة؛ كانت لدى الرجل حاجة عُصابية صريحة للحنو، ولا سيما تروق مُلحّ لأن يؤخذ بيده في جميع القضايا العملية. ولما كانت هذه الخصلة مشوبة بدافع لا شعوري في استغلال الآخرين فقد تميز أسلوبه بمحاولة ممارسة كل من صفتي تحجيب النفس والتهديد. كان بوسع هذه الميول بحد ذاتها

أن تجعله راغبًا بل متلهفًا لقبول المساعدة والدعم. غير أنه كان قد اكتسب غطرسة لا شعورية تضمنت إعدادًا مائلًا بالنفس سريع التأثير. ينبغي على الآخرين أن يشعروا بالارتياح للقيام بخدمته، إذ كان من العار عليه أن يطلب المساعدة. كان بغضه الشديد لضرورة السؤال قد تعزز بحنين قوي للاستقلال واكتفاء الذات مما جعله لا يطيق الاعتراف بأنه كان بحاجة لأي شيء أو لأن يطوق عنقه بالجميل. لذلك السبب كان بوسعه أن يأخذ لا أن يستلم.

يختلف محتوى هذا الصراع عن محتوى المثال الأول إلا أن المميزات الأساسية تبدو متماثلة. كما أن أي مثال آخر للصراع العصابي سيرينا تنافرًا مشابهًا للدواعي المتصارعة مع طبيعتها القسرية واللاواعية والتي تقود دائمًا إلى استحالة البت في المسائل المتناقضة التي تشمل عليها.

بعد أخذ نقطة الانطلاق الغامضة بنظر الاعتبار، يقع الفرق بعد ذلك بين الصراعات الطبيعية والصراعات العصبية بشكل أساسي في حقيقة أن التفاوت بين القضايا المتصارعة يكون أقل بكثير للشخص السوي قياسًا مع الشخص العصبي. فالاختيارات التي يتعين على السابق القيام بها تتم بين نوعين من الفعل كل منهما محتمل ضمن إطار الشخصية المتكاملة تمامًا. وإذا تحدثنا بيانياً فسوف تشعب الاتجاهات المتصارعة ٩٠ درجة أو أقل فحسب مقابل ١٨٠ درجة محتملة في مواجهة ذلك الشخص العصبي.

كذلك الفرق بالنسبة للوعي هو مجرد فرق بالدرجة. ومثلما كان كيركجارد قد أشار إليها: «تتسم الحياة الواقعية بالتنوع الهائل حيث لا يمكن أن تُصوّر بعرض مثل هذه التباينات المجردة فحسب، كتلك التي تتوفر بين قنوط ليس واعياً تماماً وآخر هو واع تماماً». إن باستطاعتنا على كل حال أن نذكر القول التالي: يمكن أن يكون الصراع الطبيعي واعياً بشكل كامل ويكون الصراع العُصابي في جميع عناصره الأساسية غير واع على الدوام. وحتى إذا كان الشخص السوي غير واقع بصراعه فهو يستطيع تمييزه بمساعدة طفيفة نسبياً، بينما تكون الميول الأساسية المولدة للصراع العُصابي قد كتبت عميقاً ويمكن الكشف عنها مقابل مقاومة عظيمة.

يتعلق الصراع الطبي بالاختيار الواقعي لواحد من احتمالين يجد الشخص كلاً منهما مرغوباً فيه فعلاً، أو بين قناعتين يُقدّر الشخص كلاً منهما حقيقة. لذلك بمستطاعه أن يصل إلى قرار عملي حتى وإن كان ذلك عسيراً عليه ويتطلب إنكاراً من نوع ما. أما الشخص العُصابي المنهمك في الصراع فليس حرّاً في الاختيار. فهو مدفوع على حد سواء من قبل قوى قاهرة نحو اتجاهات متضاربة لا يرغب أن يتبع أيّاً منها. وهكذا فإن أي قرار بالمعنى المعتاد يبدو مستحيلًا. وهو ينجح إلى الشاطئ ولكن لا يبدو هناك طريق للخلاص. بالاستطاعة تصويب الصراع بالتأثير على النزعات العُصابية ذات العلاقة وبواسطة تغيير علاقات العُصابي مع نفسه ومع الآخرين تماماً حيث يستطيع الاستغناء عن النزعات بكل ما في الكلمة من معنى.

تتسبب هذه المميزات في حدة الصراعات العصبية. فهي ليست صعبة جدًا في التمييز وهي لا تحيل المرء إلى إنسان عاجز فحسب بل تشتمل على قوة مدمرة، كذلك للعصابي مطلق الحق في التخوف منها. وما لم نتعرف على هذه المميزات ونحتفظ بها في أذهاننا فسوف لن نفهم المحاولات اليائسة التي يقوم بها الشخص العصابي لحلها والتي تؤلف الجزء الأهم من مرض العصاب.

الفصل الثاني

الصراع الأساس

تلعب الصراعات دورًا لا حد له في مرض العُصاب وبصورة أعظم مما كان يفترض على وجه العموم. وعلى كل حال فالعثور على الصراعات ليس بالأمر اليسير - جزئيًا لأنها غير واعية أساسًا، وإلى درجة أكثر من ذلك لأن الشخص العُصابي يقوم بجهد عظيم جدًّا في سبيل إنكار وجودها. إذا ما هي المؤشرات التي تبرر ارتيابنا بوجود صراعات كامنة؟ في المثالين اللذين أشير إليهما في الفصل السابق كان وجود تلك الصراعات قد يُبَيَّن بواسطة عاملين، كل منهما يتميز بالوضوح إلى حد ما. تمثل أحدهما في العرض المرضي الناتج - الإعياء في الحالة الأولى والسرقة في الحالة الثانية - ففي الحقيقة أن كل سمة عُصابية تشير إلى صراع كامن؛ أي أن كل سمة تمثل تطورًا

مباشراً قل أو أكثر عن صراع من الصراعات. وسنشاهد تدريجياً ما تفعله الصراعات غير المصرفة بالناس وكيف تحدث حالات من القلق والاكتئاب والحيرة والعطالة والعزلة، وهلم جرا.

إن فهم العلاقة السببية هنا يساعد على توجيه انتباهنا من الاضطرابات الظاهرة إلى مصدرها، رغم أن طبيعة المصادر المحددة لن تكون ظاهرة للعيان.

كانت العلامة الأخرى الدالة على أن الصراعات تفعل فعلها، تتمثل في التناقض الذاتي. فقد رأينا في المثال الأول رجلاً مقتنعاً بخطأ أحد الأساليب وأن ظلماً كان قد لحقه ولا يفعل شيئاً للاحتجاج عليه. في المثال الثاني لجأ أحد الأشخاص، ممن كان يقدر الصداقة حق قدرها، إلى سرقة النقود من صديق حميم. قد يكون الشخص نفسه أحياناً واعياً لمثل هذه التناقضات الذاتية ولكنه في الأعم الأغلب لا يبصرها حتى وإن كانت تلفت النظر بضحيجها بالنسبة لمراقب غير متمرس.

تمثل التناقضات الذاتية إشارة جلية عن وجود الصراعات مثلما يمثل ارتفاع درجة حرارة الجسم اضطراباً جسدياً. نورد هنا صوراً لبعض الشائع منها: ترغب فتاة ما أن تتزوج قبل أي شيء آخر ومع ذلك فهي تضطرب من مغازلة أي رجل يتقدم إليها. وغالباً ما تنسى إحدى الأمهات الجزعات مناسبة أعياد الميلاد لأطفالها. يتميز أحد الأشخاص الموصوفين بالسخاء والكرم، بالتقير الشديد على نفسه.

وقد يتوق شخص آخر للوحدة لكنه لا ينجح أبدًا في البقاء بمفرده. أو قد يكون أحدهم ممن عرف بالتسامح والحلم مع معظم الناس، شديد القسوة وكثير المتطلبات مع نفسه.

و على عكس الأعراض المرضية غالبًا ما تتيح التناقضات الذاتية افتراضات مبدئية بشأن طبيعة الصراع الكامن. فالإكتئاب الحاد على سبيل المثال، يكشف عن حقيقة أن الشخص أسير مأزق من المآزق. ولكن عندما تنسى أم متفانية أعياد ميلاد أطفالها فإننا نميل إلى الظن بأن الأم كانت أشد تعلقًا بمثلها كأ م صالحة أكثر من تعلقها بالأطفال أنفسهم. وربما نعترف أيضًا باحتمال أن مثاليها قد تصادمت مع ميل سادي غير واع من أجل تثبيط عزائمهم.

أحيانًا يطفو أحد هذه الصراعات على السطح، أي أنه يجرب شعوريًا بكونه كذلك. يبدو هذا على تناقض مع توكيدي بأن الصراعات العصبائية هي صراعات لاشعورية. لكن ما يظهر واقعياً هو تشويه أو تعديل للصراع الحقيقي. وهكذا فقد ينهار أحد الأشخاص نتيجة صراع محسوس حينما يجد نفسه رغم أساليبه المراوغة والتي تؤدي عملها عادة بشكل جيد، في مجابهة مع ضرورة اتخاذ قرار مهم. إذ قد لا يسعه أن يقرر بشكل حازم إن كان سيتزوج من هذه المرأة أم تلك أو ألا يتزوج إطلاقاً؛ أو إن كان سيستلم هذه العمل أم ذاك؛ أو إن كان سيحتفظ بشراكة شريك أو أن يفسخها. ثم سيمضي عبر معاناة عظيمة، وهو يتراوح بين نقيض ونقيض

غير قادر تمامًا على التوصل إلى أي قرار. وقد يراجع محلاً نفسياً أثناء محنته متوقفاً أن يوضح له المسائل الخاصة بذلك. سيخيب أمله بالضرورة لأن الصراع الحاضر هو الموضوع الذي تفجرت فيه أخيراً قبلة الصدمات الباطنية. إن المعضلة الخاصة التي يجتاز العُصابي محتتها لا يمكن أن تحل الآن دون المرور عبر طريق المعاناة الطويلة لتمييز الصراعات المختلفة وراءها.

قد يعمل على تخريج الصراع الباطني في حالات أخرى؛ فيبدو في عقل الشخص الواعي كنوع من التناقض بين ذاته ومحيطه. أو، عندما يجد أحد الأشخاص أن المخاوف والمشاعر المكبوتة التي لا تستند على أساس قوي ظاهرياً، تتدخل في رغباته، فقد يكون على وعي بأن التيارات المتضاربة داخل ذاته تنطلق من مصادر أبعد غوراً.

كلما توصلنا إلى معرفة أكبر عن أحد الأشخاص كلما كانت قدرتنا أفضل في تمييز العناصر المتصارعة التي تعلق الأعراض المرضية والتناقضات الذاتية والصراعات السطحية. ويجب أن نضيف، كلما أضحت الصورة مضطربة بشكل أوضح من خلال عدد وتنوع التناقضات. لذلك نقاد إلى التساؤل: هل يمكن أن يكون هناك صراع أساس يكمن خلف هذه الصراعات الخاصة ويكون مسؤولاً أصلاً عنها جميعاً؟ هل يستطيع المرء أن يتصور بنية الصراع، مثلاً في شكل زواج غير منسجم، إذ ثمة صور لانهاية لها من الخلافات والمشاحنات التي تبدو غير مترابطة ظاهرياً، بصدد

الأصدقاء أو الأطفال أو الموارد المالية أو أوقات تناول الطعام أو بسبب الخدم أو ربما بعض التنافر الجوهري في العلاقة ذاتها؟

إن الاعتقاد بوجود صراع أساس داخل النفس البشرية هو اعتقاد قديم ويلعب دورًا حيويًا في مختلف الأديان والفلسفات. إن قوى النور والظلام أو الحكمة والشيطان، أو الخير والشر تمثل بعض الطرق التي عبر عنها بهذا الاعتقاد. كان فرويد قد أجرى بحوثًا رائدة في هذا المجال وفي مجالات أخرى عديدة. وكان افتراضه الأول أن الصراع الأساس صراع بين دوافعنا الغريزية بإلحاحها الشديد نحو الإشباع وبين المحيط الذي يمنع ذلك، أي العائلة والمجتمع. إن المحيط الذي يحرم الغرائز يستوعب داخلًا في سن مبكرة ويظهر منذ ذلك الوقت دائمًا على هيئة -: «أنا» العليا والتي تحرم.

قلما يكون ملائمًا أن نبحث هنا في هذا المفهوم بالجدية التي يستحقها. سيتطلب هذا موجزًا لكل الحجج التي طرحت ضد نظرية الطاقة الجنسية. دعنا نحاول بدلاً من ذلك أن ندرك معنى المفهوم ذاته حتى ولو أدى ذلك لابتعاد أو إقصاء فرضيات فرويد النظرية. وما سيبقى إذاً هو الرأي المتنازع عليه بأن التعارض بين الدوافع البدائية المتمركزة في الذات وضميرنا المحرم هو المصدر الرئيسي لصراعاتنا المتنوعة كثيرًا. كما سيشاهد بعدئذٍ فإنني كذلك أعزو لهذا التعارض أو ما يشابهه تقريبًا عبر طريقتي في التفكير، مكانة رئيسة في بنية مرض العُصاب. ما أفنّده هو طبيعته الجوهريّة، ويتمثل اعتقادي

في أنه ولو كان صراعًا أساسًا فهو ثانوي وينبثق بالضرورة أثناء تطور مرض العُصاب.

ستغدو أسباب هذا التفنيد بينةً فيما بعد. هنا أذكر هذه الحجة الفريدة فحسب: إنني لا أعتقد أن أي صراع بين الرغبات والمخاوف يستطيع أبدًا أن يفسر مدى التمزق الذي يصله الشخص العُصابي داخل نفسه ولا أن يفسر حصيلة تتصف بضرر بالغ بحيث تستطيع هدم حياة شخص من الأشخاص فعلاً. إن الحال النفسية التي يفترضها فرويد ستقتضي ضمناً أن يحتفظ الشخص العُصابي بالقدرة على أن يكافح من أجل شيء ما من كل قلبه وأن يشعر بالإحباط فحسب في كفاحه هذا بسبب فعل المخاوف المعوقة. وما أراه أنا شخصياً هو أن مصدر الصراع هذا يدور حول فترات فقدان القابلية على الرغبة في أي شيء بصدق لأن رغباته ذاتها تكون متضاربة، أي أنها تسير في اتجاهات متعاكسة. قد يعبر هذا عن حال خطيرة حقاً أكثر بكثير من تلك التي تصورها فرويد.

على الرغم من حقيقة أنني أعتبر الصراع الأساس أكثر تمزيقاً مما يعتبره فرويد، غير أن وجهة نظري عن إمكانية وجود حل لا بد منه أكثر إيجابية من وجهة نظره. فالصراع الأساسي طبقاً لفرويد هو صراع عام وهو غير قابل للتصريف: كل ما يمكن عمله هو التوصل إلى تسويات أفضل أو إلى سيطرة أفضل. أما طبقاً لوجهة نظري فلا يتعين في المقام الأول أن يبرز الصراع العُصابي الأساس بالضرورة فهو قابل

للتصريف إذا حدث وظهر فعلاً، بشرط أن يكون من يكابده راغباً في اجتياز الجهود والصعاب التي لا يستهان بها والتي تتصل به. هذا الفرق ليس مسألة تفاؤل أو تشاؤم، لكنه ينتج حتماً عن الفرق بين فرضياتنا.

يتميز جواب فرويد الأخير على قضية الصراع الأساس بكونه يتمتع بجاذبية فلسفية كبيرة. ومرة أخرى بعد طرح مختلف طرائق تفكيره جانباً تختصر نظريته عن وجود غريزة «حياة» و«موت» إلى صراع بين القوى البناءة والمدمرة لدى الكائنات البشرية. كان فرويد نفسه أقل اهتماماً في ربط تأثير هذه الفكرة بالصراعات من ربطها بالطريقة التي تتداخل فيها القوتان فيما بينهما. فقد رأى مثلاً إمكانية تعليل دوافع الاضطهاد والدوافع السادية على أنه مجرد اندماج بين الغرائز الجنسية والغرائز المدمرة.

عند تطبيق هذه الفكرة على دراسة الصراعات سيتطلب الأمر إدخال المعايير الخلقية والتي كانت بالنسبة لفرويد تمثل دخلاء غير شرعيين على مملكة العلم. لقد كافح فرويد وفقاً لقناعته من أجل تطوير علم للنفس خالٍ من القيم الخلقية. إنني أعتقد أن مجرد هذه المحاولة في أن يكون «علمياً» بمقاييس العلوم الطبيعية هي أحد الأسباب الأكثر إقناعاً في اقتصار نظريات فرويد والعلاج الذي يستند عليها، على قنوات ضيقة جداً. وبصورة أكثر تخصيصاً يبدو أنها ساهمت في فشله في تقدير دور الصراعات في مرض العُصاب رغماً عن جهده الشامل في هذا الحقل.

لقد وضع يونغ أيضًا توكيدًا لا يستهان به على الميول المتعاكسة لدي الكائنات البشرية. وكان يونغ، في الحقيقة، متأثرًا بالتناقضات المؤثرة في الفرد إلى درجة كبيرة حيث اتخذها كقاعدة فعلية تشير إلى أن توفر أي عنصر في الفرد سيشير بالضرورة إلى توفر ما يقابله. فمظهر التأنت الخارجي كان يدل على رجولة في الداخل والانبساط السطحي كان يعني انطواءً خفيًا والتفوق الظاهري في التفكير والاستنتاج كان يدل على تفوق الإحساس بالذات، وهلم جرا.

عبر هذا المنطق فإن يونغ اعتبر الصراعات مميزة جوهرية بارزة في مرض العُصاب. ولكنه يستمر في القول بأن هذه النقائص ليست متصارعة بل متكاملة. والهدف هو قبول كليهما وبذلك يتم الإقتراب من الحال المثالي المتكامل. كما يمثل الشخص العُصابي بالنسبة له من ينجح في تطور أحادي الجانب. لقد صاغ يونغ هذه الآراء فيما دعاه بقانون المكملات. إنني أدرك الآن أيضًا أن الميول المتعارضة تتضمن عناصر تكميلية لا يمكن الاستغناء عن أي منها في الشخصية الموحدة. غير أن هذه الميول المتعارضة تظل في رأيي مجرد ثمرات نامية عن الصراعات العُصابية وأن العُصابي يتشبث بها بعناد شديد لأنها تمثل محاولات في الحل. فإذا اعتبرنا مثلاً أن الميل نحو الاستبطان والانسحاب أكثر تعلقًا بمشاعر الفرد الشخصية وأفكاره أو مخيلته من تعلقها بتلك التي تعود للآخرين، كميلٍ أصيلٍ - لو فعلنا ذلك إذًا سيكون استنتاج يونغ صحيحًا. وسيتمثل إجراء العلاج الفعال في

أن نعرض على الشخص ميوله «الانبساطية» الخافية وأن نبين أخطار التطور من جانب واحد في كل من الاتجاهين، وبهدف تشجيعه على أن يقبل التعايش مع كل من الميلىن. وعلى كل حال، إذ اعتبرنا الانطواء (أو كما أفضل أن أسميه العزلة العُصابية) كوسيلة للتخلص من الصراعات التي تنشأ عن الاحتكاك المباشر مع الآخرين، فالمهمة لن تكون التشجيع على انبساط أكثر بل على تحليل الصراعات الكامنة. ويمكن الاقتراب من هدف العفوية النابعة من القلب بعد أن تكون الصراعات هذه قد صُرِّفت فحسب.

واستمرارًا في تطوير موقفي الخاص، أرى أن صراع الشخص العُصابي الأساسي يكمن في مواقفه المتناقضة جوهريًا والتي كان قد اكتسبها نحو الأشخاص الآخرين. قبل الدخول في التفاصيل دعوني ألفت الانتباه إلى التعبير المسرحي عن هذا التناقض في قصة الدكتور جيكل والسيد هايد. فنحن نراه من جهة رقيقًا وحساسًا وودودًا، يحب المساعدة، ومن جهة ثانية يبدو متوحشًا، قاسي الفؤاد وأنانيًا، إنني بطبيعة الحال لا أقصد أن ألمح إلى أن التمزق العُصابي يتقيد دائمًا بالمسار الدقيق لهذه القصة ولكن لمجرد الإشارة إلى تعبير مفعم بالحوية نحو مواقف التنافر الأساسي تجاه الآخرين.

عند التعامل مع المعضلة وراثيًا يجب أن نرجع إلى ما كنت قد دعوته القلق الأساس قاصدة بذلك الشعور الذي يملك الطفل بكونه معزولاً وعاجزًا في عالم تكمن فيه إمكانية العدوان. يمكن

لسلسلة طويلة من العوامل المتضاربة في البيئة أن تنتج عدم الأمان لدى الطفل: كالتسلط المباشر أو غير المباشر، اللامبالاة، السلوك الشاذ، عدم احترام حاجات الطفل الفردية، انعدام التوجيه الحقيقي، مواقف الانتقاص، الثناء المفرط أو غياب الثناء، عدم توفر حنان يعول عليه، الاضطرار إلى التحيز إلى أحد الجانبين في الخلافات بين الوالدين، المسؤولية المضاعفة أو الضئيلة جدًا، الحماية المفرطة، الانعزال عن الأطفال الآخرين، الظلم، المحاباة، الوعود غير المنفذة، والجو العدائي أو غيرها من الأسباب.

إن العامل الوحيد الذي ينبغي أن ألفت إليه الانتباه بشكل خاص في هذا المضمار هو إحساس الطفل بالنفاق المترصد في البيئة: إحساسه بأن حب الوالدين وتمسكهم بأهداب الدين، ونزاهتهم، وكرمهم، أو غيره، قد يكون مجرد ادعاء. إن جزءًا مما يحس به الطفل بهذا الصدد هو رياء في الحقيقة؛ لكن بعضًا منه قد يكون مجرد رد فعل لكل التناقضات التي يشعر بها في سلوك الأبوين. هناك في العادة خليط من عوامل شديدة التعقيد. قد تكون هذه ظاهرة علناً أو خفية تمامًا بحيث يستطيع المرء عند التحليل وبصورة تدريجية أن يميز هذه المؤثرات على تطور الطفل.

يتلمس الطفل، لدى شعوره بالضيق مما يحيط به طرقًا تعينه على المضي قدمًا، طرقًا من أجل الكفاح في هذا العالم الخطر. وعلى الرغم من ضعفه ومخاوفه الخاصة فهو يكيف وسائله لمواجهة القوى

الخاصة الفاعلة في بيئته. عند قيامه بذلك فهو لا يطور استراتيجيات لهذا الغرض بالذات بل نزعات مميزة تصبح جزءاً من شخصيته كنت قد سميتها بـ «النزعات العصبية».

إذا أردنا أن نشاهد كيف تنشأ الصراعات علينا ألا نركز بدقة كبيرة على النزعات الفردية بل من الأفضل أن نلقي نظرة شاملة على الاتجاهات الرئيسية التي يستطيع ويتحرك الطفل فعلاً بواسطتها في هذه الظروف. ورغم أننا لا نبصر التفاصيل سريعاً إلا أننا سنحصل على منظور أوضح عن التحركات الأساس المتخذة لغرض مقارعة البيئة. قد تبدو لنا في البداية صورة فوضوية غير أنها ستتبلور في حينه إلى ثلاثة خطوط رئيسية: فيستطيع الطفل أن يتحرك نحو الناس أو ضد الناس أو بعيداً عنهم.

حينما يتحرك الطفل نحو الناس فهو يتقبل عجزه الشخصي ويغض النظر عن اغترابه ومخاوفه فهو يحاول الفوز بحنو الآخرين وأن يتكئ عليهم. كما يستطيع أن يشعر بالأمن معهم بهذه الطريقة. فإذا كانت أطراف متنازعة داخل العائلة فسيلحق نفسه بأكبر الأشخاص أو الجماعات قوة. فهو يحصل إذ يسايرهم على إحساس بالانتماء والمساندة مما يجعله يحس أنه أقل ضعفاً وأقل عزلة.

و حينما يتحرك ضد الناس فهو يتقبل ويعتبر حال العدوان من حوله كأمر مسلم به، ويقرر شعورياً أو لا شعورياً أنه في عراك دائم. فهو لا يثق ضمناً بمشاعر ونوايا الآخرين تجاهه. فيتمرد من خلال

آية ثغرة تصادفه. إنه يرغب أن يصبح أقوى فيهمز مهم، جزئياً من أجل سلامته الشخصية أو جزئياً من أجل الانتقام من الآخرين.

أما حينما يتحرك بعيداً عن الناس، فهو لا يريد أن ينتمي أو أن يتشاجر وإياهم، بل ل يبقى بمعزل عنهم وهو يشعر أنه لا يمتلك الكثير مما يشاركونهم فيه، إنهم لا يفهمونه على أية حال. فيشيد عالماً خاصاً بذاته: بطبيعته، بلعبه، بكتبه وأحلامه.

في كل من هذه المواقف، يكون أحد العناصر المرتبطة بالقلق الأساسي مؤكداً بإفراط: العجز عند الأول والعدوان عند الثاني والعزلة عند الثالث. لكن الحقيقة هي أن الطفل لا يستطيع القيام بأي من هذه التحركات بصدق نابع من القلب وذلك بسبب حتمية تواجدها جميعاً تحت الظروف التي تتطور فيها المواقف هذه. فما كنا قد شاهدناه عبر نظرنا الشاملة هو التحرك البارز فحسب.

إن ذلك سيغدو جلياً إذ اتجهنا الآن مقدماً حيث مرض العُصاب المتطور تماماً. كلنا نعلم بوجود أشخاص بالغين ممن يتوفر عندهم أحد المواقف التي رسمناها على وجه السرعة وهو يبرز بوضوح. لكننا نستطيع أن نرى أيضاً أن ميوله الأخرى لم تكف عن العمل. فبوسعنا أن نلاحظ لدى النمط الاتكالي والمطواع ميولاً عدوانية وبعض الحاجة إلى الانعزال. إذ يمتلك الشخص العدواني بشكل جوهري ضرباً من المطاوعة كما أنه يحتاج إلى العزلة أيضاً. كما أن الشخصية المنعزلة ليست مجردة من روح العدوان ولا من الرغبة بالحنو.

إن الاتجاه النفسي البارز، على كل حال، هو الذي يقرر بأقصى قوة السلوك الحاصل. فهو يمثل تلك الطرق والوسائل في التعامل مع الآخرين والتي يحس من خلالها شخص معين بأقصى ما يمكن من الارتياح لذلك يستخدم الشخص المنعزل، في الحقيقة كل الأساليب اللاشعورية في إبقاء الآخرين على مسافة تكون آمنة بالنسبة إليه بسبب شعوره بالارتباك فيما يتطلب منه الارتباط الوثيق بالآخرين. إضافة لذلك، يكون الموقف المسيطر في الغالب وليس دائمًا، هو الموقف الأكثر قبولاً بالنسبة لعقل الشخص الواعي.

إن هذا لا يعني أن الاتجاهات النفسية الأقل بروزًا هي الأقل قوة. في الغالب قد يكون من الصعب القول، مثلاً، فيما إذا كانت رغبة السيطرة هي أضعف شدة من الحاجة للحنو عند شخص اتكالي ومطواع ظاهريًا، لكن طرقه في التعبير عن اندفاعاته العدوانية تبدو أكثر موارد فحسب، كما تلاحظ حيوية الميول الدفينة، وهي عظيمة جدًا، عبر الأمثلة الكثيرة التي يترد فيها الاتجاه الذي اكتسب بروزًا إلى العكس. ويمكننا أن نشاهد مثل هذا الانعكاس عند الأطفال ولكنه يحدث في أواخر العمر كذلك. قد يمثل سترايكلاند في رواية سمرسيت موم: القمر والستة بنسات صورة حية جيدة. وغالبًا ما تكشف السير المرضية عند النساء عن هذا النوع من التغيير. فحينما يحدث أن تعشق فتاة كانت سابقًا مسترجلة، وطموحة، ومتمردة فإنها تنقلب إلى امرأة اتكالية، لينة العريكة وبلا طموح ظاهريًا. وقد

يتقلب شخص منعزل، تحت وطأة التجارب المريرة، إلى شخص اتكالي بصورة تثير الكآبة.

وينبغي أن نضيف أن تغييرات مثل هذه تسلط بعض الضوء على السؤال الذي يتردد فيها إذا كانت الخبرة التالية لا طائل من ورائها إذا كنا قد حوصرنا ضمن قنوات محدودة وجُبلنا مرةً وعلى شيء وإلى الأبد بواسطة أوضاعنا أثناء مرحلة الطفولة. إن معاينة التطور العُصابي من وجهة نظر الصراعات تمكنا من أن نقدم جواباً أكثر ملائمة لما تقدم أعلاه. وهذه هي الاحتمالات: إذا كانت الحال المبكرة لا تكبح النمو الطبيعي بقسوة مفرطة فمن الممكن أن يكون للخبرات اللاحقة سيما في سن المراهقة تأثيراً فعالاً. وإذا كان تأثير الخبرات المبكرة قوياً بما لا يستهان به بحيث أنه كان قد صبَّ الطفل في نمط متصلب فلن تستطيع أية خِبر جديدة أن تحترق طريقها إليه. لأن ذلك جزئياً بسبب صلابته التي لا تتركه عرضة لأي خبرة جديدة: فقد تكون عزلته، مثلاً، عظيمة جداً بحيث لا تسمح لخبرة أي امرئ أن تؤثر فيه أو قد تكون اتكالية عميقة الجذور جداً بحيث أنه يضطر دائماً أن يلعب دوراً ثانوياً وأن يشجع الآخرين على استغلاله. وجزئياً لأنه يفسر أية خبرة جديدة بلغة نمطية: فالصنف العدواني، مثلاً، عند مواجهته للمودة، سينظر إليها، إما على أنها ظاهرة غباء أو أنها محاولة لاستغلاله؛ فالخبرة الجديدة ستميل إلى ترسيخ النمط القديم. وقد يبدو، عندما يتبنى الشخص العُصابي فعلاً موقفاً مغايراً،

كما لو أن الخبرة المتأخرة قد أحدثت تغييرًا في شخصيته، إنها على كل حال، لن يكون التغيير جوهريًا كما يبدو. فما حدث في الواقع هو أن الضغوط الداخلية والخارجية المختلطة كانت قد اضطرتة إلى نبذ موقفه المتسلط لصالح النقيض الآخر ولكن هذا التغيير ما كان قد حدث لو لم تكن هناك صراعات منذ البداية.

ليس هناك سبب، من وجهة نظر الشخص السوي، يحول دون كون المواقف الثلاثة متضامنة بعضها مع البعض بصورة مشتركة. إذ ينبغي على المرء أن يكون قادرًا على التنازل للآخرين وعلى الكفاح وعلى الانعزال بنفسه. يمكن للمواقف الثلاثة أن تكمل بعضها بعضًا وأن تخلق كلاً متناغمًا. فإذا طغى أحدها فذلك يشير إلى تطور متزايد في أحد تلك المسارات.

إلا أن هناك أسبابًا عدة في كون هذه المواقف غير قابلة للانسجام مع بعضها بعضًا في مرض العُصاب. فالشخص العُصابي غير مرن وهو منقاد للمطاوعة وللشجار وللتعالي، بغض النظر عما إذا كان التحرك متفقمًا مع الطرف الخاص أم لا. وهو يصاب بحالة رعب إذا تصرف خلافًا لذلك. ولهذا السبب حينها تتواجد المواقف الثلاثة بأية درجة من القوة فسيؤدي ذلك بالعُصابي إلى الوقوع في شرك صراع مرير.

هناك عامل آخر يزيد بشكل كبير من مدى الصراع ويتمثل في كون الاتجاهات لا تظل محصورة في نطاق العلاقات الإنسانية ولكنها

تغزو الشخصية بكاملها كما يغزو النسيج العضوي ورم خبيث. ولا يؤدي الأمر إلى تطويق علاقة الشخص بالآخرين فحسب، بل إلى تطويق علاقته مع نفسه ومع الحياة عمومًا. فإذا لم نكن على وعي تام بهذه السمة المطوقة بكل معنى الكلمة، فسوف يغرينا ذلك بالتفكير بالصراع الناتج ضمن تعابير مطلقة كالحب نقيض البعض والمطاوعة نقيض التحدي والإذعان نقيض السيطرة، وهلم جرا.

قد يكون ذلك مضللًا، على كل حال، مثلما يكون التمييز بين الفاشية والديمقراطية بالتركيز على أية سمة مضادة منفردة، كالفرق بينهما في النظرة إلى الدين أو السلطة. وهذان هما فرقان بالتأكيد، لكن التشديد المطلق عليهما سيؤدي إلى حجب الميزة في أن الديمقراطية والفاشية هما عالمان مفترقان ويمثلان فلسفتين حياتيتين غير متجانستين مع بعضهما إطلاقًا.

ليس حدثًا طائرًا أن الصراع الذي يبدأ في علاقتنا مع الآخرين يؤثر بمرور الزمن في الشخصية بكاملها. إن العلاقات الإنسانية حاسمةٌ جدًا، من حيث أنها تؤدي إلى صياغة الصفات الشخصية التي نكتسبها والأهداف التي نضعها لأنفسنا والقيم التي نؤمن بها. إن كل هذه بدورها تضيف رد فعلها على علاقتنا مع الآخرين وهكذا فهي متداخلة بشكل معقد.

إن الرأي الذي أناقشه هو أن الصراع الناشئ عن الاتجاهات غير المتجانسة يؤلف محور مرض العُصاب ولهذا السبب يستحق أن

يوصف بالصراع الأساس. ثم دعوني أضيف بأنني أستخدم تعبير محور لا بالمعنى المجازي لأنه هام فحسب، بل لتأكيد الحقيقة في كونه المركز الحيوي الذي تبعث منه أمراض العُصاب. هذا الرأي الذي أناقشه هو نواة نظرية حديثة عن مرض العُصاب حيث ستصبح معانيها جلية فيما سيأتي لاحقاً. عند تقويمها بشكل عام يصبح من المستطاع اعتبارها تفصيلاً لفكرتي الأولى في أن أمراض العُصاب تمثل تعبيراً عن اضطراب في العلاقات الإنسانية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

التحرك نحو الناس

من المستحيل أن نقدم الصراع الأساس عن طريق عرضه ببساطة وهو يفعل فعله في عدد من الأفراد. إذ بسبب قوته الممزقة يشيّد مريض العُصاب بنية وقائية حوله مما يفيد لا في حجه عن الأنظار فحسب بل في الغوص به أيضًا عميقًا جدًا بحيث لا يمكن عزله في صورته المجردة. فتكون المحصلة أن ما يطفو على السطح يمثل المحاولات المختلفة بحثًا عن الحل، أكثر من كونها الصراع نفسه. لذلك فالتفصيلات البسيطة للتأريخ المرضي لا تؤدي إلى تجسيد جميع مضامينه وسيكون العرض بالضرورة مرتبطًا بالظروف إلى أبعد مدى وقد يقدّم صورة غير واضحة بشكل يفوق المعتاد.

علاوة على ذلك، لا يزال الرسم التخطيطي الذي قُدم في الفصل السابق بحاجة لأن يتكامل. ولكي نفهم كل ما يشتمل عليه الصراع الأساس، يجب أن نبدأ بدراسة جميع العناصر المتصارعة كلاً على حدة. ونستطيع أن نفعل ذلك بشيء من النجاح إذا راقبنا أنماط الأفراد ممن سيطر عليهم اتجاه أو آخر من هذه العناصر بشكل بارز والذي يمثل للفرد الذات الأكثر قبولاً.

سأقوم بتصنيف هذه الأنماط لغرض التبسيط في هيئة شخصية مطاوعة وعدوانية ومنعزلة. سنركز في كل قضية على الموقف الأكثر قبولاً لدى الشخص تاركين، ما أمكن ذلك، الصراعات التي يخفيها عن الأنظار. سنجد في كل من هذه الأنماط أن الموقف الرئيس تجاه الآخرين، كان قد خلق، أو على الأقل قد عزز بروز حاجات وصفات وحساسيات ومشاعر مكبوتة باطنياً ومشاعر قلق معينة، وأخيراً وليس آخراً، مجموعة خاصة من القيم.

قد تمتلك هذه الطريقة بعض النواقص ولكن لها أيضاً بعض المنافع الأكيدة. فبواسطة تمحيص وظائف وبنية مجموعة من الاتجاهات وردود الفعل والمعتقدات وغيرها في نماذج من الناس حيث تكون بارزة نسبياً، سيكون من السهل أن نميز مجموعات مماثلة ضمن حالات تظهر فيها بهيئة غامضة ومضطربة نوعاً ما. وفوق ذلك فإن تأمل الصورة المركزة سيؤدي إلى إبراز التناقض الذاتي في المواقف الثلاثة بشكل مجسد، عند الرجوع إلى القياس التمثيلي عن

الديمقراطية نقيض الفاشية: إذا أردنا أن نبين الفرق الجوهرى بين مجموعة من العقائد الديمقراطية والفاشية، فسوف لن نستهل ذلك بالحديث عن شخص يختلط عنده الاعتقاد ببعض المثل الديمقراطية مع نزعة سرية نحو الأساليب الفاشية. إنما نفضل أن نحاول أولاً الحصول على صورة للعقلية الفاشية عن طريق مؤلفات مناقضة لها كمؤلفات عن الاشتراكية الوطنية وتطبيقاتها مثلاً ومن ثم التقدم نحو مقارنتها بأكثر الصيغ تعبيراً عن الطريقة الديمقراطية. قد يعطينا هذا انطباعاً جلياً عن الاختلاف بين مجموعتين من العقائد، وهكذا سوف تساعدنا على أن نفهم الأشخاص والجماعات الذين حاولوا تحقيق تسوية بينهما.

المجموعة (1) النمط المطاوع: تظهر كل الصفات التي تصاحب «التحرك نحو» الناس.

يرينا هذا النمط حاجة واضحة للحنو والاستحسان وحاجة ماسة إلى «رفيق» أي صديق أو حبيب أو زوج أو زوجة «لتحقيق كل آمال الحياة ولتحمل على عاتقها مسؤولية الخير والشر ولتصبح ملاحظته شغلها الشاغل». هذه الحاجات تتصف بسِمات مشتركة بين جميع النزعات العصبانية أي أنها قسرية وغير متجانسة وتولد قلقاً أو اكتئاباً حينما تواجه بالإحباط. إنها تعمل بصورة مستقلة تقريباً عن الكفاءة الذاتية التي تتعلق «بالأخريات» المشار إليها بهذا الشأن، وكذلك عن مشاعر الشخص الحقيقية نحوها. وقد تختلف هذه

الحاجات في مظاهرها وتتركز كلها حول رغبة في الألفة الإنسانية الحميمة والرغبة في «الانتماء». سيكون النمط المطاوع، بسبب طبيعة عدم التجانس في حاجاته، ميالاً إلى تجاوز تقدير تجانسه والمصالح التي يشترك فيها مع أولئك الذين من حوله وسوف يتغاضى عن العوامل الفارقة بينه وبينهم. ولا يعود سوء تقديره للناس بهذا الشكل لجهله أو غبائه أو عدم قدرته على التمييز ولكنه يتأتى بسبب حاجاته القسرية. فهو يشعر - كما هو واضح في صورة رسمت من قبل أحد المريضات - مثل طفلة صغيرة تحاصرها وتهدهدها وحوش غريبة. إذ هي تقف هناك في وسط الصورة صغيرةً وعاجزةً ومن حولها نحلة هائلة لتلسعها وكلب يحاول أن يعضها وقطة تريد أن تقفز عليها وثور يحاول طعنها. من الجلي بعد ذلك أن الطبيعة الحقيقية للمخلوقات الأخرى لا تهمننا، باستثناء ما يتعلق بالكائنات الأشد عدوانية، فلكونها أشد إثارة للخوف، تكون هي المخلوقات التي يتصف «حنوها» بأنه الأشد ضرورة. إن هذا النمط من الناس حاجة لأن يُودَّ ولأن يبتغي، أن يُرغب فيه، أن يعشق، أن يشعر بأنه مقبول، محتفى به، مستحسن، مقدر وأنه سيحتاج إليه وسيكون ذا شأن للآخرين لا سيما لفرد معين بالذات وأنه سيعاون وسيصان وسيكون موضع عناية وسيؤخذ بيده.

حينما تُبينّ ميزة هذه الحاجات القسرية لأحد المرضى أثناء تحليل النفس فمن المحتمل أن يؤكد أن كل هذه الرغبات «طبيعية» جدًا.

وهو هنا لا شك في موضع الدفاع عنها. وفيما عدا بعض الأشخاص المطوقين بالنزعات السادية (ستناقش فيما بعد) إلى درجة كبيرة بحيث أن الرغبة في الحنو قد تعطلت بشكل يفوق كل احتمال في تأديتها لوظيفتها ثانية، من المأمون أن نفترض أن كل امرئ يريد فعلاً أن يشعر بأنه محبوب ومنتّم وأنه سيعاون وهكذا. يكمن الزلل الذي يقع فيه المرض في الادّعاء أن كل جهده المضني بحثاً عن الحنو والاستحسان جهد أصيل بينما يحتجب الجزء الأصيل في الواقع تحت ظلال كثيفة من حاجته الشديدة للشعور بالأمن.

إن الحاجة لإشباع هذا الحافز تكون قاهرةً إلى درجة كبيرة بحيث أن كل شيء يفعله يوجه نحو تحقيق ذلك وأثناء هذه العملية يطور المريض ميزات ومواقف معينة تجسد شخصيته. من المستطاع أن توصف بعض هذه بأنها من قبيل التودد: فيصبح مرهف الإحساس بالنسبة لحاجات الآخرين - ضمن إطار ما يستطيع أن يفهمه عاطفياً. على سبيل المثال، فرغمًا عن احتمال كونه غافلاً تماماً عن رغبة شخص منغزل في أن يبقى بعيداً عن الآخرين، سوف يكون حساساً لحاجة شخص آخر إلى العطف والمعونة والاستحسان وهكذا يحاول تلقائياً أن يفوز بحسن ظن الآخرين به وبها يظنه توقعاتهم عنه، وفي الغالب إلى حد فقدان الإحساس بمشاعره الخاصة. فيصبح «إيثارياً»، مضحياً بذاته من أجلهم، وعديم المطالب باستثناء رغبته اللامتناهية في طلب الحنو. ويمسي مطاوِعاً ومراعياً لحقوق ومشاعر الآخرين

بشكل مبالغ فيه - ضمن حدود استطاعته - حساسًا للتقدير، ممتنًا بإفراط وبالغ الكرم. وقد يخفي عن نفسه الحقيقة فإنه في سويداء قلبه لا يبالي بالآخرين كثيرًا ويكون ميالاً لاعتبارهم كمنافقين وبيحثون عما فيه مصلحتهم. لكنه يقنع نفسه - إذا جاز لي استخدام تعابير واعية لما يحدث بدون وعي - بأنه يكنّ الودّ للجميع وأنهم جميعًا «طيبون» وجديرون بالثقة وهي مجرد مغالطة لا تقود إلى مشاعر فشل محطمة للقلب فحسب بل تزيد في عدم شعوره العام بالأمان.

ليست هذه المميزات نفيسة بالدرجة التي تبدو فيها للمرء ذاته، وخصوصًا بسبب عدم استشارته لمشاعره أو لتقديراته الخاصة، بل إنه يمنح الآخرين دون روية، كل ما هو مسوّغ لأن يبتغيه منهم ويحس باضطراب عميق إذا فشلت الردودات في أن تتحقق.

تسير جنبًا إلى جنب مع هذه الخواص وتتداخل في بعضها بعضًا مجموعة أخرى تهدف إلى تجنب النظرات الغاضبة والخصومات والمنافسات، فيميل المريض لأن يضع نفسه في مرتبة أدنى فيتحذّر موضعًا ثانويًا تاركًا أضواء الشهرة للآخرين؛ فيكون ميالاً للتهذئة والاسترضاء وهو على الأقل بصورة واعية - لا يحمل ضغينة بسبب موقعه هذا. وقد تكون أية أمنية في الانتقام أو الانتصار قد كتبت بعمق شديد بحيث غالبًا ما يثير عجبه كونه يسترضى بسهولة بالغة وأنه لا يضرر غيظًا لمدة طويلة، من المثير للاهتمام بهذا الصدد ميله لأن يتحمل اللوم بصورة تلقائية. ومرة أخرى، بغض النظر عن

مشاعره الحقيقية - أي إذا كان يشعر حقًا بأنه مذنب أو لا - سيُدين نفسه عوضًا عن الآخرين ويميل إلى محاسبة نفسه من طرف خفي أو قد يكون كثير الاعتذار في مواجهة الانتقاد غير المبرر أو الهجوم المتوقع، بصورة واضحة.

هناك تحول غير محسوس من هذه المواقف نحو المشاعر المكبوتة فعلاً، ولأن أي نوع من السلوك العدواني يعتبر محرّمًا، نجد هنا مشاعر مكبوتة لها صلة بتأكيد الذات والانتقاد والمطالبة وإعطاء الأوامر وخلق الانطباع والكفاح من أجل غايات كبيرة. كذلك لأن حياته أوقفت كليًا للآخرين فإن مشاعره المكبوتة هذه تمنعه في الغالب من تحقيق أشياء لذاته أو من التمتع بأشياء ينجزها بنفسه. قد تصل هذه إلى درجة بحيث أن أية خبرة لا تُقتسم مع أحد الأشخاص - إن كانت وجبة طعام، عرضًا من العروض أو موسيقى أو التمتع بمناظر طبيعية - تصبح خالية من المعنى. إن مثل هذا الانضباط الشديد في الاستمتاع لا ينغص الحياة فحسب بل يضاعف الاعتماد على الآخرين إلى درجة عظيمة.

إن هذا النمط بغض النظر عن مثاليته في الصفات التي سبق ذكرها يمتلك مواقف مميزة معينة تجاه نفسه، يتمثل أحدها في الشعور الذي يغمره بأنه ضعيف وعاجز وهو ربما عبّر عنه بقوله: «يالي من فقير مسكين». وحينما يترك بمفرده مع وسائله الشخصية فإنه يشعر بالضياع كزورق فقد مرساته، أو كسندريلا محرومة من دليلتها

الجنية. هذا العجز حقيقي في جزء منه إذ من المؤكد أن الإحساس بأن المرء لا يستطيع تحت أي ظرف من الظروف أن يحارب أو ينافس الآخرين يعزز الضعف الحقيقي فعلاً، إلى جانب ذلك فهو يعترف بعجزه لنفسه وللآخرين بصراحة. وقد يؤكد هذا بصورة مأساوية في الأحلام أيضاً. إنه يلجأ إلى الاعتراف بذلك في الغالب كوسيلة للإغراء والحماية:

«يجب أن تشعريني بالحب والحماية، أن تصفحي عني وأن لا تهجريني بسبب ضعفي أنا وانعدام حيلتي تماماً».

تنبثق الصفة المميزة الثانية عن ميله إلى إخضاع نفسه. فهو يُسلم بأن كل امرئ يتفوق عليه، فالجميع أكثر جاذبية منه وألمع ذكاءً وأفضل تعليماً وأكثر استحقاقاً منه. هناك حجة ثابتة لهذا الشعور تتمثل في فقدان ثقته بنفسه وبصلايته وذلك ما يحول دون قدرته فعلاً. ولكنه حتى في الحالات التي يتمتع فيها بمقدرة لا ريب فيها فإن الشعور بالنقص سيقوده لإضفاء الثقة على الشخص الآخر وبغض النظر عن جدارته. هكذا يتضاءل اعتداده بقيمته الشخصية أكثر فأكثر في حضور أشخاص عدوانيين أو متغطرسين. وعلى كل حال فإن ميله حتى إذا كان بمفرده لا ينحو نحو الحط من قيمة صفاته ومواهبه وقدراته فحسب بل من قيمة ممتلكاته المادية كذلك.

تؤلف الصفة المميزة الثالثة جزءاً من اعتمادها الشامل على الآخرين. وتتمثل هذه في ميله اللاواعي نحو تقويم نفسه من خلال

ما يظنه الآخرون عنه. فيعلو ويهبط اعتباره لذاته تبعًا لاستحسانهم أو لاستهجانهم ولحنوهم أو لانتفائه. من هنا سيكون أي رفض بمثابة كارثة فعلية بالنسبة له. إذا لم يستطع أحد الأشخاص الاستجابة لدعوة ما فقد يتوافر لديه ذاتيًا سبب معقول لذلك، لكن صاحبنا وطبقًا لمنطق عالمه الشخصي الذي يعيش فيه حينئذ سيهبط مقياس احترام الذات لديه إلى الصفر. بعبارة أخرى إن أي انتقاد أو رفض أو هجر يمثل خطرًا مرعبًا وقد يبذل أقصى ما في وسعه من جهد بائس بغية استعادة احترام الشخص الذي كان قد هدده بهذا الشكل. إنه يدير خده الأيسر ليس مسوقًا بدافع غامض معين من «التلذذ بالاضطهاد» بل ذلك هو الشيء المنطقي الوحيد الذي يستطيع أن يفعله على أساس افتراضاته الباطنية. مكتبة سُر من قرأ

يساهم كل ذلك في مجموعة معايير الخاصة. ومن الطبيعي أن تكون المعايير ذاتها مشرقة قليلة أو كثيرًا وتتعرز تبعًا لنضجه الشامل. تكمن هذه المعايير باتجاه الخير والمشاركة الوجدانية والحب والوجود والإيثار والتواضع؛ بينما يستهجن الغرور والطموح وقسوة الفؤاد وانعدام الضمير واستغلال النفوذ - رغمًا عن كونه قد يعجب بهذه الصفات في الوقت عينه بصورة خفية لأنها تمثل «قوة».

هي إذا العناصر التي يشتمل عليها «التحرك نحو» الناس عُصايبًا يجب أن يكون جليًا الآن كم هو من غير المناسب أن نصفها بأي تعبير منفرد مثل مدعن أو اتكالي لأنها طريقة متكاملة من التفكير والشعور

والأداء - أي أنها طريقة حياة شاملة تكمن فيها ضمناً.

لقد وعدت ألا أبحث في العوامل المتناقضة. لكننا لن نفهم تمامًا كم يتشبث المرء بجميع المواقف والمعتقدات بصورة قوية ما لم نكن على دراية بالمدى الذي يعزز فيه كبت النزعات المتعارضة للنزعات المسيطرة. لذلك سنلقي نظرة وجيزة على الجانب المعاكس من الصورة.

حينما نحلل النمط المطاوع نفسيًا نجد تنوعًا من النزعات العدوانية مكبوتة بقوة. وبصورة مغايرة تمامًا للإفراط في التوسل الواضح نعثر على نقص شديد في الاهتمام بالآخرين ومواقف تحد وميول طفيلية أو استغلالية وميول في السيطرة والتلاعب بالآخرين وحاجات لا تكل نحو الإبداع أو الاستمتاع بالانتصارات الثأرية. من الطبيعي أن تختلف الدوافع المكبوتة في نوعيتها وشدتها. فهي تنبثق جزئيًا استجابة لخبرات تعيسة مبكرة مع الآخرين. إذ غالبًا ما ترينا سيرة من السير المرضية مثلاً نزعات انفعالية حتى سن خمس أو ثماني سنوات ثم تختفي بعد ذلك لتحل محلها دماثة خلق شاملة. لكن الميول العدوانية تعزز وتغذى أيضًا من قبل الخبرة اللاحقة بسبب نزعة الاعتداء التي تولد باستمرار من مصادر عديدة. ستقودنا مناقشتها جميعًا، عند هذه المرحلة، بعيدًا عما نحن بصدده، ويكفي أن نذكر هنا أن محور الذات و«الطيبة» تغريان بأن يمتهن المرء ويستغل، زيادة على ذلك فإن الاعتماد على الآخرين يفسح المجال لتعريض

المرء للأذى بشكل استثنائي حيث يقود بدوره إلى الشعور بكون المرء المفرط منبوذًا أو مرفوضًا ومحتقرًا عندما لا يُستجاب للقدر المفرط من الحنان والاستحسان المطلوبين.

حينما أقول أن جميع تلك المشاعر والدوافع والمواقف «تكبت» فإنني أستعمل التعبير مثلما عناه فرويد قاصدًا أن الفرد ليس على غير وعي بها فحسب بل لديه اهتمام لا سبيل إلى تغييره أبدًا في عدم رغبته أن يعيها مطلقًا بحيث أنه يظل في حال توجس كيلا تنكشف أية بوادر عنها لذاته أو الآخرين. لذلك يجابهنا كل كبتٍ بالسؤال: ما هي مصلحة الفرد في كبت قوى معينة تمور في قرار نفسه؟ من الممكن أن نجد بعض الأجوبة بالنسبة لحال النمط المطاوع. وبوسعنا أن نفهم معظمها بعد حين حينما نأتي إلى مناقشة الصورة المثلى والنزعات السادية. ما نقدر أن نفهمه فورًا عند هذا الموضوع هو أن مشاعر وأساليب العدوان قد تُعرض للخطر حاجة الشخص لأن يحب الآخرين وأن يُحِب من قبلهم. إضافة لذلك فأي نوع من السلوك العدواني أو حتى السلوك المؤكد للذات قد يبدو كسلوك أناني. سيُدينه هو بنفسه ومن هنا سيشعر أن الآخرين يدينونه أيضًا. وليس بمقدوره التعرض لخطر هذه الإدانة لأن احترامه لذاته يعتمد كليًا على استحسانهم.

هناك وظيفة أخرى لكبت جميع مشاعر وحوافز التوكيد والانتقام والطموح. هذه تمثل إحدى المحاولات الكثيرة التي

يقوم بها الشخص العُصابي للتخلص من صراعاته وليحقق شعورًا بالتكامل والوحدة والتماثل بدلاً منها. إن الحنين إلى التكامل في داخل أنفسنا ليس رغبة تصوفية لكنها مدفوعة من قبل الحاجة العملية إذ علينا أن نؤدي مهمتنا في الحياة والتي تكون مستحيلة حينها يساق المرء باستمرار نحو اتجاهات متعارضة قد توصله في النهاية إلى رعب بالغ وإلى الانهيار. إن منح الأولوية لنزعة واحدة وذلك بطمس كل العناصر المتضاربة يؤلف محاولة لا واعية في تنظيم الشخصية. وهذا يشكل إحدى المحاولات الرئيسة في حل الصراعات العُصابية.

هكذا كنا قد اكتشفنا الآن مصلحة مزدوجة في المحافظة على قمع صارم لكل الاندفاعات العدوانية، وقد تتعرض حياة المرء برمتها للخطر ويتفجر تكامله المصطنع. وكلما كانت النزعات العدوانية مدمرة كلما كانت الحاجة ملحة لتنجيتها. سيميل الفرد العُصابي إلى التقهقر فيبدو أنه لا يريد شيئاً لنفسه ولا يرفض رجاء ويكنُّ المودة للجميع على الدوام ويبقى في خلفية الصورة باستمرار، وهكذا. بعبارة أخرى، تتعزز النزعات المطاوعة التوفيقية فتصبح أعظم قسراً وأقل تمييزاً.

من الطبيعي أن كل هذه الجهود غير الواعية لا توقف الاندفاعات المكبوتة عن العمل أو عن توكيد ذاتها. لكنها تفعل كذلك بطرق تتفق مع البنية. سيتقدم الشخص بمطالب «لأنه بائس جداً» أو

سيارس السيطرة بشكل خفي تحت ستار «المحبة». وربما يظهر العدوان المتراكم المكبوت في هيئة انفجارات ذات عنفوان قلّ أو كثر، يتراوح من الحصار أحياناً إلى نوبات من الغضب العارم. وبينما لا تتفق هذه الانفجارات مع صورة الوداعة والاعتدال فإنها تبدو للمريض ذاته مسوغة تماماً. فهو على صواب تام طبقاً لافتراضاته. ونظراً لعدم معرفته أن مطالبه التي يريدتها من الآخرين تتصف بالإفراط والأناية، فهو لا يملك إلا أن يشعر بين الحين والحين بأنه يعامل بطريقة ظالمة بحيث لا يسعه أن يتحمل أكثر من ذلك. أخيراً، إذا اكتسب العدوان الحبيس قوةً من الغضب العارم فقد يؤدي ذلك إلى ظهور كل أنواع الاضطرابات العضوية كأمراض الصداع أو علل المعدة.

لذلك تمتلك معظم صفات النمط المطاوع دافعاً مزدوجاً. فحينما يخضع نفسه لصالح تجنب الاحتكاك فهو يحقق الوفاق مع الآخرين؛ لكن ذلك قد يكون وسيلة أيضاً في نحو كل معالم حاجته إلى الإبداع. وحينما يسمح للآخرين باستغلاله فذلك تعبير عن مطاوعته و«طيّبه» ولكنها قد تكون أيضاً تعبيراً لترك رغبته الذاتية في أن يستغل. لأجل التغلب على المطاوعة العُصابية يجب معالجة كل واحد من جانبي الصراع وبالترتيب المناسب. في بعض الأحيان نحصل من خلال العلاج بواسطة تحليل النفس. مثل هذا الأسلوب، يقدم فهماً ضيقاً عن التعقيدات ولاسيما تلك التي تتعلق بالتنوع في

البنى العُصابية. إن هذا ينطبق فعلاً على النمط الخاص الذي نبخته وحتى في هذا الموضوع فالانطباق محدود. إن كشف النقاب عن الدوافع العداونية يمثل عملية تحرر ولكنها يمكن أن تكون ببساطة ضارة بالنسبة لتطور الفرد إذا اعتبرت عملية «التحرر» غاية في حد ذاتها يجب أن تلحق هذه بالعمل على التخلص من الصراعات إذا أريد للشخصية أن تتوحد في النهاية.

نحن ما زلنا في حاجة لتوجهه بانتباهنا إلى الدور الذي يلعبه الحب والجنس بالنسبة للنمط المطاوع. في الغالب يبدو له الحب على أنه الهدف الوحيد الذي يستحق الكفاح من أجله والعيش في سبيله. وتبدو الحياة بدون حب لا طعم لها وعديمة الجدوى وخاوية. عند استعمال عبارة كان فريتز وتيلز قد وصف بها الأولاع القسرية يستحيل الحب إلى شبح يطارد على حساب استبعاد كل شيء آخر. إذ يصبح الناس والطبيعة والعمل أو أي نوع من المتعة أو الولع بلا معنى تماماً ما لم يكن هناك شيء من صلة حب تضيء عليها طعماً وحيوية. إن حقيقة كون هذا الوسواس أكثر بروزاً عند النساء منه لدى الرجال في ظروف حضارتنا، قد خلق الانطباع بأنه توق أنثوي على وجه الخصوص. وفي الواقع، لا علاقة له بالأنوثة أو الرجولة بل هو ظاهرة عُصابية في كونه دافعاً قسرياً غير معقول. وإذا فهمنا بنية النمط المطاوع يصبح بوسعنا أن نفهم لماذا يتميز الحب بأهمية كبرى بالنسبة له ولماذا يكون ذلك «نهجاً في جنونه». يؤلف هذا النهج في الحقيقة وبالنظر لميولة القسرية المتناقضة، الطريقة الوحيدة التي

يمكن أن يشبع بها جميع حاجاته العُصابية. فهذا النهج يعد بتطمين الحاجة إلى المودة وكذلك إلى السيطرة (عبر الحب) وبتطمين الحاجة إلى تبوّء مركز ثانوي وكذلك في الامتياز (عبر اهتمام شريكه الكامل به). وهو يتيح له التمتع بكل دوافعه القسرية على أساس مُسوِّغ وبريء أو حتى جدير بالثناء بينما يسمح له في الوقت نفسه لأن يعبر عن كل صفات الحب التي كان قد اكتسبها. إضافة لذلك ولأنه غير واعٍ أن معوقاته ومعاناته نابعتان من صراعاته في قرارة نفسه فإن الحب يومض له على أنه الشفاء الأكيد من كل تلك المعاناة: فلو كان يستطيع أن يعثر على شخص يحبه فحسب إذاً لكان كل شيء على ما يرام. من السهولة بمكان أن نقول إن هذا الأمل زائف ولكننا يجب أن نفهم منطق وتفكير العُصابي اللاواعي إن قلّ أو كثر. فهو يفكر هكذا: «إنني ضعيف وعاجز وطالما أُنِي وحيد في هذا العالم العدائي فعجزِي يمثل خطرًا وتهديدًا. غير أنني إذا عثرت على شخص يحبني أكثر من حبه للآخرين كلهم فسوف لن ألبث طويلًا في خطر لأنه (لأنها) سوف يحميني (تحميني). إذاً لن أحتاج إلى إثبات ذاتي وذلك لأنه سيفهم الأمر ويمنحني ما أريد دون أن يتعين على أن أقدم طلبًا أو تفسيرًا. إن ضعفي في الحقيقة سيكون سلعة ثمينة وذلك لأنه سيحب عجزِي وسأستطيع أن أستند إلى قوته. إن المبادرة التي لا يمكنني القيام بها ببساطة من أجل نفسي ستزدهر إن كانت تعني القيام بشيء في سبيله أو حتى القيام بأشياء من أجلي لأنه هو أراد ذلك».

مرة أخرى يفكر بطريقة إعادة التنظيم فيما يتروى فيه قليلاً وفيما يحسه كذلك وبما هو لا شعوري جزئياً، وفقاً لصيغة محاكاة ذهنية: «إنه الشقاء بالنسبة لي أن أكون وحيداً. ذلك لأنني لا أستطيع التمتع بأي شيء لا يشاركني فيه أحد. إنه أبعد من ذلك بكثير، إنني أشعر الضياع وأشعر بالقلق. أستطيع بالتأكيد أن أذهب الى السينما بمفردي أو أقرأ كتاباً في ليلة السبت ولكن ذلك سيكون مدعاة للاشمئزار لأنه سيعني لي أن ليس هناك من يريدني. لذلك يجب أن أخطط بكل عناية ألا أظل وحيداً ليلة السبت أو في أي وقت آخر. لكنني إذا عثرت على الحبيب الذي أتمنى فسيحررني من هذا العذاب ولن أكون وحيداً فكل شيء يبدو الآن بلا طعم كإعداد وجبة فطور أو القيام بعمل من الأعمال أو مشاهدة الشمس أثناء الغروب، سوف يصبح مصدر بهجة لي».

إنه يفكر أيضاً: «إنني لا امتلك ثقة بالنفس. فأنا أشعر دوماً أن أي شخص آخر أكثر كفاءة مني وأكثر جاذبية وأكثر موهبة. حتى الأشياء التي نجحت في تحقيقها ليست ذات قيمة لأنني لا أستطيع احتسابها لنفسي، ربما كنت أوفق إليها عن طريق الخداع وربما كان الأمر محض صدفة. وبلا ريب فأنا لا أستطيع التأكد من قدرتي على القيام بها مرة أخرى. ثم إذا تعرف الناس عليّ فعلاً فإنهم لا يصبحون بحاجة إليّ على أية حال. ولكن إذا عثرت على شخص يجنني لشخصي وإذا أصبحت عنده ذا حظوة كبرى فحينها قد أكون شخصاً ذا شأن». فلا

عجب إذاً بعد كل هذا أن يمتلك الحب كل إغراء السراب. لا عجب أنه يضطر للتشبث به بكل ما أوتي من قوة بدلاً من التعلق بعملية التغيير المضنية من داخل الذات.

إن الجماع الجنسي لذاته وبغض النظر عن وظيفته البيولوجية يمتلك أهمية كبيرة في كونه يقدم برهاناً على أن المرء مرغوب فيه. وكلما مال النمط المطاوع نحو العزلة - أي كلما كان خائفاً من التورط عاطفياً - أو كلما خاب أمله في أنه سيحب، كلما كان من المحتمل أن يعوض النشاط الجنسي المحض عن الحب. سيبدو بعد ذلك على أنه السبيل الوحيدة للمودة الإنسانية ويبالغ في تميمه ما هو في شأن الحب بسبب قدرته على حل كل إشكال.

إذا حرصنا على تجنب كل من النهايتين، تلك التي تعتبر مبالغة المريض في التأكيد على الحب كشيء «طبيعي فحسب» وتلك التي تطرحها جانباً كصفة «عُصابية» سنلمس أن توقعات النمط المطاوع في هذا الاتجاه تأتي كمحصلة منطقية لفلسفته في الحياة. وكما تبرز غالباً في الظواهر العُصابية نجد أن عملية تفكير المريض بصورة واعية أو غير واعية تخلو من العيوب، لكنه يستند إلى فرضيات زائفة. وتتمثل الفرضيات الزائفة في أنه يخطئ في تقدير حاجاته إلى الحنو وكل ما يواكبها على أنه قابلية أصلية على الحب، كما يطرح جانباً نزعاته العدوانية وحتى المدمرة من المعادلة بشكل كامل. وبعبارة أخرى سوف يتخلى عن الصراع العُصابي برمته. إن ما يتأمله يمثل

التخلص من العواقب المؤذية للصراعات غير المصروفة دون تبديل أي شيء في الصراعات ذاتها، وهذا موقف مميز لكل محاولة عُصائية في البحث عن حل.

و لذلك يقضي على هذه المحاولات بالفشل لا محالة. أما بالنسبة للحب كحل فيجب أن يذكر المرء ما يلي: إذا كان النمط المطاوع محظوظًا بما فيه الكفاية لأن يعثر على رفيق يمتلك كلاً من القوة ورقة الفؤاد فربما تنخفض معاناته بصورة لا يستهان بها وربما يتمتع بمقدار معتدل من السعادة. غير أنه كقاعدة سوف تنحدر به العلاقة التي يأمل أن يجد فيها الجنة على الأرض إلى بؤس أشد عمقًا. فمن المحتمل أن ينقل صراعاته إلى داخل هذه العلاقة وبذلك يدمرها. حتى أن أقصى الاحتمالات المبشرة بالنجاح لن تريح إلا الكُروب الفعلية فحسب إذ سيستمر تطوره معوقًا إن لم يتم تصريف صراعاته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

التحرك ضد الناس

أثناء مناقشة المظهر الثاني للصراع الأساس وهو الميل نحو «التحرك ضد» الناس سنبحث السير كما سبق أن فعلنا، متفحصين هذا النمط الذي تسيطر عليه النزعات العدوانية.

وكما أن النمط المطاوع يتشبث بالاعتقاد في أن الناس «طيبون» وتحيره شواهد متناقضة باستمرار فكذلك يسلم النمط العدواني بأن كل شخص هو معادٍ وهو يرفض الاعتراف بأن الناس ليسوا كذلك. إذ تمثل الحياة بالنسبة له نضالاً من قبل الجميع ضد الجميع وليذهب الخاسرون إلى الشيطان. وهناك الاستثناءات التي يسمح العُصابي بها على مضمض وبشيء من التحفظ. أحياناً يتصف موقفه بالوضوح تماماً غير أنه غالباً ما يغلفه بمظهر خادع من الأدب الجرم وسعة الأفق

والزمالة الطيبة. هذه «الواجهة» يمكن أن تمثل تنازلاً ميكافيلياً من أجل الغاية. إذ تمثل هذه كقاعده خليطاً من الادعاءات والمشاعر الأصلية والحاجات العُصابية. فقد تختلط الرغبة في جعل الآخرين يصدقون بأنه شخص طيب مع مقدار معين من الخير الحقيقي طالما لن يكون هناك شك في ذهن أحد بأنه هو نفسه يقود تلك المشاعر وربما تتواجد هناك عناصر حاجة عُصابية للحنو والاستحسان وقد وضعت في خدمة الأغراض العدوانية. ليست مثل هذه «الواجهة» ضرورية للنمط المطاوع لأن قيمة تتفق، على أية حال، مع الفضائل الاجتماعية أو الدينية المقبولة اجتماعياً.

لكي نقدر فعلياً أن حاجات النمط العدواني هي حاجات قسرية مثل تلك التي تتعلق بالنمط المطاوع يجب أن ندرك أنها تندفع عن طريق القلق الأساس لديه مثلما هي مسوقة عند الثاني تماماً. يجب التأكيد على هذا لأن عنصر الخوف، الملموس لدى الأخير، لن يعترف به أو يكشف عنه أبداً من قبل النمط الذي نتناوله حالياً. فكل شيء في داخله موجه نحو كونه الآن صلباً أو أنه سوف يصبح كذلك أو على الأقل أنه يبدو بمظهر القوي الحازم.

تنبع حاجاته أساساً من شعوره بأن العالم يمثل حلبة نزال يكون البقاء فيها وبتعبير داروين للأصلح فحسب، كما أن القوي يأكل الضعيف. وما يساهم على البقاء يعتمد كثيراً وبصورة رئيسة على الحضارة التي يعيش فيها الشخص، ولكن السعي المتواصل وراء

المصلحة الذاتية يمثل القانون الأعظم. من هذا المنطق، تصبح حاجته الأولى من أجل السيطرة على الآخرين. وتكون الاختلافات في وسائل السيطرة غير محدودة. فقد تكون هناك ممارسة واضحة للقوة وقد تكون هناك مناورة غير مباشرة عبر إظهار الجزع الشديد أو إيقاع الناس تحت طائلة الالتزام. كما قد يفضل أن «القوة الكامنة خلف كرسي العرش». وربما تكون الوسيلة عبر طريق الذكاء، حيث يعتقد أنه من المستطاع النجاح في كل شيء بالاستنتاج المنطقي أو بعد النظر. ويعتمد نوع سيطرته المحدد على مواهبه الطبيعية إلى حد ما. وهذا يمثل جزئياً اندماجاً بين النزعات المتصارعة. فمثلاً، إذا كان الشخص ينحو في الوقت ذاته نحو العزلة فسوف ينأى بنفسه عن أية هيمنة مباشرة لأنها تقود قريباً جداً من الاحتكاك المباشر مع الآخرين. كذلك ستفضل الطرق غير المباشرة إذا توفرت هناك حاجة قوية وخفية للحنو. أما إذا كانت أمنيته أن يكون هو القوة الكامنة خلف الستار، فسيشير إلى وجود نزعات سادية، حيث يعني أن الأسلوب استخدام الآخرين من أجل تحقيق غايات المرء.

و بالارتباط الذاتي فهو في حاجة لأن يتفوق ولأن يحقق النجاح والنفوذ أو التمييز بأية صورة. فتوجه الجهود المضنية في هذا السبيل جزئياً نحو القوة وبقدر ما يعير النجاح والنفوذ قوة في المجتمع يتصف بروح المنافسة. لكنهم أيضاً يسعون إلى تأكيد ذاتي للقوة من خلال الإثبات الخارجي كالاستحسان الخارجي وحقيقة التمايز. هنا ومثلها

هو الأمر عند النمط المطاوع يقع مركز الجاذبية خارج الشخص نفسه وما يختلف هو نوع الإثبات المرغوب فيه من الآخرين فحسب. أما في الواقع، فإن عدم جدوى أحدهما يماثل عدم جدوى الآخر. حينما يتساءل الناس لم كان النجاح قد فشل في جعلهم يشعرون بأنهم أقل قلقًا نوعًا ما، فهم يفضحون جهلهم بالجانب النفسي فحسب، وذلك يشير أيضًا إلى المدى الذي يعتبر فيه النجاح والنفوذ كمقياس بصورة عامة.

تمثل الحاجة الملحة في استغلال الآخرين وفي التغلب على ذكائهم وفي استخدامهم لمنفعته، جزءًا من الصورة. إذ ينظر المريض إلى أية حال أو علاقة بمنظار «ماذا بوسعي أن أستفيد من ذلك؟» إن تعلق الأمر بالمال أو النفوذ أو العلاقات أو الأفكار. والمريض مقتنع بصورة واعية أو شبه واعية بأن كل فرد يسلك هذا السبيل ولذلك فما يؤخذ بنظر الاعتبار هو العمل بكفاءة يتفوق بها على الآخرين. تتعارض المميزات التي يطورها بكل معنى الكلمة تقريبًا مع تلكم التي تعود للنمط المطاوع. فيصبح القلب، شرسًا، أو أنه يبدو فيما يشبه ذلك المظهر، إذ يعتبر كل المشاعر - مشاعره ومشاعر الآخرين كذلك - أنها «عواطف رخيصة». فيلعب الحب بالنسبة له دورًا لا أهمية له. ليس ذلك لأنه لن يفتتن «حبًا» أو لن تكون له علاقة وصال بإحدى النساء أو لن يتزوج ولكن ما يمتلك من أهمية قصوى هو الفوز برفيق مرغوب فيه بقوة ورفيق يستطيع من خلال جاذبيته ونفوذه

الاجتماعي أو ثروته أن يعزز مركزه الخاص. وهو لا يرى أي سبب في أن يراعي الآخرين. «لماذا ينبغي عليّ أن أهتم ولأدع الآخرين يهتمون بأنفسهم». وإذا سأله بلغة المعضلة الأخلاقية القديمة التي تتعلق بوجود شخصين على شفا الهلاك يستطيع أحدهما فقط أن يبقى على قيد الحياة فسوف يجيب بأنه بالطبع سيحاول أن ينفذ بجلده لا أن يكون بليداً ومنافقاً. إنه يمقت الاعتراف بأي نوع من الخوف وسيكتشف سبباً متطرفة في السيطرة عليه. فربما، على سبيل المثال، يلزم نفسه بالبقاء في منزل خال على الرغم من إحساسه بالرعب الشديد من لصوص الليل وقد يصر على ركوب الخيل ليتغلب على خوفه منها وقد يجوس عن عمدٍ عبر المستنقعات حيث يعرف هناك وجود الثعابين كي يتخلص من حالة رعبه الشديد.

و بينما يميل النمط المطاوع للمهادنة، يفعل النمط العدواني كل ما في وسعه ليكون مقاتلاً جيداً. إنه محترم ومتوقد الذكاء في جداله وقد يخرج عن طوره المعتاد ليندفع بجرأة من أجل البرهنة على أنه على صواب. وقد يقدم أفضل ما لديه حينما يستند بظهره إلى سندٍ قوي وليس هناك من خيار غير أن يقاتل. وعلى النقيض من النمط المطاوع الذي يخشى أن يربح المعركة، فهو خاسر صعب المراس ينشد النصر صراحة. وهو على استعداد تام لاتهام الآخرين كاستعداد النمط السابق أن يحمل الملامة على عاتقه. ولا يلعب التفكير بالذنب أي دور في أي من الحالين. حينما يعترف النمط المطاوع بالذنب فليس

لكونه مقتنعًا بأنه مذنب أبدًا، بل لكونه يساق نحو المهادنة، بصورة مماثلة لا يكون النمط العدواني مقتنعًا بأن الشخص الآخر مخطئ بل يفترض فقط أنه هو على حق لأنه يحتاج إلى هذه الأرضية من اليقين الشخصي تمامًا بالطريقة نفسها التي يحتاج فيها جيش من الجيوش إلى موضع مكين ليثن منه الهجوم. فيبدو له الاعتراف بالخطأ عندما لا يشكل ذلك أمرًا ضروريًا إبرازًا للضعف لا يغتفر إن لم يكن حقًا بالغًا.

مما يتفق مع موقفه في أن عليه أن يحارب ضد عالم يعجّ بالشرور أنه ينبغي أن ينمي إحساسًا يقظًا بالواقع ومن ذات النوع. لن يكون «ساذجًا» جدًّا بحيث يتجاوز عن أي شكل من أشكال الطموح أو الجشع أو الجهل لدى الآخرين أو أي شيء آخر قد يسد عليه سبيل غاياته الخاصة. وبسبب أن مثل هذه الخصائص أشد انتشارًا في حضارة تتسم بالمنافسة بدلًا من النزاهة الحقيقية فهو يشعر أنه على صواب باعتبار كونه واقعيًا فحسب. وفي الحقيقة إنه يمثل جانبًا واحدًا مثلما يمثل النمط المطاوع تمامًا. يتجسد منحى آخر من مناحي واقعيته في إصراره على التخطيط وبعد النظر. فهو كأى رجل استراتيجي محنك، شديد العناية عند كل موضع في تقويم إمكاناته الشخصية وقوى خصومه والمآزق المحتملة.

ولكونه يساق دائمًا نحو تأكيد ذاته على أنه الأقوى والأشدّ دهاء والأكثر نجاحًا فهو يحاول أن يكتسب الكفاءة والموارد الضرورية ليصبح كذلك. قد يجعل منه الحماس والذكاء اللذين يبيديهما في عمله،

مرؤوسًا يتمتع باحترام عظيم أو شخصًا ناجحًا في مهنة خاصة به، إن الانطباع الذي يقدمه على كل حال هو كونه يمتلك اهتمامًا واسعًا في عمله وهذا سيكون خادعًا من جهة لأن العمل بالنسبة له يمثل وسيلة فحسب تجاه غاية من الغايات. فهو لا يحب ما يفعله ولا يشعر بمتعة فعلية به وهي حقيقة تتفق مع محاولته تنحية كافة المشاعر عن حياته تمامًا.

يتصف هذا التخلص من جميع الأحاسيس بتأثير ذي حدين. فالأمر من جهة ذو تأثير نفعي من وجهة نظر النجاح دون ريب حيث أن بوسعه القيام بتأدية وظيفته كمكنة مزينة بصورة جيدة تنتج بلا كلل مما يجذب له القوة والنفوذ. هنا قد تتدخل العواطف. إذ قد تستطيع أن تقوده بصورة يمكن فهمها نحو نمط من العمل ذي منافع انتهازية أقل عددًا وقد تدفعه للابتعاد عن الأساليب التي غالبًا ما تستخدم بكثرة عبر الطريق المؤدية للنجاح وقد تغريه للابتعاد عن عمله باتجاه التمتع بالطبيعة أو الفن أو مصاحبة الخلان بدلاً من الأشخاص الذين ينفعون في إنجاز ما يريد. من جهة أخرى فإن الجذب العاطفي الذي ينتج عن كبح المشاعر سيفعل فعله بالنسبة لنوعية عمله وسوف يؤدي ذلك بلا ريب إلى سلب جزء من قدرته على الإبداع.

يبدو النمط العدواني كشخص منطلق بصورة رائعة. بوسعه أن يدافع عن رغباته وبوسعه أن يصدر الأوامر وأن يعبر عن الغضب وأن يدافع عن نفسه. لكنه في الواقع لا يقل عن النمط المطاوع في

امتلاكه للمشاعر المكبوتة. ولا يمثل الأمر مفخرة كبرى لحضارتنا في أن مشاعره الشخصية المكبوتة لا تلتفت انتباهنا عرضاً بصفتها تلك. إن هذه تقبع في مجاله العاطفي وتتعلق بقدرته على المصاحبة والحب والحنو والتعاطف الوجداني والمتعة النزيمية. وهو قد يصف الأخيرة على أنها مضيعة للوقت.

تتمثل مشاعره عن نفسه بكونه قويًا وأمينًا وواقعيًا وكلها صحيحة إذا نظرت إلى الأمور بمنظاره الخاص. يكون استنتاجه منطقيًا على نحو صارم وطبقًا لافتراضاته لأن العنف يمثل لديه القوة وعدم الاهتمام بالآخرين والملاحقة المضنية لغايات المرء الخاصة تكون واقعية. يتأتى موقفه بشأن استقامته جزئيًا من فضحه اللاذع لمحاولات النفاق المتداول. فينظر إلى الحماس نحو قضية ما وإلى العواطف المحبة للخير وما شابهها على أنها ادعاء بحت، وليس من الصعب عليه كشف النقاب عن الأغراض التي أُعدت في الغاب من أجلها إيماءات من الوعي الاجتماعي والفضيلة الدينية، تتمركز مجموعة قيمة حول شريعة الغاب. فالقوة تصنع الحق. ولتذهب الرحمة والإنسانية إلى الجحيم. فعنصر الشر يكمن في الإنسان. لدينا في هذا الموضوع قيم لا تختلف كثيرًا عن تلك التي جعلنا النازيون على معرفة تامة بها.

هناك منطق شخصي في ميل النمط العدواني إلى رفض العطف والمودة وكذلك ما يقابلها من المطاوعة والمهادنة. لكنه سيكون

من الخطأ الافتراض بأنه لا يستطيع معرفة الفرق. فعندما يتواجه مع شخصية ودود تقترن بالقدرة بصورة لاسبيل إلى نكرانها فإنه يستطيع تمامًا أن يعترف بها ويحترمها. يتمثل مغزى ذلك في اعتقاده أنه إذا كان دقيق التمييز بهذا الصدد فلن يكون هذا في صالحه. ويستوقفه كل من الموقفين بصفتهما احتمالين قد يتعرض لهما في معركة البقاء على قيد الحياة.

مع ذلك نسأل لماذا يرفض العواطف الإنسانية الموصوفة بالرقعة بمثل هذا العنف؟ لم تُراه يُحس بالغثيان عند رؤيته السلوك الرقيق لدى الآخرين؟ لم يُحسُّ بالاحتقار الشديد حينما يبدي أحدهم إشفاقًا في لحظة يعتبرها هو اللحظة غير المناسبة؟ إنه يتصرف كرجل يطرد المتسولين بعيدًا عن باب داره لأنهم يثيرون الشفقة في قلبه؟ قد يكون في الحقيقة متعسفًا تمامًا تجاه المتسولين وقد يرفض أبسط الطلبات بعنف يتجاوز المؤلف. إن مثل هذه الردود من الفعل تبدو نموذجية بالنسبة له ويمكن أن نلاحظ على الفور حالما تصبح النزعات العدوانية أقل صلابة عند التحليل النفسي. وفي الواقع، تكون أحاسيسه بشأن «الرقعة» لدى الآخرين أحاسيس مختلطة. فهو يحتقرها فيهم حقًا غير أنه يرحب بها كذلك لأنها تتيح له حرية أعظم في ملاحقة أهدافه الخاصة. ثم، لماذا يشعر بالميل نحو النمط المطاوع تمامًا مثلما يكون الأخير منجذبًا إليه؟ إن السبب يكمن في أن رد فعله متطرف جدًا وفي كونه ينطلق من حاجته لمحاربة كل المشاعر الرقيقة

جداً في نفسه. يقدم لنا (نيتشه) شرحاً وافقاً لهذه القوى المحركة حينها يساق إنسانه الأمثل ليرى كل شكل من أشكال العطف على أنه نوع من الطابور الخامس، عدوياً يعمل من الداخل، لا تعني «الرقعة» لهذا النوع من الأشخاص الحنو والشفقة الأصيلة وما يماثلهما فحسب بل كل شيء خفي في حاجات ومشاعر ومعايير النمط المطاوع. في قضية المتسول مثلاً قد تمتلكه إرهاصات من الشفقة الحقيقية وحاج باتجاه الإذعان للرجاء وإحساس بأن من واجبه تقديم المساعدة. غير أنه ما زالت لديه حاجة أشد باتجاه دفع كل ذلك بعيداً عنه وكمحصلة فهو لن يرفض فحسب بل سيتعسف في ذلك الرفض.

إن الأمل في صهر دوافعه المتنافرة في بوتقة واحدة والتي يضعها النمط المطاوع في الحب، يضعها النمط العدواني في الظهور البين، إذ لا يعده «الظهور» بتأكيد ذاته التي يتطلبها فحسب بل يعرض عليه الإغراء الإضافي بأنه سيكون محبوباً من قبل الآخرين وأنه سيكون قادراً بدوره على أن يحبهم، ولأن الشهرة تبدو أيضاً أنها توفر حلاً لصراعاته، فهي تصبح السراب المنقذ الذي يطارده.

مبدئياً، يماثل منطق نضاله الباطني ذلك الذي يبرز للعيان في حال النمط المطاوع، ولذلك فهو في حاجة لأن نشير إليه هنا بإيجاز فحسب. سيكون إما إحساساً بالشفقة أو الالتزام بأن يكون «خيراً»، أو أي موقف مطاوعة متضارباً مع بنية الحياة التي كان قد سيدها وسيهز أركانها. زيادة على ذلك، سيجابه بروز هذه الميول المتضاربة

بصراعه الأساس، وهكذا سيدمر التنظيم الذي كان قد رعاه بعناية فائقة، ذلك التنظيم من أجل التكامل. ستصبح النتيجة أن كبت الميول الأكثر رقة سيعزز الميول العدوانية جاعلاً إياها أشد قسراً.

إذا اتضح لدينا كل من النمطين اللذين كنا قد بحثناهما في أذهاننا الآن فبوسعنا أن نشاهدتهما يمثلان طرفي نقيض، أي ما هو مرغوب فيه عند أحدهما قد يكون بغيضاً للآخر ويتعين على أحدهما أن يجب الجميع وعلى الآخر أن يعتبرهم أعداء محتملين. أحدهما يحاول تجنب الشجار مهما كلف الأمر، ويجده الآخر جبلتة التي طبع عليها. أحدهما يتعلق بالخوف والعجز ويحاول الآخر طردهما بعيداً عنه. يتحرك أحدهما مستهدفاً مثلاً إنسانية مهما كان ذلك صعباً ويتحرك الآخر طبقاً لشرعية الغاب. لكن وبصورة دائمة لم يكن أي من هذين النمطين قد اختير بحرية أي أن كلاهما قسري ولا يتسم بالمرونة ومسوق من قبل الضرورات الباطنية. وليست هناك أرض وسط يستطيع النمطان الالتقاء عليها.

نحن الآن على استعداد لأن نتخذ الخطوة التي قادنا إليها عرضنا للنمطين والتي من أجلها كنا قد بحثناهما. لقد انطلقنا من أجل اكتشاف ما يتضمنه الصراع الأساس بالتحديد وكنا قد رأينا حتى الآن منحيين منه يعملان كنزعتين متسلطتين في نمطين متميزين. إن الخطوة التي يجب أن نتخذها الآن إعطاء صورة عن شخص، تنشط فيه كل من مجموعتي المواقف والقيم المتضاربة هاتين على حدٍ

سواء. أليس جلياً أن مثل هذا الشخص يمكن أن يكون مسوقاً بعناد شديد في اتجاهين متضادين تماماً بحيث أنه قلما يستطيع تأدية وظائفه على الإطلاق؟ إن حقيقة الأمر هي أنه سيكون منقسماً على نفسه، مشلول الحركة إلى درجة عظيمة بحيث لا يستطيع القيام بشيء. فنيصب جهده نحو إلغاء إحدى مجموعتي القيم التي تطبعه بطابع أو بآخر من النمطين اللذين كنا قد وصفناهما؛ وهذه هي إحدى الطرق التي يسعى بواسطتها إلى حل صراعاته.

ولو تحدثنا كما يفعل يونغ في حال كهذه عن تطور من جانب واحد، فسنكون غير كفؤين تماماً. وفي أفضل الظروف سيمثل ذلك تصرفاً صحيحاً في إطاره العام، ولكن لأن الأمر يستند إلى تصور خاطئ عن القوى المحركة ستكون النتائج مغلوطة. فحينما يستمر يونغ منطلقاً من فكرة الجانب الواحد، في القول بوجوب مد يد العون للمريض أثناء العلاج لتساعده على تقبل جانبه المضاد نتساءل نحن: كيف يكون ذلك ممكناً؟ إذ ليس بوسع المريض أن يقبل ذلك، بل بوسعه أن يميز فقط. فإذا توقع يونغ أن هذه الخطوة ستجعل من المريض شخصاً سليماً، فسينبغي أن نجيب نحن بأن هذه الخطوة ضرورية بالتأكيد في التكامل النهائي، لكنها تعني بحد ذاتها مجرد مواجهة صراعاته التي كان يتجنبها حتى هذه اللحظة. إن ما لم يقومه يونغ تقويماً مناسباً هو الطبيعة القسرية للنزعات العصبية. لا يتمثل الفرق ببساطة في الضعف والقوة بين التحرك

نحو الناس والتحرك ضدهم أو كما قد يعبر عنه يونغ، بين الأنوثة والرجولة.

إننا جميعًا نمتلك قابليات المطاوعة والعدوان. عندما يحاول أحد الأشخاص الذين يساقون قسرًا أن يناضل بقوة كافية فإنه يستطيع التوصل إلى بعض التكامل. وحينما يكون كل من النمطين عُصبيًا فكلاهما ضار في نمونا. إن إضافة صفتين غير مرغوب فيهما لا يؤلف كلاً مرغوبًا فيه، مثلما لا يكون بوسع كيانين غير متكافئين أن يؤلفا وحدة متناغمة.

الفصل الخامس

التحرك بعيدًا عن الناس

إن الوجه الثالث للصراع الأساس هو الحاجة إلى العزلة، التي تتمثل في «التحرك بعيدًا» عن الناس، وقبل أن نفحص ذلك في النمط الذي أصبحت لديه النزعة تسلطًا، يجب أن ندرك ماذا يقصد بالعزلة العُصابية، من المؤكد أن ذلك لا يعني مجرد الرغبة في الوحدة بين آونة وأخرى. إن كل فرد يحمل نفسه وحياته محمل الجد يجب أحيانًا أن يبقى لوحده. لقد غمرتنا حضارتنا في مظاهر الحياة الخارجية لدرجة كبيرة بحيث أصبحنا نمتلك فهمًا ضئيلاً عن هذه الحاجة. غير أن إمكاناتها في تحقيق ما يريده المرء شخصياً كان قد جرى التشديد عليه من قبل الفلاسفة والأديان في الأزمنة كافة. إن الرغبة في عزلة ذات مغزى ليست أمرًا عُصائياً أبداً بل على

نقيض ذلك فإن معظم المرضى العُصابيين ينكمشون من أعماق سرائرهم الخاصة ومن عدم قدرتهم على تحمل عزلة بناءة وعدم التحمل هذا علامة على مرض العُصاب. أما إذا كان هناك إعياء لا يطاق أثناء الاختلاط بالناس حيث تصبح العزلة وسيلة لتجنب الاختلاط أساسًا حينئذٍ تصبح رغبة المرء في أن يكون وحيدًا مؤثرًا إلى العزلة العُصابية.

تشير بعض خصائص الشخص المنعزل الى مزايا خاصة به بحيث أن أطباء النفس يميلون إلى اعتبارها تنحصر في النمط المنعزل. وأشد هذه بروزًا هو الاغتراب الشامل عن الناس. تسترعي هذه الميزة انتباهنا لأن الشخص المنعزل يؤكد بها بشكل خاص غير أن غربته في الواقع ليس أعظم من غربته مرضى العُصاب الآخرين. مثلاً في حال النمطين اللذين سبق بحثهما، قد يكون من المستحيل أن نكوّن تعميماً يتعلق بكون أيهما هو الأشد اغتراباً. نستطيع فحسب أن نذكر أن هذه الميزة مستورة عند النمط المطاوع وأنه يصاب بالدهشة والرعب حالما يكتشف وجودها لأن حاجته الانفعالية للمودة الحميمة تجعله تواقاً جداً إلى الاعتقاد بعدم وجود فجوة بين ذاته وبين الآخرين. بعد كل ذلك، فإن الاغتراب عند الناس يؤلف مؤشراً فحسب على أن العلاقات الإنسانية مضطربة كشأن حال جميع أمراض العُصاب. إن مدى الاغتراب يعتمد على شدة الاضطراب أكثر مما يعتمد على الصورة الخاصة التي يتقمصها مرض العُصاب.

إن الميزة الأخيرة التي تعتبر في الغالب مقصورة على العزلة هي الاغتراب عن الذات، أي فقدان الحس بالنسبة للخبرة العاطفية والريبة في ماهية المرء أي فيما يحبه وفيما يكرهه وفيما يشتهيهِ ويأمله ويخشاه وما يمتعض منه ومن يأمن إليه. مثل هذا الاغتراب عن الذات شائع في كل أمراض العُصاب. إن كل شخص عُصابي يشبه طائفة يسيطر على توجيهها عن بعد ولذلك فهو معرض مثلها لأن يفقد الاتصال مع نفسه. بوسعنا أن نشبه الأشخاص المنعزلين تمامًا بالزومبيين في تراث هايتي الشعبي فهؤلاء أموات غير أنهم يبتعون ثانية بالسحر وبوسعهم أن يعملوا ويؤدوا وظائفهم كالأحياء غير أنهم لا حياة فيهم. يتمكن الآخرون، مرة أخرى، أن يتمتعوا بحياة عاطفية ثرّة نسبيًا. لأن مثل هذه التنوعات متوافرة لا نستطيع اعتبار اغتراب الذات محصورًا بالرغبة في العزلة. ما يشترك فيه جميع المنعزلين هو شيء مختلف تمامًا. يتمثل ذلك في استعدادهم للنظر إلى أنفسهم بنوع من الاهتمام الموضوعي مثلما قد ينظر المرء إلى تحفة فنية، ربما ستكون أفضل طريقة لوصف ذلك القول بأنهم يمتلكون موقف «المراقب» نفسه تجاه أنفسهم مثلما يمتلكونه تجاه الحياة بصورة عامة. لذلك قد يكونون في الغالب رقباء ممتازين بالنسبة للعمليات التي تجري في قرارة أنفسهم. ومن أبرز الأمثلة على ذلك هو إدراكهم الخارق لرموز الأحلام التي تظهر لهم بين الحين والآخر.

ما يمثل أمرًا حيويًا بالنسبة لهم هو حاجتهم الباطنية لإقامة حاجز عاطفي بينهم وبين الآخرين. وبصورة أدق، يتمثل قرارهم الواعي واللاواعي بعدم الارتباط عاطفيًا مع الآخرين بأية طريقة كانت سواء أكان ذلك في الحب أو الشجار أو التعاون أو التنافس. فهم يرسمون نوعًا من الدوائر السحرية حول أنفسهم قد لا يكون بوسع أحدٍ اختراقها. وهذا هو السبب في أنهم وبصورة سطحية قد «ينسجمون» مع الناس. وتبرز السمة القسرية للحاجة في رد فعلهم الذي يتميز بالقلق حينها يتطفل العالم عليهم.

توجه كل الحاجات والميزات التي يكتسبونها نحو الحاجة الرئيسة في عدم التورط. وتكون الحاجة إلى الكفاية الذاتية من أبرزها. كما تمثل سعة الحيلة أعلى مظهر من مظاهرها الإيجابية. إذ يميل النمط العدواني لأن يكون شديد الدهاء ولكن الروحية تكون مختلفة هنا، فبالنسبة له تمثل جزءًا مما يتطلبه شق طريق المرء عبر عالم يتميز بالعداء ومن أجل الرغبة في هزيمة الآخرين. تماثل الروحية عند النمط المنعزل روحية روبنسون كروسو إذ يتعين عليه كي يعيش أن يكون واسع الحيلة وهي الطريقة الوحيدة التي يعوض بها عزلته.

إن أكثر الطرق مجازفة في المحافظة على الكفاية الذاتية تتمثل في تحديد حاجات المرء شعوريًا أو لا شعوريًا. سنفهم التحركات المختلفة في هذا الاتجاه بصورة أفضل إذا تذكرنا أن المبدأ الذي يكمن خلف ذلك هنا، هو عدم الارتباط بأحد أو بشيء بصورة متينة بحيث

أن ذلك الشخص أو الشيء يصبح لا غنى عنه. ذلك سيعرض التحفظ للخطر. إذ من الأفضل ألا يمتلك المرء شيئًا يهيمه كثيرًا. على سبيل المثال قد يكون الشخص المنعزل قادرًا على الاستمتاع الحقيقي غير أنه إذا اعتمدت المتعة على الآخرين بأية صورة فسيفضل أن يتغاضى عنها. إن بوسعه أن يستمتع بالأمسيات بين فترة وأخرى مع عدد قليل من الأصدقاء لكنه يمقت التجمعات العامة والمناسبات الاجتماعية. وبصورة مماثلة يتجنب المنافسة والبروز والنجاح وهو يميل إلى تقييد أوقات أكله وشربه وعادات معيشته وبقيةها ضمن مستوى لا يتطلب منه أن يبذل وقتًا أو جهدًا يزيد عن الضرورة في اقتناء المال الذي يدفعه من أجلها. قد يستاء بشدة من المرض معتبرًا إياه ذلاً لأنه يضطره للاعتماد على الآخرين. وقد يلحق في طلب المعرفة لأي موضوع بواسطة الخبرة المباشرة بدلاً من أن يسلم بما كان الآخرون قد ذكروه أو كتبه عن روسيا مثلاً أو عن هذا القطر إن كان أجنبيًا فهو يريد أن يرى أو يسمع كل شيء بنفسه. قد يؤدي هذا الموقف إلى استقلال ذاتي رائع، إذا لم يصل حدودًا سخيطة كرفض الاستفسار عن الاتجاهات حينما يكون في مدينة غريبة.

تمثل حاجته للاختلاء بنفسه حاجة ملححة أخرى. إذ هو يشبه نزيل غرفة في إحدى الفنادق ممن يرفعون أحيانًا رقعة «يرجى عدم الإزعاج» على باب غرفته. حتى الكتب قد تعتبر متطفلة عليه كأشياء من الخارج. كما أن أي سؤال يطرح عليه عن حياته الشخصية

قد يصيبه بالصدمة، لأنه يميل إلى إحاطة نفسه بستار من الكتمان. أخبرني أحد المرضى مرةً أنه كان ما يزال يمتعص تمامًا حتى سن الخامسة والأربعين من فكرة إحاطة الله بكل شيء بقدر ما كان يستاء تمامًا عندما كانت أمه تخبره أن الله يستطيع أن ينظر عبر مصاريع النافذة ويراه وهو يقضم أظافره. كان هذا مريضًا بالغ التحفظ حتى بالنسبة لأكثر التفاصيل تفاهة في حياته. قد يشعر الشخص المنعزل بالقلق المفرط إذا نظر إليه الآخرون على أنه شخص «مساير» لأن هذا يشعره بأنه معتدى عليه. وهو يفضل كقاعدة أن يعمل وأن ينام وأن يأكل بمفرده. وعلى نقيض بارز مع النمط المطاوع فهو لا يجب اقتسام أية خبرة فالشخص الآخر قد يزعجه. حتى عندما يصغي للموسيقى أو يسير أو يتحدث مع الآخرين تأتي متعته الحقيقية بعد ذلك فقط إثر تداعي الأحداث والتأمل فيها.

يؤدي الاكتفاء بالذات والاختلاء بالنفس إلى إشباع حاجته البارزة في الاستقلال التام بذاته. وهو نفسه يعتبر استقلاله شيئًا ذا قيمة إيجابية. إن لذلك بلا ريب قيمة من نوع سيئ. إذ مهما تكن عيوبه فمن المؤكد أن الشخص المنعزل ليس آلة تلقائية ممتثلة. إن رفضه العنيد للوفاق مع تجنبه لسلاح المنافسة يضفي عليه لونا من السوية. تتمثل المغالطة هنا في أنه يعتبر الاستقلال غاية في حد ذاتها ويتغافل عن الحقيقة في أن أهميته تعتمد أخيرًا على ما يفعله باستقلاله. إن استقلاله هذا ككل مظاهر الانعزال التي يكون جزءًا

منها يمتلك توجهًا سلبيًا، إنه يستهدف عدم وقوعه تحت التأثير أو إجباره على الطاعة أو الارتباط أو الالتزام.

كأي نزعة عُصابية أخرى، تكون الحاجة للاستقلال قسرية وغير متجانسة. إنها تُبرز نفسه بوضوح في هيئة حساسية فائقة تجاه كل شيء يبدو كإكراه أو كتأثير أو كالتزام وهلمّ جرًا. وتمثل درجة الحساسية ميزانًا جيدًا لشدة الرغبة في العزلة. ويتفاوت ما يشعر به كإكراه بتفاوت الأفراد. فقد يشعر بالضغوط المادية والتي تثير الإحساس نفسه أيضًا كالياقات وأربطة العنق وأحزمة البطن والأحذية. كما أن أية إعاقة للنظر قد تثير الشعور لديه بأنه محاصر؛ كما قد يشعر بالقلق عند الدخول في نفق أو منجم. لا تشكل الحساسية على هذا النحو التفسير الوافي لمرض رهاب الاحتجاز ولكنها على أية حال تمثل خلفيتها. كما يتم تحاشي الالتزامات طويلة الأمد ما أمكن ذلك كالتوقيع على تعهد أو عقدٍ للإيجار لأكثر من سنة كما أن الزواج يكون معضلة من المعضلات. إن الزواج بالنسبة للشخص المنعزل هو قضية مخوفة بالمخاطر في نطاق أي ظرف وذلك بسبب العلاقة الإنسانية الحميمة التي يتضمنها. لكن الحاجة إلى الحماية أو الاعتقاد بأن الرفيق سينسجم تمامًا مع خصوصياته غير المألوفة قد تُلطف من المجازفة. في الغالب تكون هناك موجة من الرعب قبل اكتمال الزواج كما يتم الإحساس بقسوة الزمن وثقله لحد يجعل منه قيدًا وحجرًا وقد يلجأ العُصابي إلى عادة التأخر عن العمل ولو خمس دقائق من أجل

الاحتفاظ بهم من الحرية تجاه ضغط الوقت. كما تشكل جداول المواعيد تهديداً له؛ ويستمتع مريض الانعزال بحكاية الرجل الذي كان يرفض النظر إلى جدول المواعيد حيث كان يذهب إلى المحطة متى ما أعجبه ذلك مفضلاً الانتظار هناك كي يلحق بالقطار التالي. أما توقعات الناس الآخرين بأنه سيفعل أموراً معينة أو يتصرف بطريقة محدودة ذلك يشعره بعدم الارتياح والثورة بغض النظر عما إذا كان يعبر عن مثل هذه التوقعات فعلاً أم أن وجودها مجرد افتراض فحسب. فعلى سبيل المثال قد يجب تقديم الهدايا بشكل طبيعي لكنه سينسى ما يتعلق بهدايا أعياد الميلاد وعيد رأس السنة الميلادية لأن هذه تمثل أموراً قد تفرض عليه. إن مجازاة قواعد السلوك المقبول أو مجموعات القيم التقليدية تكون بغیضة لديه. سيدعن ظاهرياً لكي يتجنب الاحتكاك، لكنه في عقله الباطن يرفض بعناد جميع القواعد والمقاييس التقليدية، ختاماً يتم الإحساس بالنصيحة على أنها نوع من التسلط وتُجابه بالمقاومة حتى وإن اتفقت مع رغباته الشخصية. قد ترتبط المقاومة في هذه الحال كذلك برغبة واعية أو غير واعية تستهدف تثبيط همم الآخرين.

إن حاجة الإحساس بالرفعة ورغماً عن كونها مشتركة بين جميع أمراض العُصاب يجب التأكيد عليها هنا بسبب ارتباطها الذاتي بالعزلة. إن تعابير مثل «البرج العاجي» و«العزلة الرائعة» تمثل شواهد على أنه حتى في طريقة الكلام الدارج يكون الانعزال والاستعلاء

صنوين مرتبطين بشكل وثيق. من المحتمل ألا يكون هناك من يستطيع احتمال العزلة لكونه إما صبورًا أو واسع الحيلة بصورة خاصة أو شاعرًا بأهميته الفريدة. وتثبت ذلك الخبرة السريرية. فحينها يتحطم مؤقتًا إحساس الشخص المنعزل بالتفوق، إن كان ذلك بسبب فشل ملموس أو بسبب زيادة الصراعات الباطنية، فسوف لن يكون قادرًا على تحمل الوحدة وقد يتلمس العون بصورة محمومة طلبًا للحنو والحماية. غالبًا ما تظهر تذبذبات من هذا النوع في سيرة حياته. فربما كان قد كون عددًا محدودًا من الصداقات القليلة على الأرجح أثناء مراهقته أو في بدايات العشرين من عمره، لكنه عاش حياة منعزلة إلى حد ما، شاعرًا براحة بال نسبية. كان من عاداته أن ينسج خيالات عن مستقبل يتمنى أن يحقق فيه أشياء رائعة. ثم تحطمت هذه الأحلام على صخور الواقع. وعلى الرغم من أنه كان يحق له الادعاء دون ريب بالفوز بالمرتبة الأولى في المدرسة الثانوية ولكنه اصطدم في الكلية ببعض المنافسة الخطيرة فانكمش عنها. وباءت محاولاته الأولى في الحب في الفشل أو أنه أدرك حينها أخذ يكبر أن أحلامه لم تكن تتحقق. ثم أصبح الاستعلاء بعد ذلك أمرًا لا يطاق، كما كان هو يذوي تحت وطأة دافع قسري نحو الألفة الإنسانية الحميمة والعلاقات الجنسية والزواج. كان راغبًا في الرضوخ لأية مذلة لمجرد أن يجب فحسب. حينها يجيء مثل هذا الشخص للمعالجة التحليلية، فليس من المستطاع معالجة عزلته رغمًا عن كونها ما زالت شديدة وظاهرة للعيان. فكل ما

يغنيه في البداية هو المساعدة في البحث عن الحب بصورة أو بأخرى. حينها يحس بأنه أقوى بصورة لا يستهان بها فسوف يكتشف فعلاً وبارتيح بالغ أنه يرغب بشدة لو أنه «يعيش بمفرده ويريد ذلك». هنا يعطي الانطباع بأنه قد رجع القهقري نحو انزاله السابق. لكن المسألة في الواقع تتعلق بكونه يقف للمرة الأولى على أرضية صلبة بما يكفي لأن يعترف ولو لنفسه أن العزلة هي مبتغاه. قد يكون هذا هو الوقت الملائم في علاج انزاله. تتصف الحاجة للاستعلاء في حال الشخص المنعزل بأنها تمتلك معالم محدودة خاصة بها. فهو لا يريد عبر كرهه لكفاح المنافسة أن يبدع حقيقة من خلال الجهد المثابر. بل يشعر بدلاً من الإتيان بذلك أن الكنوز الدفينة في قرارة نفسه ينبغي إدراكها دون بذل أي مجهود من قبله فعظمته الخفية ينبغي أن تلمس دون أن يتعين عليه الإتيان بأية حركة. إنه يرسم في أحلامه مثلاً خزائن كنوز مطمورة بعيداً في إحدى القرى النائبة يأتي إليها الخبراء للمشاهدة من أقاصي المعمورة. إن هذه ككل مفاهيم الاستعلاء، تتضمن شيئاً من الحقيقة، يرمز الكنز الدفين إلى حياته الفكرية والعاطفية التي يصونها ضمن دائرة السحر.

تتمثل الطريقة الأخرى التي يعبر بها عن شعوره بالاستعلاء في إحساسه بأنه فريد من نوعه، وهذا مظهر مباشر من مظاهر رغبته في الإحساس بالانقطاع والتميز عن الآخرين. قد يتصور نفسه شبيهاً بشجرة تقف شاخحة بمفردها فوق قمة تل، بينما يكف نمو

الأشجار في أسفل الغابة بسبب تلك الأشجار العديدة التي تحيطها. حيثما يتوجه النمط المطاوع للإنسان الآخر متسائلًا «هل سيضمري لي الود؟» سيرغب النمط العدواني أن يعرف «كم هو شديد المراس كخصم؟» أو «هل بوسعه أن يكون مفيدًا بالنسبة لي؟» كما يكون اهتمام الشخص المنعزل الأول «هل سيدس أنفه في شؤوني؟ هل سيرغب في أن يؤثر عليّ أو أنه سيتركني وشأني؟»

إن المشهد الذي يلتقى فيه بيرجنت مع صانع الأزرار يمثل عرضًا رمزيًا يتسم بالمثالية عن الرعب الذي يشعر به الشخص المنعزل حينما يقذف به في خضم الآخرين. ستكون حجراته في جهنم على ما يرام، لكنه لا يرغب في أن يقذف في إناء للانصهار أو أن يصاغ في قالب محدود أو أن يكيف لأغراض الآخرين فتلك هي فكرة مرعبة. إذ يشعر أنه شبيهٌ بسجادةٍ شرقيةٍ نادرةٍ فريدةٍ في رسمها وفي مزيج ألوانها ثابتة أبد الدهر. إنه يحس بزهو استثنائي في كونه بقى بمنأى عن مؤثرات البيئة التي تساوي بين الجميع وهو يصمم على مواصلة تلك المسيرة. كما أنه من خلال اعتزازه بثباته يرفع الصلابة الموروثة في جميع أمراض العصر إلى مستوى منزلة مبدأ مقدس.

كما أنه عبر كونه راغبًا وحتى متلهفًا لتطوير نمطه الخاص ولإعطائه نقاء وتبصرًا أكبر فهو يصرّ على ألا يضاف إليه أي شيء من الخارج. وتظل حكمة بيرجنت صامدة ببساطتها وعدم توافقها: «كن مكثفياً بذاتك».

لا تسير حياة الشخص المنعزل العاطفية وفقاً لأسلوب مقنن كتلك التي تتعلق بالنمطين الآخرين اللذين سبق وصفهما. فالاختلافات الفردية أعظم في حالته. إنه على نقيض متنافر مع النمطين الآخرين اللذين تكون نزعاتهما موجهة نحو أهداف إيجابية: الحنو والألفة والحب عند أحدهما أو البقاء والتسلط والنجاح عند الآخر. أما أهدافه فهي سلبية: فهو لا يريد أن يتورط ولا يريد أن يحتاج لأحد ولا يسمح للآخرين أن يتدخلوا في شؤونه أو أن يؤثروا فيه. ستكون الصورة الوجدانية من هذا المنطلق معتمدة على الرغبات الشخصية التي كانت قد نشأت أو أتيح لها البقاء حية ضمن هذا الإطار من السلبية. ويمكن تكون عدد محدود من الميول الناشئة عن العزلة بذاتها.

هناك ميلٌ عام لقمع كل الأحاسيس إلى حد إنكار وجودها. أرغب هنا أن أقتبس نصًّا من رواية لم تنشر للشاعرة آنا ماريا آرمي لأنها تعبر ببلاغة ليس عن هذا الميل فحسب بل هي أيضًا تعبر عن مواقف أخرى نموذجية بالنسبة للشخص المنعزل. يذكر الشخص الرئيس أثناء استغراقه في الذكريات عن فترة مراهقته: «كان بوسعي أن أتصور رابطة مادية متينة (كالتى كانت بيني وبين أبي) ورابطة روحية قوية (كالتى كانت مع أبطالي)، لكنني لم أستطع أن أرى أين وكيف دلفت إليها المشاعر؛ بكل بساطة لم تكن المشاعر موجودة؛ كان الناس يكذبون عنها مثلما كانوا يكذبون عن أشياء أخرى كثيرة. فشعرت الفتاة بالرعب وقالت: «لكن كيف تعلق التضحية؟».

فذهلت لبرهة بسبب الحقيقة في ملاحظتها. ثم قررت أن التضحية كانت واحدة من هذه الأكاذيب وإن لم تكن أكذوبة فقد كانت فعلاً ماديًا أو روحيًا. كنت أحلم آنذاك بالعيش وحيدًا وعدم الزواج بتاتًا وفي أن أصبح قويًا ومسالماً أو أن أطيل الثثرة دون أن أطلب المساعدة. أردت إقناع ذاتي بأن أتحرر أكثر فأكثر وأن أتخلى عن الأحلام لكي أرى وأحيا بجلاء. كنت أظن أن التعاليم الخلقية لم تكن ذات مغزى فلا يهم أن تكون صالحًا أو طالحًا طالما كنت صادقًا تمامًا. كان ذنبًا عظيمًا أن تبحث عن الشفقة أو تتوقع المساعدة. وبدأت لي الأرواح كمعابد يجب حراستها، وحيث تمارس في داخلها على الدوام طقوس غريبة مفهومة عند كهنتها وأمنائها فحسب».

يتعلق إنكار المشاعر قبل كل شيء بالمشاعر تجاه الناس الآخرين وينطبق على كل من الإحساس بالحب وبالغضب. إن ذلك حصيلة منطقة تتصل بالحاجة في الإبقاء على مسافة عاطفية بين العُصابي وبين الآخرين وقد يدفع الحب أو الغضب الشديد الذي يجرب بوعي المرء إلى التقرب من الآخرين أو إلى مجابتهم. وتعبير أج. أس. سيلفيان عن آلية المسافة الملائمة في هذا الشأن. ليس من الضروري أن يفهم من ذلك أن الشعور سيقمع في مجالات تقع خارج حدود العلاقات الإنسانية وأنه سيصبح فعالاً في عالم الكتب أو الحيوان أو الطبيعة أو الفن أو الطعام وغيره. غير أن هناك خطرًا لا يستهان به ينشأ عن ذلك. فقد يكون من المستحيل على شخص يتمتع بقدرة

عاطفية مشبوبة وعميقة أن يقمع قطاعًا واحدًا من إحساسه - وهذا هو الأعمق أهمية - دون أن يتوغل بعيدًا إلى أقصى مدى في قمع إحساسه كاملاً. إن هذا تفكير مخفوف بالمجازفة غير أنه من المؤكد أن ما سيذكر يصدق بصورة واقعية. إذ غالبًا ما مر الفنانون من النمط المنعزل ممن برهنوا أثناء أوقات حياتهم الإبداعية على أنهم لم يفعلوا بعمق فحسب بل عبروا عنه كذلك في فترات من الحذر العاطفي الكامل أو رفض شديد لكل المشاعر، مثلما كان ذلك في النص المقتبس. ويبدو أن الفترات الخلاقة تأتي في أعقاب بعض المحاولات التي تنتهي بكارثة تخص صلات المودة الحميمة، حيث كانت العزلة قد طبعت حياتهم عن قصد أو بصورة عفوية. أي حينما كانوا قد عقدوا العزم شعوريًا أو لاشعوريًا على الابتعاد عن الآخرين أو أنهم استسلموا النوع من حياة الاعتزال. إن الحقيقة في أنهم يستطيعون الآن وهم على مسافة مأمونة من الآخرين من إطلاق العنان لمجموعة كبيرة من أحاسيسهم التي لا ترتبط مباشرة بالعلاقات الإنسانية وهذا يفسح المجال للتأويل بأن الإنكار المبكر لجميع الأحاسيس كان ضروريًا من أجل تحقيق عزلتهم.

هناك سبب آخر قد يجعل قمع الأحاسيس يتجاوز ميدان العلاقات الإنسانية كان قد سبق ذكره أثناء بحثنا في اكتفاء الذات. إذ تعتبر أية رغبة أو اهتمام أو تسلية تزيد من اعتماد الشخص المنعزل على الآخرين خيانة من الداخل، وقد تكبح لهذا السبب. يبدو الأمر

كما لو أن كل موقف يجب أن يمتحن عن كثبٍ عبر منظور إمكانيته على سلب الحرية قبل أن يكون من المستطاع إطلاق العنان الكامل للمشاعر. كما أن أي تهديد للاستقلال سيقود إلى الانسحاب عاطفيًا. لكنه حينها يجد مجالاً مأمونًا تمامًا بهذا الشأن، فسيكون بوسعه أن يستمتع به حتى الثمالة. إن قصة ثورو المسماة والدين تؤلف مثالاً جيدًا عن التجربة العاطفية العميقة المحتملة تحت هذه الظروف. أحيانًا يؤدي الخوف الكامن الذي يتعلق إما بكون المرء منهمكًا بإفراط في لذة من اللذات أو بانتهاكها لحرّيته بصورة غير مباشرة إلى دنوه من حافة الزهد. غير أن هذا زهد من نوع خاص غير موجه نحو إنكار أو تعذيب الذات. وقد يجدر بنا أن نسميه ضبط الذات حيث يبدو عند تقبلنا للافتراضات بأنه لا يخلو من الحكمة.

من الأهمية العظيمة بمكان للاتزان النفسي أن تكون هناك قطاعات يمكن أن تعزوها التجربة العاطفية العفوية. فقد تكون القدرات الخلاقة، مثلاً، نوعاً من الخلاص. إذا كان التعبير عنها مكبوتًا، وإذا حررت بعد ذلك عبر تحليل النفس أو عبر بعض الخبر الأخرى، فيمكن أن يغدو تأثيرها النافع عظيمًا إلى درجة تجعله يبدو كعلاج شافٍ يتصف بالإعجاز. إنّ الحذر واردٌ هنا عند تقويم مثل هذه العلاجات الناجعة. قد يكون من الخطأ أن نطلق أي تعميم يتعلق بحدوثها إذ إن معنى الخلاص لشخص منعزل قد لا يمتلك بالضرورة مثل هذا المعنى بالنسبة لآخرين. فقد لا يكون «علاجًا

ناجعاً» بحثاً بمعنى أنه سيؤدي إلى تبدل جوهرى في جذور مرض العُصاب، حتى بالنسبة له. سيتيح له فقط طريقة من الحياة أكثر إرضاءً وأقل تعكيرًا.

كلما كان قمع الانفعالات شديدًا، كلما أمكن أن يوجه الاهتمام إلى الذكاء بصورة أكبر. كان يمكن التوقع بعد ذلك أن كل شيء قد يُحلُّ بقوة التفكير البحت، كما لو أن مجرد اطلاع المرء على مشكلاته الخاصة سيكون كفيلاً بشفائها. أو كما لو تم التفكير بروية فإنه قد يستطيع بحد ذاته أن يعالج كل معضلات الدنيا!

في ضوء كل ما سبق أن ذكرناه عن العلاقات الإنسانية للشخص المنعزل فسيكون من الجلي أن أية علاقة حميمة ومتينة ستقود إلى تعريض عزلته للخطر ومن هذا المنطلق ستكون وخيمة العاقبة، ما لم يكن الرفيق انعزاليًا بصورة مماثلة وهكذا يقدر نفسه وفقًا لمثل هذه الحاجات، إن شخصية سولفيج التي تترقب بشوق وصبر شديدين عودة بيرجنت تمثل الرفيقة المثالية. إذ لا تتوقع سولفيج أن يمنحها شيئًا. فقد تروعه التوقعات من ناحيتها بقدر ما يروعه فقدانه للتحكم بعواطفه الذاتية. إنه لا يدرك في الغالب كم هو شحيح ما يقدمه هو ذاته إذ يظن أنه كان قد أسبغ على رفيقته كل العواطف المكبوتة التي لم يتمتع بها، والتي كان يعزز بها أشد الإعتزاز. قد يكون بوسعه المحافظة على قدر لا يستهان به من الإخلاص المتواصل شريطة أن تظل المسافة العاطفية مكفولة بصورة كافية. قد يكون على استعداد

لممارسة علاقات عاطفية قصيرة الأمد، علاقات يظهر فيها تارة ثم يختفي. هذه العلاقة سريعة الانكسار، ثم أن أي عدد من العوامل قد يدفعه إلى النكوص.

قد تعني العلاقات الجنسية الكثير بالنسبة له وبصورة متطرفة كجسر يصله بالآخرين. سيتمتع بها كما لو كانت علاقات عابرة ولا تشكل تدخلًا في حياته. من جهة أخرى، ربما يكون قد اضطرب هو نفسه لعدم الاهتمام بها إلى درجة عظيمة بحيث أنها لن تسمح له بانتهاك الحرمات. ومن ثم قد يستعاض عن العلاقات الواقعية بعلاقات من نسج الخيال تمامًا.

تبرز كل هذه التفاصيل الخاصة التي سبق وصفها أثناء عملية تحليل النفس. لا شك أن الشخص المنعزل سيمتعض من تحليل النفس لأنه فعلاً أعظم تطفل محتمل على حياته الخاصة.

غير أنه يولع أيضًا بملاحظة نفسه وربما يبدو مفتونًا بها بسبب الأفق الأرحب الذي يفتح أبوابه أمام ناظره مطلقًا على العمليات المعقدة التي تدور في دخيلة نفسه. قد يذهل بنوعية أحلامه الخلابة أو بالمعية صلته غير المعتمدة. ويمائل فرحه فرح العالم في حال عثوره على برهان يثبت صحة افتراضاته. وهو يثمن كياسة محلل النفس وإشاراته إلى أمر من الأمور هنا وهناك، غير أنه يمقت بشدة أن يستعجل أو «يُدفع» نحو وجهة لم تكن له في الحسبان. سيتحدث في الغالب عن خطر الإيحاء أثناء تحليل النفس رغمًا عن أن هذا الخطر

يبدو أقل بالنسبة له مقارنة مع أي نمط آخر، ذلك لأنه متحصن بكل معنى الكلمة ضد «التأثير». ولكونه يتعد عن الدفاع عن موضعه بطريقة منطقية فهو يميل كما هي حال نزعتة للرفض بلا روية ولو أنه يتحدث بصورة غير مباشرة وبلطف رافضاً كل ما لا يتفق وآراءه عن نفسه وعن الحياة عموماً. فهو يجد نفسه كارهاً أن يتوقع المحلل أي تغيير فيه بأي شكل من الأشكال. هو يريد ولا شك أن يتخلص مما يقلقه ولكن ذلك يجب ألا يتضمن تغييراً في ذاتيته المميزة. وهو راغب تقريباً في أن يتقيد بشكل لا يكفل مثلما هو مصمم بدون وعي على أن يظل كما هو. إن تحدّيه لكل تأثير ما هو إلا تفسير واحد لمواقفه وليس هو التفسير الأعمق وسنطلع على التفسيرات الأخرى بعد ذلك، ومن الطبيعي أن يجد محلل النفس بينه وبين مريضه فجوة عظيمة. وسيبقى المحلل فترة طويلة دون صوت. وقد يظهر وضع التحليل في الأحلام كمكالمة هاتفية عبر مسافة شاسعة تدور بين مخبرين صحفيين يعيشان في قارتين مختلفتين. قد يبدو مثل هذا الحلم، للوهلة الأولى، معبراً عن البرود الذي يحسه نحو محلل النفس وعملية التحليل - لكن ذلك مجرد عرض دقيق لموقف شعوري موجود. وبسبب كون الأحلام بحثاً عن حل أكثر من كونها مجرد وصف لأحاسيس موجودة فإن التأويل الأوفى لمثل هذا الحلم يتمثل في كونه أمنية من أجل إبقاء علاقته بالمحلل وعملية التحليل برمتها على بعد منه وذلك للحيلولة دون أن يمسه التحليل بأية صورة.

إن السمة التي تلفت النظر ضمن كل من تحليل النفس وخارجه هي الحيوية الهائلة التي يدافع بها عن العزلة حالما تهاجم. قد يقال الشيء نفسه عن كل حال عُصابية. غير أن المعركة في هذه الحال تبدو أشد عنادًا ونضالاً من أجل الحياة إذ تُعبأ في سبيلها جميع الطاقات المتوافرة تقريبًا. تبدأ المعركة واقعيًا بطريقة مخربة ولفترة طويلة قبل مهاجمة العزلة. ويمثل إبقاء محلل النفس خارج إطار الصورة مرحلة واحدة من مراحلها. أما إذا حاول محلل النفس أن يقنع المريض أن هناك بعض الصلة بينهما وأن من المحتمل أن يدور شيء من هذا في ذهن المريض حينها سيواجه بإنكار لذلك وبصورة مسهبة وبدمثة خلق قلت أم كثرت. وفي أحسن الأحوال سيعبر المريض عن بعض الأفكار المنطقية التي كان قد كوَّنها عن محلل النفس. فإذا حدث أن ظهر رد فعل يتسم بانفعالية عفوية فلن يعقب عليه بأكثر من ذلك. وفوق هذا غالبًا ما تكون هناك مقاومة عميقة الجذور ضد تحليل أي شيء يتصل بالعلاقات الإنسانية، إذ تحاط علاقات المريض مع الآخرين بشيء من الغموض الشديد بحيث يصعب على المحلل في الغالب أن يكون عنها صورة واضحة المعالم. وبوسعنا أن نفهم هذه الممانعة. لقد كان العُصابي يحتفظ بمسافة مأمونة تفصله عن الآخرين، وبوسع الحديث عن موضوع العلاقات أن يشير قلقًا ويقلب الأمور رأسًا على عقب وقد تجابه أية محاولات متكررة لمتابعة الموضوع بارتياحٍ صريح، هل يريد المحلل أن يجعل المريض شخصًا ميالاً

إلى العيش مع أبناء جنسه؟ (إنّ ذلك بالنسبة له أدنى مستوى من الازدراء). فإذا نجح محلل النفس أثناء فترة لاحقة في عرض بعض من المعوقات المحدودة عن العزلة فسوف يمسي المريض مرعوبًا ونزقًا. وقد يفكر في هذه المرحلة أن يتخلى عن الالتزام بالتحليل. إن ردود فعله خارج دائرة تحليل النفس ستكون ما تزال عنيفة جدًا إن لم تكن تتصف بصفة أخرى. ربما لا ينسب هؤلاء الأشخاص المتميزون عادة بالهدوء والمنطق بنت شفة لأنهم يتفضون غضبًا أو قد يستحيلون إلى أشخاص سيئين فعلاً إذا تهدد استعلاؤهم واستقلالهم بأنفسهم. قد يستثار الهلع المحض فيهم عندما تبرز فكرة الانضمام إلى أية حركة أو منظمة مهنية تتطلب مشاركة فعلية وليس مجرد دفع الرسوم. فإن أصبحوا متورطين بذلك فعلاً فقد يضربون أخماسًا بأسداس دونما أية رويّة من أجل النفاذ بجلدهم. بوسعهم أن يكونوا أكثر خبرة في اكتشاف أساليب النجاة من رجل يواجه اعتداء على حياته. وإذا وقع الاختيار بين الحب والاستقلال بالذات، كما عبّر عنه مرةً أحد المرضى، فسيقع اختيارهم على الاستقلال بدون أدنى تردد. وهذا يثير نقطةً أخرى. إنهم لا يرغبون بالدفاع عن عزلتهم بجميع الوسائل المتاحة فحسب، بل هم لا يجدون حرجًا في القيام بأية تضحية مهما غلت في سبيل ذلك. هنا يتم التخلي عن المصالح الخارجية والمعايير الذاتية على حدٍ سواء شعوريًا بإهمال أية رغبة تتعارض مع ذلك الاستقلال أو لا شعوريًا نتيجة الحظر التلقائي.

إن أي شيء يدافع عنه بهذه القوة ينبغي أن يتصف بأهمية شخصية عظيمة. يمكننا أن نفهم أغراض العزلة. وفي الختام نستطيع أن نساعد أثناء العلاج عندما نكون على وعي بذلك. وكما رأينا، يمتلك كل موقف من المواقف الرئيسية تجاه الناس قيمته الإيجابية. ففي التحرك نحو الناس يحاول المرء أن يخلق لنفسه علاقات ودية مع عالمه. وفي التحرك ضد الناس يحاول أن يجهز نفسه من أجل البقاء في مجتمع يتصف بروح المنافسة. ويأمل بالتحرك بعيدًا عن الناس أن يحقق وحدة وراحة بالٍ محددتين. إن كلاً من المواقف الثلاثة في الحقيقة ليس مرغوبًا فيه فحسب بل هو ضروري أيضًا لنمونا كمخلوقات بشرية. ولكنها تستحيل، عندما تعمل وتظهر ضمن إطار مرض العُصاب إلى مواقف قسرية وقاسية وغير متجانسة ومتضادة معًا. كل ذلك ينتقص من أهميتها بشكل لا يستهان به غير أنه لا يقضي عليها تمامًا.

إن الفوائد التي تجني من العزلة لا يستهان بها في الواقع. ومن الجدير بالذكر أن العزلة تنشُد في جميع الفلسفات الشرقية بوصفها قاعدة للتطور الروحي الأسمى. حقًا إننا لا نستطيع أن نفرق مثل هذه الطموحات عن تلك التي تتعلق بالعزلة العُصابية. فهناك تختار العزلة طوعًا بصفاتها الأسلوب الأمثل باتجاه تحقيق الذات وهي تتبنى من قبل أشخاص يستطيعون لو أرادوا أن يحيوا حياة مختلفة؛ غير أن العزلة العُصابية من الجهة الثانية ليست أمرًا مختارًا بل هي تنبثق عن القسر الذاتي حيث تمثل الطريقة المحتملة الوحيدة في الحياة.

مع ذلك فقد تشتق منها بعض من الفوائد وأقصى ما يمكن أن تبلغه هذه الفوائد يعتمد على شدة العملية العُصابية باكملها. وقد يستمر الشخص المنعزل وبالرغم من القوة المخربة في أي مرض من أمراض العُصاب بالمحافظة على استقلالية معينة. قلما يمثل هذا امتيازاً في مجتمع تتصف فيه العلاقات الإنسانية بالود وحسن النية عموماً. غير أن استقلالية أي شخص لا يتحلى بجلدٍ كافٍ ستعرض للهدر بسهولة في مجتمع زاخر بالكثير من أساليب النفاق والطرق الملتوية والحسد والقسوة والطمع. والإبقاء على مسافة يحافظ على تلك الاستقلالية. وفوق ذلك، قد تهيئ العزلة وسيلة للسكينة يختلف مداها طبقاً لمبلغ التضحية التي يرغب الشخص في تقديمها لأن مرض العُصاب كما هو معروف يسلب الفرد راحة باله. تتيح العزلة به إضافة لذلك مقداراً معيناً من التفكير والإحساس الأصيل بشرط أن تكون حياته العاطفية غير مقضي عليها تماماً ضمن دائرته السحرية. أخيراً، تساهم جميع هذه العوامل على حدٍ سواء مع علاقته التصوفية بالعالم وغياب القلق نسبياً باتجاه التطور والتعبير عن القدرات الإبداعية، إن كانت موجودة لديه. إنني لا أربط العزلة العُصابية بشرط مسبق للابداع، لكن العزلة ستقدم تحت وطأة العُصاب أفضل الفرص للتعبير عن أية مقدرةٍ خلاقةٍ متوافرة.

على الرغم من أن هذه المنافع قد تكون جوهرية، فإنها لا تبرز السبب الرئيسي في الدفاع عن العزلة بشكل مستमित. وفي حقيقة

الأمر يكون الدفاع مستميتًا كذلك حتى وإن كانت المنافع في حدودها الدنيا لسبب أو لآخر أو كانت مغلقة بغلاف التعكيرات المصاحبة. تقود هذه الملاحظات نحو أعماق سحيقة أخرى. فإذا كان الشخص المنزول قد قذف في خضم علاقة وشيخة مع الآخرين فقد يتعرض على الفور للتمزق إربًا أو باستخدام التعبير الشائع قد يصاب بانهيار عصبي. إنني أستخدم التعبير هنا بروية لأنه يشمل مدى واسعًا من الاضطرابات أي الاضطرابات العضوية كالإدمان على الكحول ومحاولات الانتحار والاكتئاب وعدم القدرة على العمل وسلسلة من الأحداث النفسية. يميل المريض ذاته وأحيانًا الطبيب النفسي أيضًا إلى ربط سبب الاضطراب لحدث من الأحداث المزعجة التي وضعت قبيل «الانهيار» مباشرة. فقد تلقى التبعة على محابة رأس عرفاء أو على غزل يمارسه أحد الأزواج ويفتري بشأنه أو على سلوك زوجته سلوكًا عُصبيًا أو على صلة جنسية شاذة أو على عدم ظفره شعبية في الكلية أو بسبب الحاجة لكسب العيش في وقت كانت فيه الحياة تتمتع بالحماية فيما مضى، وهكذا. قد يكون أي من أمثال هذه المشاكل صحيحًا تمامًا. ينبغي على طبيب النفس أن يحمل ذلك على محمل الجد ويحاول أن يفهم ماذا كان قد أثير عند المريض بصفة خاصة عبر معضلة معينة. غير أنه قلما يكفي أن يفعل ذلك لأن السؤال سيبقى، لماذا كان المريض قد تأثر تأثرًا بالغًا ولماذا كان اثرانه النفسي قد تعرض للخطر عبر مشكلة لا يمكننا اعتبارها بشكل عام

أشدّ من الإحباطات والهزائم المعتادة؟ بعبارة أخرى، حتى لو أدرك المحلل كيف واجه المريض مشكلة معينة فما يزال في حاجة لأن يدرك لم حدث مثل هذا التباين الظاهر بين الباعث وتأثيره.

للجواب على كل ذلك، يمكننا الإشارة إلى حقيقة أن النزعات العُصابية المرتبطة بالعزلة كأى نزعات عُصابية أخرى تمنح الفرد إحساسًا بالأمن طالما تؤدي وظيفتها. وأنها على العكس من ذلك تثير القلق عندما تفشل في القيام بوظيفتها. فيشعر الشخص العُصابي بأنه ما زال يستطيع البقاء بعيدًا بالأمن نسبيًا ويهدّد أمنه إذا اخترقت دائرة السحر لأي سبب من الأسباب. يدنينا هذا الاعتبار عن كُتب من استنتاج يتصل بالسبب في أن الشخص المنعزل يصبح مدعورًا إن لم يستطع حماية بُعد العاطفي من تطفل الآخرين، وينبغي أن نضيف أن سبب ذعره الهائل كونه لا يمتلك أسلوبًا للتعامل مع الحياة. إذا باستطاعته أن يحافظ على استعلائه وأن يتعد عن الحياة فحسب. وهنا أيضًا تكون الميزة السلبية للعزلة تلك التي تضفي على الصورة صبغة خاصة مختلفة عن تلك التي ترتبط بالنزعات العُصابية الأخرى. وكي نكون أكثر تحديدًا، لا يستطيع الشخص المنعزل أثناء موقف صعب أن يهدئ من نائرتيه ولا أن يقاتل وقد لا يستطيع التعاون أو فرض الشروط أو أن يعشق أو يستثار غضبًا. إنه يهائل في انعدام حيلته حيوانًا يمتلك وسيلة واحدة فقط للتعامل مع الأخطار وهي أن يهرب ويختفي. عند تنسيق الصور والقياسات المتشابهة التي

ظهرت عبر التدايعيات أو الأحلام فإنه يماثل أقزام سيلان حيث لا يمكن قهرهم طالما اختفوا في الغابات غير أنهم يهزمون بسهولة حالما يخرجون منها. وهو يماثل مدينة من مدن القرون الوسطى يحميها سور واحد فقط، فإذا تم الاستيلاء على ذلك السور تظل المدينة مجردة من أي دفاع ضد العدو. تبدو مثل هذه الحال قلقة تمامًا تجاه الحياة بشكل عام. وذلك يساعدنا على فهم ابتعاده بصفته بحاجة حماية شاملة يجب أن يتشبث بها بعناد ويدافع عنها مهما كلفه ذلك من ثمن. وتمثل جميع النزعات العصبية في جوهرها تحركات وقائية غير أن هاتين النزعتين تمثلان كذلك مجرد محاولتين لمقارعة الحياة بطريقة إيجابية. ولكن إذ تمثل العزلة النزعة السائدة فإنها تحيل المرء إلى شخص عاجز ضمن أي تعامل واقعي مع الحياة بحيث أن ميزتها الوقائية تغدو بمرور الوقت صاحبة القدر المعلى.

لكن ثمة تفسير أبعد من ذلك للتهور الذي يدافع به عن العزلة. إنه في الغالب يعني تهديد العزلة «تخطيم السور» أكثر مما يعنيه الذعر المؤقت. وما قد ينتج عنه هو نوع من انحلال الشخصية عبر سلسلة من الأحداث النفسية. فإذا حدث أثناء التحليل النفسي أن بدأت العزلة بالانهيار فإن المريض لا يغدو سريع التحسس فحسب بل سيعبر عن مخاوف معينة بصورة مباشرة وغير مباشرة. فربما يكون هناك مثلاً خوف من الضياع في خضم كتلة غير محدودة المعالم من الكائنات البشرية ذلك الخوف الذي يتعلق بالدرجة الأولى بخسارته

لفرديته. هناك أيضًا خوف من التعرض للإكراه والاستغلال من قبل الأشخاص العدوانيين نظرًا لعدم قدرته على حماية نفسه بكل ما في الكلمة من معنى. غير أنه لا يزال هناك نوع ثالث من الخوف ذلك الذي يتعلق بالنزوع نحو الجنون مما قد يبدو واضحًا للعيان بصورة ملموسة جدًا بحيث أن المريض يريد تأكيدًا قاطعًا ضد مثل هذا الاحتمال. ولا يعني النزوع نحو الجنون بهذا الصدد، التصرف باحتياج كما لا يقصد به رد فعل تتمثل حصيلته في بروز الرغبة بالتخلي عن المسؤولية.

إنه تعبير حصيف عن خوف ذاتي يتصل بالانقسام على الذات بكل معنى الكلمة، غالبًا ما يعبر عنه في الأحلام وتداعي الخواطر. سيوحي له هذا بأن تخليه عن عزلته قد يدفع به أمام صراعاته الخاصة وجهاً لوجه بحيث أنه لن يكون قادرًا على تجاوز ذلك بدون أن ينشطر إلى نصفين كشجرة ضربتها صاعقة، باستخدام صورة طرأت ببال أحد المرضى. تعزز المشاهدات الأخرى هذا الافتراض، إذ يمتلك الأشخاص من ذوي العزلة الشديدة كرهاً لا يمكن التغلب عليه تقريباً لفكرة الصراعات الباطنية. فهم يخبرون المحلل في وقت لاحق بأنهم وبكل بساطة لم يكونوا ليعوا ما كان يتحدث هو به من تلك الصراعات. وحينما ينجح المحلل في أن يريهم أحد الصراعات في سرائرهم فإنهم ينحرفون بعيداً عن الموضوع بلا وعي وبمهارة لا شعورية مذهلة. أما إذا أدركوا صراعاً من الصراعات على حين غرة فسوف ينتابهم

ذعر بالغ بغفلة من أنفسهم وقبل أن يكونوا على استعداد للتسليم بذلك. كما أنهم حينها يتوصلون إلى تمييز الصراعات على أساس أكثر رسوخًا، فهم ينغمسون في موجة من العزلة أعظم مما قد سبقها. نصل هكذا إلى نتيجة قد تبدو محيرة للوهلة الأولى. إن العزلة جزء جوهري من الصراع الأساس، لكنه يمثل أيضًا وقاية ضده. ويفسر اللغز نفسه بنفسه بالعزلة حماية ضد الشريكين الأعظم نشاطًا في الصراع الأساس. هنا يجب القول بأن تسلط واحد من المواقف الرئيسة لا يمنع الموقفين الآخرين المتناقضين من أن يتواجدا ويفعلا فعلهما. بوسعنا أن نرى تلاعب القوى هذه بدرجة أوضح في الشخصية المنعزلة مما هي عليه في المجموعتين الأخرتين اللتين سبق وصفهما.

في البداية غالبًا ما تبرز الجهود المتناقضة في السيرة الحياتية. وغالبًا ما يكون شخص من هذا النمط قد مرَّ عبر سلسلة من أحداث المطاوعة والاتكال، وكذلك عبر فترات من التمرد الطائش والعدوان قبل أن يكون قد ارتضى عزلته بجلاء. إن مجموعات معايير متناقضة جدًا وعلى عكس معايير النمطين الآخرين التي تتحدد بصورة واضحة. فبالإضافة لتقديره العالي والثابت لما يظنه حرية واستقلالاً فقد يعبر في وقت من الأوقات أثناء تحليل النفس عن تقديره البالغ للطيبة الإنسانية والعطف الكريم والتضحية التي تتصف بإنكار الذات وفي فترة أخرى يتأرجح باتجاه شريعة غاب محضة ترتبط بمصلحة ذاتية شديدة. وقد يشعر هو نفسه بالحيرة من هذه التناقضات ولكنه بشيء

من التبرير أو بغيره، سيحاول أن ينكر سماتها المتناقضة. سيقع المحلل في وضع مربك بسهولة إذا لم يكن لديه منظور واضح عن البنية برمتها. وقد يحاول أن يتعقب أحد السبل وسواه دون أن يسبر الغور بعيداً في أي اتجاه لأن المريض يلجأ كثيراً لعزله، وبذلك يغلق جميع المنافذ، مثلما قد يغلق المرء منافذ السفينة الخارجية المحكمة الإغلاق لمنع تسريب الماء.

يكمن هناك منطوق متكامل وبسيط خلف «المقاومة» الذاتية المتصلة بالشخص المنعزل. فهو لا يريد أن يبني صلة بينه وبين المحلل أو أن يكون فكرة عنه بصفته إنساناً. وهو في الحقيقة لا يريد أن يحلل علاقاته الإنسانية على الإطلاق، متجنباً مواجهة صراعاته. وإذا فهمنا وجهة نظره فسوف نلاحظ أنه لا يستطيع مجرد قيامه بتحليل أي من هذه العوامل. إن وجهة نظره تتمثل في قناعته الواعية بكونه ليس بحاجة لإزعاج نفسه حول علاقاته مع الآخرين طالما يظل بعيداً عنهم، وأن أي اضطراب في هذه العلاقات سوف لن يعكر صفوه طالما استمر في هذا البعد عن الآخرين؛ حتى الصراعات التي يتحدث عنها محلل النفس يمكن أن تهمل نهائياً لأنها ستزعجه فحسب؛ ولأنه لا يحتاج لتسوية الأمور وهيئات أن يترشح عن عزله هذه. إن هذه المماحكة اللاواعية كما سبق أن قلنا صحيحة منطقياً إلى درجة ما. وما يهمله ويرفض الاعتراف به لزمن طويل هو أنه ليس من المحتمل أن يتمكن من النمو والتطور في فراغ.

إن وظيفة العزلة العُصابية ذات الأهمية البالغة هي منع الصراعات الرئيسة عن العمل. إذ تتصف الدفاعات المهيأة ضد هذه الصراعات بكونها الأشد تطرفًا والأعظم تأثيرًا. وتتمثل إحدى الطرق العُصابية العديدة في خلق الوفاق المصطنع في محاولة إيجاد حل من خلال المراوغة. غير أنها ليست حلًا صادقًا لأن الرغبات القسرية الشديدة الإلحاح نحو الألفة وكذلك من أجل الهيمنة العدوانية والاستغلال والإبداع تبقى في حالة تواصل ومضايقة لحاملها إن لم تشمل حركته تمامًا. أخيرًا لا يمكن تحقيق راحة فكر باطنية أو حرية حقيقية طالما تستمر في البقاء مجموعات القيم المتصارعة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السادس

الصورة المثلى

إن مناقشتنا لمواقف الشخص العُصابي الأساسية تجاه الآخرين قد أطلعتنا على سبيلين من السبل الرئيسة التي يحاول من خلالها أن يحل صراعاته أو بصورة أدق أن يتخلص منها. تنطوي إحدى هذه السبل على قمع نواحٍ معينةٍ من الشخصية وإبراز نقيضاتها إلى الواجهة؛ والسبيل الثانية هي في خلق مسافة بين المرء وأقرانه بحيث أن الصراعات تُشَل عن العمل. وتستحث كلتا العمليتين إحساسًا بالسوية يتيح للفرد ممارسة وظائفه حتى ولو كلفه ذلك غالبًا.

إن المحاولة التالية التي ستوصف هنا تتمثل في خلق صورة لما يظنه الشخص العُصابي عن نفسه، أو لما يحس به في حينه أو لما ينبغي عليه أن يكون باستطاعته فعله بصورة واعية أو غير واعية،

والصورة تبتعد عن الواقع وبدرجة كبيرة على الدوام بالرغم من أن التأثير الذي تمارسه على حياة الشخص يمثل تأثيرًا حقيقيًا فعلاً. كما توصف الصورة زيادة على ذلك بأنها مدهنة في ميزتها مثلما هي واضحة في رسم كاريكاتيري نُشرَ في صحيفة نيويورك ريث تشهد فيه امرأة بدينة في أواسط العمر ترى نفسها في المرآة كفتاة رشيقة في مستقبل العمر. تتباين وتتقرر ملامح الصورة الذاتية بواسطة بنية الشخصية. فقد يعتبر الجمال مسألة ظاهرة تعتبر القوة أو الذكاء أو النبوغ أو الورع أو النزاهة أو كل ما بدا لك. كما أنه طبقاً لمدى ما تكون عليه من زيف فهي تميل إلى جعل الشخص معجرفاً بكل ما يقصد بالمعنى الأصلي للكلمة، لأن العجرفة رغم استخدامها بصورة مرادفة للادعاء تعني أن ينسب المرء لذاته مزايا لا يمتلكها أو يتمنى المرء أن يمتلكها ولكنها ليست موجودة لديه حقيقة. وكلما كانت الصورة غير واقعية جعلت الشخص ميالاً وطامعاً في الثبت والتقدير الخارجي. إننا لسنا بحاجة للتأكيد على المزايا التي نثق في وجودها لدينا لكننا سنشعر بحساسية شديدة عندما نشك في ادعاءاتنا المزيفة.

نستطيع ملاحظة هذه الصورة المثلى في أشد حالاتها صخباً من خلال المفاهيم التي تتسم بالمبالغة لدى المصابين بأمراض الذهان. إلا أن ميزاتها في الأساس هي نفسها عند مرضى العُصاب. إنها أقل غرابة هنا لكنها قد تكون واقعية بالنسبة لهم. فإذا اعتبرنا درجة

الابتعاد عن الواقع كعلامة على الفرق بين أمراض الذهان وأمراض العُصاب فربما نعتبر الصورة المثلى كجزء صغير من مرض ذهاني حيك ضمن نسيج مرض العُصاب.

تتميز الصورة المثلى في جميع مقوماتها بكونها ظاهرة لا شعورية. إذ بالرغم من أن انتفاخ أوداجه الذاتي قد يكون في أوج وضوحه حتى بالنسبة لمراقب غير متمرس فإن مريض العُصاب لا يعلم أنه يعتبر نفسه شخصًا مثاليًا. كما أنه لا يدري أي خليط غير متجانس من الصفات تجتمع فيه. قد يمتلكه إحساس غامض في أنه يُحمّل نفسه أعباءً ثقيلة، لكنه يخطئ في اعتبار مثل هذه الأعباء المتكاملة مثلًا أصيلة لا يشك في صحتها بأي شكل كان وهو في الواقع أميل للتفاخر.

كيف ستؤثر بدعته في مواقفه تجاه نفسه، إن ذلك يختلف باختلاف الفرد ويعتمد بشكل واسع على تركيز الاهتمام. فإذا تركز اهتمام مريض العُصاب في إقناع نفسه أنه هو صورة ذاته المثلى فإنه ينمي في ذاته الاعتقاد بأنه في الواقع يمثل العقل المدبر والكائن البشري الرائع الذي تكون حتى أخطاؤه أمورًا مقدسة. وإذا كان التركيز ينصب على الذات الحقيقية والتي تحظى عند مقارنتها بالصورة المثلى بالازدراء الشديد، عندها سيبرز النقد المزدري للذات إلى المقدمة. ذلك لأن الصورة الذاتية التي تنتج عن مثل هذا الانتقاص تكون بعيدة عن الواقع كابتعاد الصورة المثلى ومن المستطاع أن

تسمى وبشكل مناسب الصورة المزدراة. أخيراً إذا كان التركيز على التعارض بين الصورة المثلى والذات الحقيقية فإن كل ما يعنيه هو وكل ما نستطيع ملاحظته نحن، بعد ذلك، ليس أكثر من محاولته المتواصلة في ردم الفجوة وإرغام نفسه على الوصول إلى مستوى الكمال. وفي هذه الأثناء يواصل هو ترديد كلمة «ينبغي» بتكرار يثير الذهول. ويستمر في إعلامنا بما كان ينبغي أن يشعر به أو يفكر فيه أو يفعله. وهو في صميم دخيلته مقتنع بكماله الموروث على نحو تام كإقتناع الشخص «الرجسي» بسذاجة، ويظهر ذلك عرضاً من خلال الاعتقاد أن بوسعه أن يكون كاملاً إذا كان أشد صرامة مع نفسه فحسب وأكثر ضبطاً وأكثر حيطة وأكثر وعياً.

تمتلك الصورة المثلى سمة ثابتة على عكس المثل الأصلية. إنها ليست غاية ليبدل قصارى جهده في سبيل الفوز بها بل هي فكرة ثابتة يدين لها. تمتلك المثل سمة فعالة فهي تثير باعثاً من أجل التوصل إليها وهي قوة لا تقدر بثمن ولا يمكن الاستغناء عنها من أجل النمو والتطور. أما الصورة المثلى فهي كعقبة أداء في طريق النمو لأنها إما أن تنكر وجود العيوب أو تشجبها فحسب. وتدعو المثل الأصلية إلى التواضع بينما تدعو الصورة المثلى إلى العجرفة.

أدرِكت هذه الظاهرة ومهما كان تعريفها منذ فترة طويلة. فأشير إليها في المؤلفات الفلسفية في كل الأزمنة. وقد قدّمها فرويد أولاً في نظرية مرض العُصاب داعياً إياها بمسميات مختلفة منها مثال الـ «أنا»

و«النرجسية» وال«أنا» العليا. وهي تؤلف الفرضية المركزية في علم نفس أدلر وقد وصفت هناك على أنها جهاد من أجل التفوق. وقد يؤدي الإدلاء بتفاصيل الفروقات والتشابهات بين هاتين الفكرتين وفكرتي إلى الانقياد بعيداً عما نحن بصدده. وبصورة موجزة فهذه جميعها تهتم بمنحى واحد أو بآخر فحسب من مناحي الصورة المثلى وتفشل في استيعاب الظاهرة ككل. لذلك وبغض النظر عن التعليقات والحجج المتعلقة بها، ليس فقط فيما يتصل بفرويد وأدلر ولكن بما قدّمه كتاب آخرون كثيرون، من بينهم فرانز الكساندر وبول فيدرن وبرنارد كلويك وايرنست جونز، فإن أهمية الظاهرة ووظائفها كاملة لما تزل غير مفهومة.

ما هي إذن وظائفها؟ إنها كما يبدو تتضمنان حاجات حيوية. وكيفما كان يفسرّها نظرياً مختلف الكتاب فإنهم جميعاً يتفقون على نقطة واحدة تتمثل في أنها تؤلف قلعة مرض العُصاب إذ من الصعب زحزحتها أو حتى إضعافها. وقد اعتبر فرويد كأحد هؤلاء أن الموقف «النرجسي» المتأصل بعمق من أشد العقبات خطراً بالنسبة للعلاج النفسي التحليلي.

عندما نبتدئ بما قد يشكل أكثر وظائفها بدائية تمثل الصورة المثلى بديلاً عن الاعتداد بالنفس وعن الفخر الحقيقيين. إن الشخص الذي يغدو في النهاية عُصابياً يمتلك فرصة ضئيلة في بناء الثقة بنفسه نظراً للتجارب الماحقة التي كان قد تعرض إليها. مثل هذه الثقة التي قد

تبقت لديه، تصبح أشد اهتزازًا أثناء تطور مرضه العُصابي. ذلك لأن الأحوال ذاتها التي لا يمكن الاستغناء عنها في بناء الثقة بالنفس تكون قابلة للتدمير. ومن الصعب صياغة هذه الأحوال في وقت قصير. ومن أكثر العوامل أهمية توافر نشاط طاقات المرء العاطفية، ونمو أهداف أصيلة لدى المرء، وقدرته على أن يكون عنصرًا فعالاً في حياته الشخصية. كيفما يتطور مرض العُصاب فإن هذه الأشياء قد تكون عرضة للضرر فحسب. وتعرقل النزعات العُصابية التصميم الذاتي لأن الشخص عند ذلك يكون منقادًا بدلاً من أن يكون هو القائد لنفسه. فضلاً عن ذلك فإن قابلية مريض العُصاب في تقرير مساراته الشخصية يضعف باستمرار بسبب اعتماده على الناس مهما كانت الصورة التي يتخذها هذا الاعتماد، فالتمرد على نحو أعمى أو التوق إلى الإبداع غير المتبصر والحاجة الملحة على نحو لا يقبل التمييز إلى البقاء بعيداً عن الآخرين تؤلف كلها أنواعاً من الاعتماد. كما أن ما يعطلها عن العمل كذلك هو كبت قطاعات واسعة من الطاقة العاطفية. كل هذه العوامل تجعل من المستحيل عليه تقريباً أن يطور أهدافه الخاصة. أخيراً وليس آخراً يجعله الصراع الأساس منقسماً على نفسه في دخيلة ذاته. لذلك يتعين على مريض العُصاب ولأنه محروم هكذا من أساس حيوي جداً أن يضحّم إحساسه بالأهمية والقوة. ولهذا السبب فإن إيمانه بقدرته الكلية يشكل عنصراً فعالاً من عناصر الصورة المثلى بصورة دائمة.

هناك وظيفة ثانية ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع الوظيفة الأولى. إن مريض العُصاب لا يشعر أنه ضعيف ضمن فراغ بل في عالم مليء بأعداء مستعدين لخداعه ولازدرائه ولاستبعاده ولإيقاع الهزيمة به. لهذا السبب يتعين عليه أن يزن ويقارن نفسه باستمرار مع الآخرين، لا من أجل أسباب تتعلق بغرور أو نزوة بل بسبب من الحاجة الماسّة ولكونه يشعر في قرارة نفسه بالضعف والهوان، كما سنرى فيما بعد، فيتعين عليه أن يبحث عن شيء ما يجعله يحسُّ بأنه أفضل وأكثر قيمة من الآخرين. إن كان ذلك يتخذ هيئة الإحساس بأنه أكثر ورعاً أو أكثر طيشاً أو أكثر حباً أو مراوغة فإنه يتعين عليه أن يشعر في عقله الخاص الباطن بأنه أرفع منزلة بطريقة ما وبغض النظر عن أي دافع خاص نحو الإبداع. مثل هذه الحاجة تخفي في أغلب الأحوال عناصر الرغبة في الانتصار على الآخرين؛ ومهما كانت بنية مرض العُصاب فهناك دوماً قابلية لسرعة الانفعال واستعداد للإحساس بأنه يُحتقر ويُزدري. قد يبذل الجهد من أجل حاجة الانتصار الثأري باعتباره بلسماً يداوي الإحساس بضالة الشأن أو قد يوجد أساساً في ذهن مريض العُصاب الخاص شعورياً أو لا شعورياً، لكنه يمثل إحدى القوى الدافعة ضمن الحاجة العُصابية من أجل التفوق ويضفي عليها صبغته الخاصة. لا تؤدى روح المنافسة التي تتصف بها هذه الحضارة إلى تعزيز أمراض العُصاب عموماً فحسب ومن خلال الاضطرابات التي تخلقها في العلاقات الإنسانية لكنها أيضاً تغذي الحاجة إلى الترفع مسبقاً.

لاحظنا كنفاد كيف تعوّض الصورة المثلى عن الثقة الشخصية بالذات وعن الفخر الحقيقي. غير أنه ما زال هناك سبيل آخر تستخدم من خلاله بصفته كبديل. ولكون مُثل مريض العُصاب متناقضة فلا يحتمل أن تستطيع اكتساب قوة ملزمة فتظل غامضة وغير محدودة وليس بوسعها أن تمنحه أية هداية. من هذا المنطق، لو لم يكن ذلك بسبب مسعاه في أن يكون معبودَ ذاته الذي خلقه بنفسه والذي أضفى على حياته نوعاً من المغزى، فلسوف يشعر أنه بلا هدفٍ كلياً. يبدو هذا على نحوٍ جلي أثناء تحليل النفس بشكل خاص حينما تجعله الإطاحة بالصورة المثلى يحس لبعض الوقت أنه ضائع تماماً. فيدرك حينذاك فقط تخطيه بشأن المُثل ويبدأ هذا في إعطائه الانطباع بأنه امرؤ غير مرغوب فيه. كان الأمر برمته قبل ذلك خارج نطاق إدراكه واهتمامه، ومهما منحه من اهتمام ضئيل فهو يدرك الآن لأول مرة أن للمُثل بعض المغزى وهو يريد أن يكتشف ما هي مُثله الشخصية فعلاً. إن هذا النوع من التجربة، كما ينبغي أن أذكر هو دليل على أن الصورة المثلى تعوّض عن المُثل الأصلية. ويمتلك إدراك هذه الوظيفة أهمية بالغة بالنسبة للعلاج. فقد يبين المحلل في مرحلة مبكرة التناقضات المتوافرة في مجموعة قيّمه غير أنه لا يستطيع أن يتوقع أي اهتمام بنّاء بهذا الموضوع ومن هنا فهو لا يستطيع المثابرة على ذلك حتى تكون الصورة المثلى قد أمست عديمة الأهمية.

من الممكن اعتبار إحدى وظائف الصورة الخاصة مسؤولة عن

صلابتها بدرجة أكبر من أية وظيفة أخرى من وظائفها. إذا كنا نرى أنفسنا في مرآتنا الشخصية كمنادج للفضيلة أو الذكاء فإن أشد أخطائنا وأقواها ستختفي أو ستكتسب صبغة جذابة، تمامًا كما يكون ذلك في لوحة رسم ممتازة فالجدار البالي الأيل للسقوط لا يبدو جدارًا باليًا مائلًا للسقوط بل تكوينًا جميلًا من القيم اللونية البنية والرصاصية المشوبة بالألوان الحمراء.

بوسعنا أن نتوصل إلى فهم أعمق لهذه الوظيفة الوقائية إذا تقدمنا بسؤال بسيط: ما الذي يعتبره المرء أخطاءً وعيوبًا؟ هذا واحد من تلك الأسئلة التي يبدو لأول وهلة أنها لا تؤدي إلى أي مكان لأن المرء يبدأ في التفكير باحتمالات لا حصر لها. ومع ذلك فهناك جواب ملموس. إن ما يعتبره المرء أخطاءه وعيوبه يعتمد على ما يقبله أو يرفضه في ذاته. ذلك يقرر ضمن ظروف حضارية متماثلة وبواسطة أحد جوانب الصراع الأساس التي تتسلط، فلا يعتبر النمط المطاوع مخاوفه أو عجزه على أنه شائبة أو عار يتعين عليه أن يخفيه عن نفسه وعن الآخرين. يعتبر المطاوع أفكاره العدائية على أنها ارتكاب للمعاصي؛ ويعتبر النمط العدواني أحاسيسه التي تتميز برقة أكبر على أنها ضعف مشين. ويساق كل من النمطين إلى رفض كل ما هو في الواقع مجرد ادعاء من جانب ذاته الأكبر قبولاً. ويضطر النمط المطاوع، مثلاً، إلى رفض حقيقة كونه ليس شخصاً محبباً أصيلاً أو كريماً فعلاً؛ أما النمط المنعزل فهو لا يريد أن يرى أن استعلاءه أمر

لا ينطلق من محض اختياره الحر فهو يجب أن يتعد لأنه لا يستطيع التعامل مع الآخرين، وهكذا. وكقاعدة، كلاهما يرفضان النزعات السادية (التي ستناقش فيما بعد). وهكذا نتوصل إلى الاستنتاج بأن ما يعتبره عيباً ويُرفض، هو ما لا ينسجم ضمن الصورة الثابتة التي خلقها الموقف السائد تجاه الآخرين. نستطيع القول أن الوظيفة الوقائية للصورة المثلى تتمثل في أنها تنفي وجود الصراعات ولهذا السبب يجب بالضرورة أن تظل ثابتة وراسخة. قبل أن أدرك ذلك كنت في الغالب أتساءل لم يبدو مستحيلاً على المريض أن يتقبل نفسه على أنها ذات شأن أدنى نسبياً وأقل رفعةً. لكن الجواب يتضح إذا نظرنا عبر هذا المنظار. ليس بوسع المريض أن يتزحزح بوصة واحدة لأن الاعتراف بعيوبٍ معينة سيضعه وجهًا لوجه أمام صراعاته وبذلك يعرض للخطر الوفاق المصطنع الذي كان قد أشاده. لذلك نستطيع التوصل إلى أن هناك ارتباطاً موجباً بين شدة الصراعات وتصلب الصورة المثلى. وتتيح لنا الصورة المتصلبة المعقدة أن نستنتج وجود صراعات مقلقة بصورة استثنائية.

إضافة إلى الوظائف الأربع التي أشير إليها ما زالت الصورة تمتلك وظيفة خامسة ترتبط مثلها بالصراع الأساس. إذ إن للصورة استخداماً إيجابياً أكثر من مجرد إخفاء معالم الصراع غير المقبولة. فهي تمثل نوعاً من الإبداع الفني الذي تبدو فيه الأضداد مصطلحة مع نفسها ولا تتأثر على الظهور بمظهر الصراعات بالنسبة للفرد

ذاته. وسترينا أمثلة قليلة كيف يحدث هذا. سوف أعدد الصراعات المتوفرة فقط كي نتجنب التفاصيل الطويلة وأبين كيف ظهرت في الصورة المثلى.

كانت السمة المتسلطة على صراع الشخص، هي المطاوعة ولديه حاجة ضخمة من أجل الحنو والاستحسان وأن يؤخذ بيده وأن يكون عطوفاً وكريمياً ومتفهماً ومحبباً. وكانت العزلة تأتي بالمرتبة الثانية من الأهمية مصحوبة بالتوق المعتاد إلى الانخراط في سلك الجماعات والتأكيد على الاستقلال والخوف من الالتزامات والتجسس ضد الإكراه. كما تقاربت العزلة دائماً مع الحاجة إلى الألفة الإنسانية وكانت تخلق اضطرابات متكررة في علاقاته مع النساء. كذلك كانت الدوافع العدوانية بارزة جداً، متمثلة في كونه يجب أن يكون الأول في أية حال وفي التسلط على الآخرين بشكل غير مباشر واستغلالهم أحياناً دون أي تسامح مع أي تدخل في شؤونه. ولا شك أن هذه الميول قد سلبت جزءاً كبيراً من استعداده للحب والمودة واصطدمت كذلك مع عزلته. وبدون وعي منه بهذه الدوافع كانت قد خلقت صورة مزيفة مثلى تمثلت في تكوين ثلاث صور. كان هو الحبيب والصديق العظيم ومن غير المعقول أن يكون بوسع أي امرأة أن تعشق رجلاً آخر أكثر منه، إذ لم يكن هناك أي شخص يماثله في شدة عطفه وطيبته كما كان هو. لقد كان هو القائد الأعظم في زمانه وعبقري سياسةٍ يُحسب له ألف حساب. أخيراً لقد كان يمثل الفيلسوف

العظيم ورجل الحكمة وواحدًا من الندرة الموهوبة بالتبصر العميق في مغزى الحياة وعدم جدواها في النهاية.

لم تكن الصورة وهمية على وجه الإجمال، فقد كانت لديه إمكانات واسعة في كل الاتجاهات، غير أن هذه الإمكانيات كانت قد رُفعت إلى مستوى الحقيقة الواقعة، لمستوى إنجاز عظيم وفريد من نوعه. وفوق ذلك، كانت الطبيعة القسرية للدوافع قد حُجبت وأبدلت بإيمان في المميزات والمواهب الكامنة. فبدلاً من الحاجة العُصائية للحنو والاستحسان كانت هناك قدرة مزعومة على الحب وبدلاً من توافر دافع نحو الإبداع كانت هناك مواهب رفيعة مفترضة وبدلاً من الحاجة إلى الاستعلاء كانت هناك استقلالية وحكمة. ختامًا والأكثر أهمية كانت الصراعات قد خُتمت بالطريقة المثالية. فقد رفعت الدوافع التي تداخلت مع بعضها وحالت دون تحقيقه لأي من قدراته الكامنة في حياة الواقع إلى مملكة الكمال المطلق وبدأت كجوانب متعددة متجانسة في شخصية ثرّة، كما عزلت جوانب الصراع الأساس الثلاث التي مثّلتها ضمن الأنماط الثلاثة التي كونت صورته المثلى.

يجسد لنا مثال آخر بوضوح أكثر أهمية عزل العناصر المتصارعة. كانت العزلة هي النزعة السائدة في حال الشخص «ب» بصورة تقترب من التطرف مع كل ما يرافقها من نتائج وصفت في الفصل السابق. كان ميله للمطاوعة أيضًا بارزًا جدًا رغمًا عن أن «ب» نفسه

كان قد أوصد دونه باب وعيه لأنه كان يتعارض مع توفه الشديد للاستقلال. أحياناً، كانت تنطلق عبر درع أحاسيسه المكبوتة جهوداً نحو خير منقطع النظير. وكان الحنين إلى الألفة الإنسانية ملموساً وكان يصطدم مع عزله باستمرار. إنه يستطيع أن يكون اعتدائياً متهوراً في مخيلته فحسب.

كان ينغمس في أحلام يقظة تتعلق بالتدمير الجماعي متمنياً بصراحة تامة قتل كل أولئك الذين تدخلوا في حياته، وكان يُصرّح أنه يؤمن بشريعة الغاب وبالإنجيل الذي يذكر أن القوة تعني الحق مع ركضها الطائش وراء مصلحة الذات وأنها كانت طريقة الحياة الأملية الوحيدة وغير المرئية. كان في حياته الواقعية يقترب من كونه رعيدياً كانت تتنابه فورات من العنف في ظروف معينة.

تألفت صورته المثلى من الخليط المتنافر التالي. كان راهباً يعيش معظم الوقت على قمة جبل لأنه قد اهتدى إلى حكمة وسكينة ليس لها حدود. كان يستطيع في أحيان نادرة أن ينقلب إلى ذئب أمعط مجرد من المشاعر الإنسانية ومصرّ على القتل. وكأنها لم تكن هذه الصفات كافيةً فكان أيضاً الصديق والحبيب الأمثل.

نلاحظ هنا إنكار وجود النزعات العُصائية بالذات: فتعظيم الذات هو نفسه والخطأ نفسه في اعتبار الإمكانات الكامنة حقائق واقعية. في هذا المثال لم تكن قد جرت أية محاولة للتوفيق بين الصراعات لذلك تبقى التناقضات. غير أنها تبدو صافية ومركزة

على نقيض مع حياة الواقع. وهي لا تتدخل مع بعضها لأنها منعزلة. ويبدو أن ذلك هو ما يهم إذ إن الصراعات، كصراعات، كانت قد اختفت.

نقدم هنا مثالاً أخيراً عن صورة مثلى أكثر تناغمًا: كانت النزعات العدوانية عند «ز» تهيمن بقوة ومرافقة بميول سادية. كان متسلطاً ميلاً إلى الاستغلال. كان يشق طريقه بتهور نحو الأمام مساقاً بطموح عارم. كان بوسعه أن يخطط وينظم ويقاوم وكان يتمسك شعورياً بشريعة غاب لا محاباة فيها. كذلك كان شديد العزلة غير أنه لم يكن بوسعه المحافظة على استعلائه لأن دوافعه العدوانية كانت توقعه دائماً في مجابهة مع مجاميع من الناس. غير أنه حافظ على حيطة المتزمتة في ألا يتورط بأية علاقة شخصية أو أن يسمح لنفسه بأن تتمتع بأي شيء يساهم الناس فيه بصفة أساسية. كان ينجح في ذلك بكل معنى الكلمة لأن مشاعره تجاه الآخرين كانت مقموعة بشكل عظيم وكانت مشاعره التواقة نحو الألفة الإنسانية الحميمة قد حصرت أساساً ضمن مجرى اتهامات جنسية. كان هناك ميل واضح في المطاوعة مصحوب بحاجة من أجل الاستحسان تداخلت مع توقه الشديد للقوة. وكما وجدت لديه مقاييس طهرية كامنة في الأعماق تتخذ بصورة رئيسة كسوط لإرهاب الآخرين. لم يكن ليسعه بالطبع غير تطبيقها على نفسه كذلك وحيث كانت تصطدم مباشرة مع شريعة الغاب الخاصة به.

كان في صورته المثلى الفارس في دروعه البراقة والصلبيي ذا النظرة الشاملة الصائبة والملاحق للحق لأبداً. وكما هي خصلة القائد الحكيم لم يكن مرتبطاً شخصياً بأحد ولكنه كان يقتضي انضباطاً صارماً من الجميع ولو اتصف هذا بالعدالة. كان نزيهاً بلا نفاق. لقد أحبته النساء وكان بوسعه أن يكون عاشقاً عظيماً غير أنه لم يكن متعلقاً بأية امرأة. في هذا الموضوع يحقق الهدف نفسه كما تحقق في الأمثلة الأخرى إذ تأتلف عناصر الصراع الأساس.

لذلك، تؤلف الصورة المثلى محاولة في حل الصراع الأساس ومحاولة تكتسب أهمية عظيمة على أقل تقدير مثل أهمية المحاولات الأخرى التي كنا قد وصفناها. إنها تمتلك الأهمية الموضوعية الهائلة في كونها تمثل رباطاً يربط أجزاء شخص منقسم على ذاته بعضها ببعض الآخر. كما أنها تضيف تأثيراً حاسماً على علاقاته مع الآخرين رغماً عن كونها تعشش في ذهن الشخص وحده.

ربما يمكن أن تُسمى الصورة المثلى بالذات الوهمية أو الذات المخادعة، لكن ذلك سيمثل نصف الحقيقة فقط، ومن هنا فسيكون ذلك مضللاً. إن أفكار التمني التي نشتهيها تلفت النظر حقاً، خصوصاً لأنها تحدث عند أشخاص هم من نواحٍ أخرى يقفون على أرصفة واقعية صلبة. غير أن هذا لا يجعلها وهمية كلياً. فهي مخلوق خيالي نسجته وصمته عوامل واقعية جداً، كما أنها في حقيقتها تضم آثاراً من مثل الشخص الأصلية. فبينما تكون

المنجزات العظيمة وهمية تكون القدرات الدفينة تحتها حقيقة في الغالب.

ومما هو أكثر صلة بالأمر، أنها تتولد عن حاجات باطنية حقيقية جداً، وهي تؤدي وظائف حقيقية تماماً، كما أنها تمتلك تأثيراً حقيقياً بالغاً على مبتدعها. تتقرر العمليات المسببة في خلقها من قبل قوانين محدودة، يتيح لنا الاطلاع على قسماتها الخاصة أن نكون استنتاجاتٍ دقيقةً فيما يتعلق ببنية شخصيتها الفعلية لدى الشخص المعين.

لكن الصورة المثلى بالنسبة للشخص العصابي نفسه تمتلك قيمة واقعية بغض النظر عن مقدار الوهم الذي تُسج فيها. وكلما كانت وطيدة الأساس كلما بدا له بأنها صورة ذاته المثلى بينما تُحجب ذاته الحقيقية. إن قلب الصورة الحقيقية هذا رأساً على عقب من المحتم أن يحدث بسبب طبيعة الوظائف نفسها التي تكوّن هذه الصورة. تهدف كل وظيفة فيها إلى طمس معالم الشخصية الفعلية وتوجيه الأضواء الكاشفة نحو ذاتها، بعد إعادة النظر في سير كثير من المرضى نظن أن بناءها كان وما يزال في الغالب إنقاذاً للحياة بكل معنى الكلمة، ولذلك السبب تكون المقاومة التي يتبناها المريض إن هوجمت صورته مبررة أو على الأقل منطقية كلياً. لأنه طالما تظل صورته حقيقية وسليمة بالنسبة له فإن بوسعه أن يشعر بأهمية الشأن والتفوق والتناغم رغماً عن الطبيعة الخادعة لهذه الأحاسيس. بإمكانه حينئذ أن يعتبر نفسه مخلوّلاً لأن يتقدم بكل أنواع الأوامر

والادعاءات على أساس تفوقه المزعوم. غير أنه إذا سمح للصورة أن تقوض فسيكون مهددًا مباشرة باحتمال مواجهة كل ضعف فيه دون أن يمتلك أي حق في مزاعم خاصة؛ وسيكون شخصًا بلا قيمة حتى في مرآة نفسه ذاتها. ولا يزال هناك ما هو أشد رعبًا حيث أنه سيواجه صراعاته كما سيواجه خوفًا بشعًا يتمثل في أنه سيتقطع إربًا إربًا. ولكن هذه العملية ربما تمنحه فرصة كي يصبح مخلوقًا إنسانيًا أفضل كثيرًا وله قيمة تزيد على كل أمجاد صورته المثلى. ذلك يمثل حكمة يصغي إليها لكنها لا تعني له شيئًا لفترة طويلة إذ تمثل قفزةً في الظلام يخشاها.

سيكون مركز الصورة غير قابل للاقتحام نظرًا لتمتعه بقيمة موضوعية عظيمة جدًا إن لم يكن ذلك بسبب العوائق التي لا تنفصل عنه. ويكون الصرح بكامله واهنًا جدًا بسبب العناصر الوهمية التي يشتمل عليها. ولكونه يمثل مخبأ كنز مليئًا بالمتفجرات مما يجعل الفرد شديد الحساسية بالنسبة للتهجمات بصورة كبيرة. إن أي تساؤل أو نقد خارجي وأي اطلاع على فشله الشخصي في الارتفاع إلى مستوى الصورة وأي استقرار للقوى الفاعلة في سريره يمكن أن يجعلها تنفجر أو تنهار. إذاً يجب أن ينظم حياته كي لا يتعرض لمثل هذه المخاطر. يجب أن يتحاشى الأوضاع التي قد لا تشير إليه بالإعجاب أو التميز. يجب أن يتجنب المهام التي لا يشق تمامًا بأنه يجيدها. وقد يتطور لديه نفور شديد نحو القيام بأي

جهد من أي نوع. إن مجرد تخيل لوحة قد ساهم برسمها ستمثل عندئذ التحفة الرائعة. إن بوسع أي شخص متواضع أن يصل إلى موقع معروف بالعمل الجاد أما بالنسبة له فإن قيامه ببذل جهد كأي شخص عادي مثل «توم» أو «دك» أو «هاري» سيعني إقراراً بأنه لا يمثل العقل الفذ وسيكون ذلك مدعاة للازدراء تماماً. ولأنه لا يمكن أن يحقق أي شيء فعلاً دون جهد فسيهزم بموقفه هذا ذات الأهداف التي يُساق من أجل الفوز بها. فتتسع الهوة بين صورته المثلى وصورته الحقيقية.

إنه يعتمد على التطمين المتواصل من الآخرين الذي يجيء بهيئة استحسان أو إعجاب أو رياء، ولكن ليس بوسع أي منها، على كل حال، أن يوفر له أكثر من ارتياح مؤقت وهو لا شعورياً قد يمقت كل من يتصف بكونه أكثر تحملاً أو من يتصف بأية طريقة بكونه أفضل منه أو أكثر ثقة أو أكثر اتزاناً أو أكثر اطلاعاً، لأنه يهدد بتقويض انطباعاته الشخصية عن ذاته؛ وكلما تشبث بقوة في الاعتقاد بأنه صورة ذاته المثلى كلما كان الحقد لديه أشدّ عنفاً. وإذا حدث أن قمع غروره الخاص بذاته حينها قد يعجب دون روية بأشخاص يقتنعون صراحة بأهميتهم، وسيظهر ذلك بسلوك متعجرف. إنه يجب فيهم صورته الخاصة لكنه سيحابه بخيبة أمل شديدة لا محالة حالما يصبح على وعي وذلك يحدث في وقت ما. إن الآلهة التي يعجب بها كثيراً لا تبالي إلا بنفسها فحسب ولا تهتم إلا بالبخور الذي يحرقه في محرابها.

ربما كان أسوأ عائق هو الاغتراب عن الذات الذي ينتج عن الصورة المثلى. فنحن لا نستطيع أن نكبح أو نلغي أجزاء حيوية من أنفسنا دون أن نصبح غريبين عنها. إن هذه هي إحدى التغييرات التي تحدثها العمليات العُصابية تدريجيًا، بحيث أنها تحدث بصورة غير ملحوظة، رغمًا عن طبيعتها الجوهرية، فيمسي المرء غافلاً عما يحس به وما يحبه أو ما يرفضه أو يعتقد به، أي باختصار غافلاً عما عليه فعله. وقد يحيا حياة صورته دون وعي منه. إن شخصية «تومي» في قصة جي أم. باري الموسومة تومي دكريزل تلقي ضوءًا على هذه العملية أفضل من أي وصف سريري. بالطبع ليس بوسعنا أن نتصرف دون أن نؤثر بصورة لا خلاص منها داخل شرك عنكبوتي من الادعاء والمنطق اللاواعي والذي يؤدي إلى حياة مخوفة بالمخاطر.

عندها يفقد الشخص اهتمامه بالحياة لأنه ليس هو الذي يحيها فلا يستطيع اتخاذ القرارات لجهله ما يريد فعلاً، وإذا ازدادت المصاعب فقد يطغى عليه إحساس بعدم الواقعية، تعبيرًا عن وضعه المستمر في كونه غير واقعي بالنسبة لذاته. كي نفهم مثل هذه الحالة يجب أن ندرك أن من المهم أن يعتمد قناع اللاواقعية التي تخلق العالمين الداخلي والخارجي. لقد لخص أحد المرضى الحال برمتها بالقول: «لو لم يكن الأمر يرتبط بالواقع لكنت الآن على خير ما يرام».

ختامًا، رغمًا عن أن الصورة المثلى كانت قد خلقت بهدف إزالة الصراع الأساس، وهي تنجح إلى حد ما في ذلك، فإنها تولد

في الوقت نفسه صدعًا جديدًا في الشخصية أشد خطرًا تقريبًا من الصدع الأصلي. عمومًا يكون المرء صورة مثلى عن نفسه لأنه لا يستطيع أن يحتمل نفسه كما هي في الواقع. فالصورة كما يبدو تقف ضد هذه الكارثة بسبب نظرتة إلى نفسه على أساس معين فهو لا يتحمل نفسه إلا قليلاً. إذ يبدأ بثورة غضب عارمة ضدها بازدرائها واقعًا تحت نير مطالبه الخاصة التي لا يمكن تحقيقها. ثم يتراوح بعد ذلك بين عبادة الذات واحتقار الذات أي بين صورته وصورته المحترقة دون أن تتوفر هناك أرض وسيطة يستطيع الثبات عليها.

هكذا يخلق صراع جديد بين الجهود القهرية المتناقضة من جهة وبين نوع من الديكتاتورية الذاتية المفروضة بواسطة الاضطرابات الباطنية. ويكون رد الفعل تجاه هذه الديكتاتورية الذاتية شبيهًا برد فعل شخص ما تجاه ديكتاتورية سياسة مماثلة تمامًا. فقد يتعاطف معها أي يشعر بأنه رائع ومثالي فيصفه بالديكتاتور أو قد يقف على أطراف أصابع قدميه في محاولة ليكون بمستوى متطلباتها أو قد يعلن العصيان ضد الإكراه ويرفض الاعتراف بالالتزامات المفروضة قسرًا. فإذا كان رد فعله بالطريقة الأولى فسندرك بأنه شخص «نرجسي»، لا ينال منه النقد لذلك فالصدع القائم لا يتم الإحساس به على أنه صدع بصورة واعية. لدينا في المثال الثاني شخص ينزع إلى الكمال من صنف الـ «أنا» العليا لدى فرويد. ويبدو الشخص في المثال الثالث لا يعير اعتبارا لأي فرد أو لأي شيء وهو يميل

إلى كونه سريع الانفعال، متهورًا وسليبيًا، إنني أتحدث بروية عن الانطباعات والمظاهر لأنه مهما كان رد فعله فهو أساسًا سيواصل كونه مقاومًا. وحتى النمط الثائر الذي يعتقد بأنه «حر» عادة، فإنه يزرع تحت عبء القيم المفروضة والتي يحاول الآن الإطاحة بها رغمًا عن كونه لا يزال أسيرًا في قبضة صورته المثلى والتي تظهر فقط من خلال تذكيره بتلك القيم كسوط يرفعه فوق رؤوس الآخرين. أحيانًا، يمر أحد الأشخاص بفترات من التذبذب وكأنه واقع بين طرفي نقيض. ربما حاول بعض الوقت أن يكون «خيرًا» مثلاً بصورة ترقى عن قدرة البشر، ونتيجة فشله في الحصول على أية سلوى من جراء ذلك قد ينقلب إلى الطرف المضاد المتميز بالعصيان الشديد. على مثل هذه المقاييس. أو ربما ينتقل من عبادة ذاتٍ تتصف ظاهريًا بعدم التحفظ إلى نزعة نحو الكمال. نجد في الغالب خليطًا من هذه المواقف المتنوعة. وتشير جميعها إلى حقيقة يمكن فهمها في ضوء نظريتنا. إن أيًا من هذه المحاولات لا يفيد، فهي محكومٌ عليها جميعًا بالفشل، وإننا يجب أن نعتبرها جهودًا للخروج من مأزق لا يطاق؛ وقد تجرّب أشدّ الوسائل تضاربًا كما هو الأمر في أية حال أخرى لا تطاق، فإن فشلت إحدهما فقد يلجأ إلى الأخرى.

تنضمُّ كل هذه المحصلات مع بعضها لتقيم حاجزًا ضخماً ضد التطور الصحيح. وليس بإمكان الشخص أن يتعظ من أخطائه لأنه لا يراها. وهو يتجه في الواقع نحو فقدان الاهتمام بنموه الذاتي رغمًا

عن تأكيداتة على عكس ذلك. إن ما يضطرم في ذهنه حينما يتحدث عن النمو هو فكرة غير شعورية لإيجاد صورة مثلى أكثر كمالاً، صورة ستكون خالية من المثالب.

لذلك، تتمثل مهمة العلاج النفسي في اطلاع المريض على صورته المثلى بكل تفصيلاتها بغية معاونته تدريجاً على فهم كل وظائفها وقيمها الذاتية ومن أجل شرح ما تتضمنه من معاناة لا مفر منها. بعد ذلك سيبدأ بالتساؤل عن ذلك الثمن الباهظ جداً. غير أن بوسعه أن يتخلى عن الصورة فقط حينما تضعف الحاجات التي خلقتها بشكل كبير.

الفصل السابع

التخريب

كنا قد شاهدنا كيف أن جميع الادعاءات التي يلجأ إليها الشخص العُصابي كي يردم الفجوة الكائنة بين ذاته الحقيقية وصورته المثلى تقوده في النهاية إلى اتساع تلك الفجوة. لكنه بسبب احتفاظ الصورة بمثل تلك الأهمية الهائلة عليه أن يواصل محاولته في مهادنتها بصورة مطّردة. إن الطرق التي يسلكها من أجل ذلك متنوعة جدًا. وسيناقش الكثير منها في الفصل القادم. أما هنا فسوف نقتصر على البحث في إحداها وهي أقل انتشارًا من الأخريات وعلى التأثير الذي تتركه على بنية مرض العُصاب الحاد بشكل خاص.

حينما أُسْمِي هذه المحاولة بالتخريب فإنني أعرف الميل إلى تجريب العمليات الباطنية كما لو أنها حدثت خارج ذات المرء واعتبار تلك

العوامل الخارجية مسؤولة عن مصاعب المرء. إن عملية التخريج هذه تشترك مع الفكرة المثالية في هدف الهروب من الذات الحقيقية. بينما تظل عملية التزويق وإعادة خلق الشخصية الحقيقية كما لو كانت ضمن دخيلة النفس. إن التخريج يعني هجر منطقة الذات تمامًا. لكي نعبر عن ذلك ببساطة فإن الشخص قادر أن يتحول من صراعه الأساس إلى صورته المثلى، غير أنه عندما ترتقي الفروق بين الذات الحقيقية والذات المثلى إلى نقطة تكون فيها التوترات غير قابلة للاحتمال فلن يكون بوسع حينئذ اللجوء لأي شيء آخر. والأمر الوحيد الذي يبقى حينئذ هو أن يتهرب المرء من ذاته كلياً وأن يرى كل شيء كما لو أنه كائن خارجها.

إن بعضاً من الظواهر التي تحدث هنا يمكن تسميتها بتعبير الإسقاط المرحلي الذي يعني تجسيد المصاعب الشخصية. يعني الإسقاط كما هو مستخدم بصورة شائعة إلقاء اللوم والمسؤولية على شخص آخر يتعلق بالصفات والنزعات المرفوضة شخصياً مثل الارتباب في الآخرين ببعض ما لدى الأفراد من الميول الشخصية كالخيانة أو الطموح أو التسلط أو العصمة الذاتية عن الخطأ أو الاعتدال أو غيرها من الصفات، عندئذ يكون التعبير مقبولاً تماماً ضمن هذا المعنى. إن التخريج ظاهرة شمولية وانتقال المسؤولية هو مجرد جزء منها. إذ لا تُنسب أخطاء المرء للآخرين فقط بل تنسب إلى حد ما إلى كل المشاعر مهما كانت درجتها. قد يشعر الشخص الذي

يميل إلى التخريج بقلق عميق بسبب الاضطهاد الذي تتعرض له الأقطار الصغيرة بينما هو لا يعي مدى إحساسه هو بالاضطهاد. وربما لا يحس بقنوطه الشخصي لكنه سيشعر به انفعاليًا لدى الآخرين. إن ما يشكل أهمية استثنائية في هذا المجال هو أنه غير واع بمواقفه الشخصية تجاه ذاته، فهو سيشعر مثلاً وكأن شخصاً آخر غاضبٌ منه حينما يشعر هو بالغضب من نفسه. أو أنه سيعس بالغضب تجاه الآخرين والذي يوجهه في الواقع نحو ذاته. إضافة لذلك فلن يعزو اضطراباته فحسب بل أمزجته ومنجزاته الجيدة إلى عوامل أخرى خارجية. بينما سينظر إلى إخفاقاته على أنه قدر مكتوب وسوف تعزى نجاحاته لظروف مواتية كما سيعزو ابتهاجه هذا للطقس، وهكذا.

عندما يحس أحد الأشخاص بأن حياته خيرًا كانت أم شرًا تتحدد من قبل الآخرين، فمن المنطقي أن ينهمك تمامًا في تغييرهم وإصلاحهم أو معاقبتهم أو حماية نفسه من تطفلهم أو التأثير عليهم. بهذه الطريقة يمهد تخريجه هذا للاتكال على الآخرين اتكالاً مغايراً جداً لذلك الذي خلقته الحاجة العصبية للحنو. كذلك يمهد للاعتماد المفرط على الظروف الخارجية. وذلك لا يعني أية أهمية استثنائية إذا كان الشخص وسط المدينة أو في الضواحي وإذا كان يحافظ على هذه الحمية أو تلك وإذا كان يذهب إلى النوم مبكرًا أو متأخرًا وإذا كان يعمل ضد هذه الهيئة أو تلك. وهكذا يتصف بمميزات يدعوها يونغ

بالانبساط. وإذا اعتبر يونغ الانبساط على أنه تطور من جانب واحد يتعلق بنزعات موروثه بنيويًا فإنني أعتبرها حصيلة لمحاولة القضاء على الصراعات غير المصرّفة عن طريق التخريج.

إن إحدى النتائج المحتومة الأخرى للتخريج هي الإحساس الطاحن بالفراغ والضحالة.

وهذا الإحساس لا يوضع في موضعه الملائم. فبدلاً من أي يكون الإحساس بالفراغ العاطفي بصفته الواضحة، يُحسُّ به الشخص على أنه خواء في معدته ويحاول أن يتخلص منه بإجبار نفسه على الأكل. أو ربما يخشى أن فقدانه لثقل وزنه الجسدي قد يدفعه ليصبح «ريشةً في مهب الريح» فيشعر أن أية عاصفة قد تطوَّح به بعيداً، وربما يتصور أنه مجرد قشرة خاوية. وكلما كان التخريج أكثر تغلغلاً خيلاً للشخص العُصابي أنه صبار مثل طيفٍ قابلٍ للانجراف مع التيار.

يكفينا هذا القدر مما تعنيه هذه العملية ودعنا نتفهم الآن كيف تعمل هذه بشكل خاص على تهدئة التوتر بين الذات والصورة المثلى. وكيفما نظر الشخص إلى ذاته شعورياً فإن التباين بين الصورتين سيقضي ثمناً باهظاً لا شعورياً، وكلما كان الشخص قد نجح في مطابقة نفسه مع الصورة ازداد ردُّ فعله اللاواعي عمقاً. ويعبر عن هذا في الغالب بصورة احتقار للذات أو إثارة غضب عارم ضد الذات أو شعور بالإكراه وهذه لا تكون جميعاً مؤلمة بشدة فحسب بل هي تُحْدُ أيضاً من قابلية الشخص على أن يحيا بمختلف الطرق.

قد يتخذ تخريج احتقار الذات صورة ازدراء الآخرين أو الإحساس أن الآخرين هم الذين يزدرون الشخص. تتوفر كلتا الصورتين عادةً، وأيهما يكون أكثر بروزًا أو على الأقل أكثر وعيًا يعتمد ذلك على التركيب الكامل لبنية الشخصية العُصابية برمتها. وكلما كان الشخص أكثر عدوانًا شعر بأنه أكثر تفوقًا وأكثر صوابًا وصار أكثر استعدادًا لاحتقار الآخرين وبالتالي كان الاحتمال أقل في تصويره أن الآخرين قد يتعالون عليه. وعلى عكس ذلك، فكلما كان أكثر مطاوعة كانت اتهاماته لذاته من جراء فشله في الصعود إلى مستوى صورته المثلى أكثر ميلًا لإشعاره بأن الآخرين لا يحتاجون إليه. إن تأثير الفكرة الأخيرة مؤيد لدرجة شديدة. فهو يحيل الشخص خجولًا ومتكلفًا ومنعزلًا، شاعرًا بالامتنان وربما بشيء من الإذلال تجاه أي نوع للحنان أو التقدير. في الوقت عينه ليس بوسعه أن يتقبل حتى المودة الخالصة بصفقتها المجردة بل يعتبرها نوعًا من البر الذي لا يستحقه. فقد يستحيل إلى شخص مجرد من الحماية ضد الأشخاص المتعجرفين لاضطراره لمسايرته جزءًا منهم، كما يشعر أن معاملتهم باحتقار له هي في محلها تمامًا. لا شك أن ردود فعل كهذه تولد غيظًا وإذا كبتت وتراكت فقد يستجمع قوة متفجرة.

مع كل هذا فقد تمتلك تجربة احتقار الذات بصورتها التخريبية أهمية شخصية جلية. فقد يحطم الشخص العُصابي ما عنده من الثقة الضئيلة بالنفس، ويقترّب من حافة الانهيار لو شعر بجميع

ما يخرزنا من احتقار ذاتي. من المؤلم حقاً أن يكون المرء محقرًا من قبل الآخرين المتحيزين. حينها يوجه المرء احتقاره نحو ذاته، فإن كل تلك الدفاعات لا تجدي نفعًا، فليست هناك محكمة استئناف فالقنوط الذي يحس به الشخص العصابي سيبرز لا شعوريًا نحو ذاته بصورة مجسدة ولن يبدأ باحتقار مواضع ضعفه الحقيقية فحسب، بل سيجد الشعور بأنه محقر بصورة عامة. لهذا السبب ستنجرف مميزاته الجيدة ذاتها نحو هاوية إحساسه بانحطاط الشأن، وبعبارة أخرى سيشعر باحتقار الذات وسيراهها حقيقة ثابتة لن تتغير مطلقًا. هذا يؤشر إلى تأجيل الخوض في مسألة احتقار الذات أثناء عملية العلاج حتى يتضاءل فيه قنوط المريض وترتخي قبضة الصورة المثلى المسككة بخناقه بشدة. عندئذ سيكون المريض قادرًا على مواجهتها مدرّكًا أن ضالة قيمته ليست حقيقة موضوعية بل إحساس ذاتي ينبع من معايير القاسية. سيرى عند اتخاذه موقفًا أكثر تساهلاً مع نفسه، بأن الحال ليست أمرًا لا يقبل التغيير وأن الصفات التي يعترض عليها بشدة ليست جديرة بالازدراء بل هي مصاعب يستطيع تذليلها في النهاية.

لن نفهم إحساس الشخص العصابي بالغيظ من نفسه أو الأبعاد التي يتقمصها ما لم نحفظ في أذهاننا كم هو مهم بالنسبة له أن يظل واهمًا في تصوّره أن ذاته هي المثالية. إن الحقيقة في كونه لا يحس بالقنوط بسبب عجزه عن الارتقاء إلى مستواها فحسب بل في كونه

ساخطاً عليها، يرجع إلى إحساسه بالقدرة الكلية التي تكوّن له ميزة ثابتة من مميزات صورته المثالية. ومهما كانت الظروف المعاكسة له قوية لا تقهر أثناء مرحلة الطفولة فإنه، وهو المقتدر كلياً، ينبغي أن يتغلب عليها. وحتى لو أدرك ذهنياً بأن عقده العُصابية شديدة التشابك فهو مع ذلك يشعر بغيظ مكظوم بسبب عدم قدرته على إزالة ملابساتها. يصل هذا الغيظ إلى ذروته عندما يواجه المريض الدوافع المتصارعة مدرّكاً ضعفه وتراجعته في تحقيق غاياته المتناقضة. إن هذا هو أحد الأسباب التي تفسر لماذا يلقي به إدراكه المفاجئ لأي من الصراعات في حال شديدة من الهلع.

يُحَرِّجُ غيظ المرء من ذاته بطرق رئيسة ثلاث. فحين يكون التنفيس عن العدوان ظاهراً ينفجر الغضب حينئذٍ بسهولة مندفعاً نحو الخارج ضد الآخرين ويظهر إما بهيئة حدة في الطبع عموماً أو سخط موجه لتلك العيوب نفسها لدى الآخرين والتي يمقتها الشخص في ذاته. أحد هذه الأمثلة يُساقُ لإجلاء الفكرة. حيث اشتكت إحدى المريضات تردد زوجها بسبب أمر تافه وكان حماسها واضحاً وشديداً. بعد الاطلاع على تردها الشخصي أفهمتها كيف أنها أدانت في ذاتها هذا التردد. عندئذٍ شعرت المريضة فجأة بغيظ جنوني وبرغبة في تمزيق نفسها إرباً إرباً. إن حقيقة كونها تمثل في صورتها المثلى قلعة للقوة، جعل من المستحيل عليها أن تتحمل أي ضعف في ذاتها. بوضوح كان رد الفعل هذا، وبالرغم من طبيعتها الانفعالية العنيفة فقد نُسي

كليًا في المقابلة التالية. كانت قد شاهدت التخريج بلمح البصر لكنها لما نزل على استعداد للتخلي عنه.

تتخذ الطريقة الثانية صورة خوف أو تحسب مستمر، واع أو لا واع، بأن العيوب التي لا يتحملها المرء نفسه ستثير بشدة غيظ الآخرين. فقد يكون أحد الأشخاص مقتنعًا تمامًا بأن سلوكًا محددًا من جانبه سيثير عدوانًا قويًا بحيث أنه قد يذهل حقًا إذا لم يواجه بأية استجابة عدوانية. كانت إحدى المريضات على سبيل المثال ومن احتوت صورتها المثلى عناصر من التوق الشديد إلى أن تصبح صالحة مثلما كانت صورة القس تصاب في رواية فيكتور هيجو البائسون لأنها تجد أنها متى ما وقفت موقفًا حازمًا أو عندما كانت تعبر عن غضبها فإن الناس كانوا يجوبونها أكثر مما أحبوها عندما تصرفت كقديسة. وكما قد يحدث للمرء عبر هذا النمط من الصورة المثلى فإن نزعة المريضة المتسلطة كانت المطاوعة. وبسبب انبثاقها من حاجتها للألفة مع الآخرين فقد كانت نزعتها تستمد قوة إضافية من توقعها للاستجابة العدوانية. تؤلف المطاوعة المتزايدة في الحقيقة إحدى المحصلات الرئيسة لهذا النمط من التخريج، كما تفسّر لنا كيف تعزز النزعات العصبية مع بعضها بصورة مستمرة ضمن حلقة مفرغة. فتتصاعد المطاوعة القسرية لأن الصورة المثلى التي تتضمن عناصر بهذه الهيئة تدفع الشخص نحو أكبر قدر من محو الذات. لذلك تثير الاندفاعات العدوانية غيظًا ضد الذات. ثم

إن تخريج الغيظ الذي يؤدي إلى خوف متصاعد من الآخرين، يُعزز هذه المطاوعة بدوره.

تمثل الطريقة الثالثة في تخريج الغيظ في التركيز على الاضطرابات العضوية، فحينما لا يجرب الغيظ ضد الذات بصفته تلك فإنه يخلق توترات عضوية ذات شدة لا يستهان بها قد تظهر كأعراض معوية أو صداع أو إرهاق وهكذا. ومما يؤكد ذلك رؤيتنا اختفاء جميع هذه الأعراض بسرعة البرق حالما يستثار الإحساس بالغيظ ذاته بصورة شعورية. وقد يشعر المرء بالتردد حول تسمية هذه الظواهر العضوية بالتخريج أو اعتبارها مجرد نتائج عضوية تبرز في أعقاب الغيظ المكبوت. غير أنه قلما يستطيع المرء أن يفصل الظواهر عن الاستخدام الذي يبتغيه المرضى من خلالها. وكشيء أساس يكون هؤلاء أكثر توفًا لأن ينسبوا معضلاتهم النفسية إلى عللهم العضوية وهذه بدورها تعزى لبعض المثيرات الخارجية. وهم مولعون بالبرهنة لانتقاء علة عضوية فيهم وبأنهم يعانون من مجرد مشاكل معوية بسبب نظام غذائي خاطئ أو بسبب الإرهاق من شدة الانهك في العمل أو لمرض الروماتيزم الناجم من رطوبة الهواء وغيرها من الأسباب.

قد يقال هنا بشأن ما يحققه الشخص العصابي في تخريجه لغيظه الشيء نفسه الذي قيل في حالة احتقار الذات. هناك اعتبار إضافي واحد ينبغي أن يذكر وهو أن الجهود التي يبذلها مثل هؤلاء المرضى لن تكون مفهومة تمامًا ما لم يكن المرء مطلعًا على المسار الحقيقي

الذي يرتبط باندفعات تدمير الذات. لقد كان لدى المريضة التي نوّهنّا عنها في المثال الأول اندفاع مؤقت فقط في تمزيق نفسها إربًا، غير أن مرضى الذّهان قد ينفذون ذلك فعلاً وربّما يمثلون بأنفسهم. كما أن من المحتمل تنفيذ عدد أكبر من حوادث الانتحار لو لم يكن التخريج سبباً في منعها. وهذا يدعونا إلى تفهم السبب الذي دعا فرويد لكونه على اطلاع بقوة اندفاعات تدمير الذات إلى افتراض وجود غريزة تدمير الذات أو ما يسمى (غريزة الموت)، رغم أنه حجب الطريق بذلك إلى التفهم الحقيقي بالتالي إلى العلاج النفسي الفعال بهذه الفكرة.

تعتمد شدة الإحساس بالإكراه الباطني على المدى الذي تحاصر فيه الشخصية من قبل السيطرة المستبدة للصورة المثلى. قد يكون من العسير أن نبالغ في الإحاطة بمقدار هذا الضغط.

إنه أسوأ من أي إكراه خارجي لأن الأخير يسمح بكبح جماح الحرية الذاتية. ويكون المرضى في أغلب الأحوال على غير وعي بهذا الشعور ولكن بوسع المرء قياس قوته من خلال ارتياحهم حالما يزول عنهم ليحصلوا على قدر من الحرية الذاتية. قد يخرج الإكراه من خلال فرض الضغوط على الآخرين. وبوسع هذا أن يتخذ نفس التأثير الخارجي كتوق عُصابي نحو التسلط، غير أنه رغمًا عن وجود كليهما معًا فإنهما يختلفان في كون الإكراه الذي يمثل تخريجًا للضغط الباطني لا يمثل في الأساس مطلبًا من مطالب الطاعة الشخصية.

فهو يكمن بالدرجة الأولى في فرض المقاييس ذاتها على الآخرين، كتلك التي يرزح الشخص نفسه تحت وطأتها وبالإغفال لنفسه في سبيل سعادتهم. يمثل علم النفس الصوفي شرحًا وافيًا لهذه العملية.

و بالدرجة ذاتها من الأهمية يكون تخريج الإكراه الباطني هذا في هيئة تحسس مفرط تجاه أي شيء في العالم الخارجي حتى لو كان الأمر قليل الشبه بالإكراه. وكما يعلم أي شخص دقيق الملاحظة فإن مثل هذا التحسس المفرط واسع الانتشار. لا تنبثق جميع أنواع التحسس المفرط عن الإكراه المفروض ذاتيًا. ففي الحقيقة يتوفر هناك عنصر من عناصر معاناة الفرد لدافع التسلط الخاص به والامتعاض منه. وفيما يتعلق بالشخصيات المنعزلة أساسًا بالإصرار القسري على الاستقلال الذي يصيرها حساسة بالضرورة لأي ضغط خارجي. إن تخريج أي كبت لا واع مفروض ذاتيًا يكون مصدرًا من المصادر الخفية بشكل كبير والتي تهمل بشكل أكبر أثناء تحليل النفس. هذا أمر مؤسف لأنه يشكل في الغالب تيارًا عميقًا ومؤثرًا في العلاقة بين المريض والمحلل. من المحتمل أن يواصل المريض دحض كل اقتراح يقدمه المحلل حتى بعد إتمام التحليل لأسباب حساسيته الأكثر وضوحًا والمرتبطة بهذا الشأن. إن المعركة المدمرة المحتدمة في هذا المضمار تكون شديدة القسوة لأن المحلل يرغب حقًا أن يحدث تغييرات في المريض. كما أن تأكيده الأمين في رغبته لمساعدة المريض في استعادة ذاته لينابيع حياته الباطنية تكون قليلة الجدوى.

ألا يستسلم المريض عندها لشيء من التأثير الذي يبذل بصورة عفوية؟

تتمثل الحقيقة في أنه يجهل «ما هو عليه فعلاً» لذلك لا يكون بوسعه اختيار ما يقبله أو ما يرفضه ولن يؤدي أي مقدار من الحرص من جانب المحلل لأي تغيير. ولأنه لا يعلم بأنه ينوء تحت إكراه باطني كان قد صاغه في قالب معين فإنه قد يثور بصورة عشوائية ضد كل فكرة خارجية للتغيير. ولا حاجة للقول إن هذه المعركة غير المجدية لا تظهر في موقف تحليل النفس فحسب بل من المحتم أن تحدث بدرجة أكبر أو أقل في أية علاقة حميمة. إن تحليل هذه العملية الباطنية هو الذي سيجسد الشبح ويظهره للعيان في النهاية.

و كلما كان الشخص أميل إلى مطاوعة الحاجات الملحة لصورته المثالية كان أكثر تخريباً لهذه المطاوعة. وسيكون تواقاً لبلوغ ما يتوقعه منه المحلل أو أي فرد - بقدر ما يتعلق الأمر بهذا - أو لما يظن أنهم يتوقعونه منه. وربما يبدو سهل الانقياد أو ساذجاً لكنه في الوقت ذاته سوف يتضاعف الامتعاض الخفي ضد هذا «الإكراه». وربما توصله المحصلة في النهاية إلى النظر إلى كل شخص باعتباره ذا دور متسلط ليكون ساخطاً على كل شيء في الكون.

ماذا يكسب الشخص إذاً من جراء تخريبه لضغوطه الباطنية؟ طالما اعتقد أنها تتأتى من الخارج فإنه يستطيع أن يثور ضدها حتى لو كان ذلك عن طريق التحفظ الذهني. وبشكل مماثل يمكنه أن

يتجنب التقييد المفروض عليه من الخارج ويمكن أن يحافظ على وهم الحرية.

غير أن ما هو أهم من ذلك العامل الذي أشير إليه آنفاً أي أنّ الاعتراف بالإكراه الباطني قد يعني الاعتراف بأنه لا يمثل صورته المثلى بكل ما تتضمنه من نتائج.

و من المسائل المثيرة للاهتمام ما يثيره الإجهاد الشديد الذي يسببه هذا الإكراه الباطني الذي يتحول إلى صورة أعراض مرضية عضوية. إن انطباعي الشخصي هو أنه عامل مساهم في أمراض الربو وارتفاع ضغط الدم وإصابة الأمعاء بالإمساك، ولكن خبرتي في هذا المجال تبدو محدودة.

بقي لنا أن نناقش ملامح التخريج المتنوعة التي تتناقض مع صورة المرء المثلى. يتحقق هذا بواسطة الإسقاط البسيط أي برؤية ذلك لدى الآخرين أو بالاعتقاد أنهم مسؤولون عنها.

ليس من الضروري أن تسير العمليات معاً. ويتعين علينا في الأمثلة اللاحقة أن نكرر أشياء معينة سبق أن ذكرناها بهذا الصدد إضافة إلى الأمور المعروفة الأخرى بشكل عام لكن الأمثلة سوف تعيننا على الوصول إلى فهم أعمق لما يعنيه الإسقاط.

كان المريض «أ» المدمن على الكحول يشكو الإهمال من خليلته. وعندما استطعت رؤيته لم تكن الشكوى مبررة ولم تقترب من حالة

كان «أ» يعنيها حقًا. فهو ذاته كان يعاني من صراع شديد واضح لمراقب خارجي في كونه دمث وطيب المعشر وكريم من جهة ومتسلط كثير المطالب ومتعجرف من جهة أخرى. هنا إذا كانت حالة إسقاط لنزعات عدوانية. لكن ما الذي جعل الإسقاط ضروريًا؟ لقد كانت الميول العدوانية في صورتها المثلى مكونات طبيعية في شخصية قوية. كانت الطيبة أشد الملامح بروزًا ولم يكن من هو أكثر طيبة منه منذ أيام القديس فرانسيس كما لم يكن هناك من يمثله كصديق مثالي. إذا هل كان الإسقاط مجرد تهدئة لصورته المثلى؟

بالتأكيد! لكن أتيح له العيش من خلال نزعاته العدوانية دون أن يكون على وعي بذلك فهو يواجه صراعاته. لدينا هنا شخص أسير مأزق شائك. إذ لم يكن بوسعها أن يُقلع عن نزعاته العدوانية لكونها ذات طبيعة قسرية كما لم يكن بوسعها أن يتخلى عن صورتها المثلى لكونها سبب تماسكه. كان الإسقاط وسيلة للخروج من المعضلة. وهكذا كان الإسقاط يمثل إزدواجية غير واعية تمكنه من تطمين كل طلباته الملحة مع البقاء في الوقت ذاته كصديق مثالي.

كان المريض يرتاب أيضًا في خيانة المرأة. لم يكن هناك أي دليل يؤيد ذلك كانت المرأة تكرر نفسها لرعايته بطريقة تماثل حنو الأم. كانت الحقيقة تتمثل في أنه هو نفسه كان منغمسًا ببعض الصلات العابرة التي احتفظ بها في سرّه. قد يفكر المرء بوجود خوف انتقامي ناتج عن حكمه على الآخرين عندما يقارنهم مع نفسه لذا كان

بحاجة لالتماس العذر لنفسه. كما أن التفكير في إسقاط محتمل بسبب ميول جنسية شاذة لم يساعد على جلاء الموقف. كان مفتاح الحل يكمن في موقفه الخاص تجاه خيانتة هو بالذات. لم ينس علاقاته الجنسية، لكنها لم تذكر أثناء تداعي الأحداث. فهي لم تعد تجارب حية بينما كانت الخيانة المزعومة للمرأة تبدو جلية جدًا. إذًا كان هناك تخريج للتجربة وكانت وظيفته هنا تماثل الوظيفة في المثال السابق حيث أمكن للمريض بأن يحتفظ بصورته المثلى وأن يفعل ما يشاء.

ربما تنفع سياسات القوة كما تمارس بين التكتلات السياسية والمهنية كمثال آخر. إذ غالبًا ما تكون مثل هذه المناورات مدفوعة عن نية واعية بهدف إضعاف أحد المنافسين وتحصين موقع المرء الخاص. لكنها قد تنبع أيضًا عن معضلة لا شعورية تشبه تلك التي قدمت آنفًا. في تلك الحال تمثل تعبيرًا عن ازدواجية لا واعية قد تسمح للمرء بالمكائد والتحركات ذات الصلة بهذا النوع من الهجوم دون تشويه الصورة المثلى بينما تتيح في الوقت ذاته وسيلة ممتازة في صب جام غضب المرء واحتقاره لذاته على شخص آخر أو على شخص يرغب في هزيمته بالدرجة الأولى.

سأختتم الموضوع بالإشارة إلى طريقة شائعة قد تلقي التبعة من خلالها على الآخرين دون تطويقهم بمصاعب المرء الشخصية. حالما يتعرف كثير من المرضى على بعض مشاكلهم يقفزون فورًا إلى مرحلة طفولتهم لينسبوا إليها كل شيء فيذكرون أنهم مرهفو

الإحساس تجاه الإكراه بسبب تسلط أمهاتهم. وأنهم مثار الاحتقار لأنهم ذاقوا الإهانات في طفولتهم، وأن قلوبهم مملوءة حقداً بسبب جراحاتهم في الأيام الخوالي، وكانوا منطوين لأنهم لم يقابلوا من يفهمهم حينما كانوا في مرحلة الشباب. وكانوا يعانون كتباً جنسياً بسبب تربيتهم على الطهر والبراءة، وهكذا. إنني لا أشير هنا إلى الجلسات التي ينهمك فيها كل من المحلل والمريض في فهم المؤثرات المبكرة بل إلى مجرد توق شديد في سبر أغوار مرحلة الطفولة التي لا تؤدي لشيء غير التكرار المتواصل والمصحوب بعدم الاهتمام في اكتشاف القوى الفاعلة في باطن المريض حالياً.

و بقدر ما يسند فرويد هذا الموقف من خلال تأكيده البالغ على الوراثة، دعنا نتفحص بعناية مدى استناده إلى الحقيقة تارة وإلى الخيال تارة أخرى. إنه لأمر صحيح أن يكون تطور المريض عُصابياً والذي كان قد بدأ أثناء الطفولة وكل ما لدينا من معلومات يشير إلى نوع التطور المحدود الذي كان قد حدث حينذاك. كما أنه لأمر صحيح أن يكون المريض غير مسؤول عن عُصابه. فلقد كان تأثير الظروف عليه قاسياً بحيث أنه عجز عن الصمود أمامها. ولأسباب ستبحث فيما يلي يجب أن يوضح محلل النفس هذه النقطة تماماً.

يكمن الوهم في جهل المريض بكل القوى التي تكونت في باطنه ضمن مرحلة الطفولة. وهي القوى العاملة في ذاته حالياً والكامنة خلف المصاعب الحاضرة. كانت رؤيته لكثير من صور النفاق

حوله كطفل قد لعبت دورًا، على سبيل المثال، في جعله ساخرًا. ولكنه إذا أرجع سخريته هذه إلى خبرته المبكرة وحدها فإنه سوف يتجاهل حاجته الحاضرة لأن يكون ساخرًا. تلك الحاجة تنبثق عن كونه منقسمًا بين مثل مختلفة ويتعين عليه أن يقذف بجميع القيم إلى البحر في محاولة لحل ذلك الصراع. وفوق ذلك فهو يميل إلى تحمل المسؤولية إن لم يستطع ورفضها حينما ينبغي أن يتحملها. وهو يواصل الإشارة إلى الخبرات المبكرة ليؤكد لنفسه مجددًا أنه ليس بوسعه حقًا إلا أن تكون لديه بعض العيوب كما يحس في آن واحد أنه كان ينبغي له التخلص من محنه المبكرة دون أن يصاب بأذى كزنبقة بيضاء نقية تظهر خارج للعيان من مستنقع. إن صورته هي موضع اللوم قليلاً لأنها لا تتيح له أن يتقبل ذاته بأخطائها وفشلها في الماضي أو الحاضر. لكن ما هو أهم من ذلك هو عزفه على نعمة الطفولة منتحلًا نوعًا خاصًا للهروب من الذات والذي ما زال يتيح له أن يحتفظ بوهم الرغبة في التفحص لمعضلاته. وهو لا يشعر بالقوى العاملة في باطنه لأنه يقوم بتخريبها، كما أنه لا يتخيل نفسه كعامل فعّال في حياته الخاصة. ولأنه توقف عن كونه محرّكًا فعلاً فهو ظن نفسه مثل كرة إن قذفت مرة نحو منحدر التلّ فهي ستواصل التدحرج أو أنه شبيه بكبش فداء إن أُعدّ لشيء فسيواصل مسيرته كذلك إلى الأبد.

إن إصرار المريض على منحى واحد من مرحلة الطفولة يمثل تعبيرًا محددًا جدًا لميوله في التخريج بحيث أنني لو صادفت موقفًا

كهذا فسوف أتوقع أن أجد شخصًا مغتربًا كل الاغتراب عن ذاته،
ومن يواصل الانسياق مبتعدًا عن ذاته. وكنت وما زلت غير مخطئة
في هذا التوقع.

يظهر الميل إلى التخريج في الأحلام كذلك. فإذا ظهر المحلل في
أحلام المريض بصورة سَجَان وإذا أغلق الزوج بعنف أبوابًا تريد
المريضة أن تعبرها وإذا حدثت ثمة أحداث مؤسفة أو تدخلت
صعاب في بلوغ غاية مرغوبة كثيرًا فستكون هذه الأحلام محاولة في
إنكار الصراع الباطني وإحالة إلى بعض العوامل الخارجية.

يمثل المريض الذي يميل إلى التخريج بصورة عامة مصاعب
استثنائية عند التحليل. فهو يحضر للتحليل كما لو أنه يراجع طبيب
أسنان متوقعًا من المحلل أن يقوم بعمل لا يشارك فيه فعلاً. فهو يهتم
بُعْصَاب زوجته وصديقه وأخيه ولكن ليس بعُصَابِهِ هو شخصيًا.
إنه يتحدث عن الظروف الصعبة التي يعيشها وهو كاره في تمحيص
نصيبه فيها. فلو لم تكن زوجته مريضة العُصَاب الشديد أو لو لم يكن
عمله مقلقًا جدًا لكان بوسعه أن يغدو على ما يرام. ويمضي لفترة
طويلة دون أي إدراك مهما كان ضئيلًا في أن تكون هناك عوامل
عاطفية تفعل فعلها في ذاته نفسها. إنه يخاف الأشباح واللصوص
والزوابع الرعدية ويخشى الأشخاص الحقودين من حوله، غير أنه
لن يخاف من نفسه، وهو في أفضل حالاته يهتم بمعضلاته لغرض
التسلية الفنية أو الفكرية التي قد تقدمها له. ولكن طالما هو غير

متواجد نفسياً فهو عاجز لأن يدخل إلى ظلمات حياته الواقعية بأي بصيص من التبصر ولهذا السبب فهو لا يستطيع أن يتغير إلا قليلاً بالرغم من ثقته التامة بنفسه.

يمثل التخريج أساساً، لهذا السبب، عملية فعالة في إلغاء الذات. ويرجع السبب في إمكانية تطبيقها إلى الاغتراب عن الذات الموروث في العملية العُصابية على أية حال. من الطبيعي عند إلغاء الذات أن تزال الصراعات الباطنية من الوعي أيضاً. غير أنه بعد إحالة الشخص إلى إنسان ميّال إلى التأنيب والانتقام وتخويف الآخرين فهو يستبدل التخريج للصراعات الباطنية بصراعات خارجية. وبصورة أدق يزيد من تفاقم الصراع الذي دفع بالعملية العُصابية كلها نحو الاستفحال أي يتجه الصراع بين الفرد والعالم الخارجي.

الفصل الثامن

الوسائل الإضافية للتوافق المصطنع

من البديهي أن كذبة واحدة تقود إلى أخرى والثانية قد تتطلب كذبة ثالثة لإسنادها وهكذا حتى يقع المرء أسيرًا في شبك معقدة. ومن المحتمل أن يحدث شيء من هذا القبيل لأي موقف في حياة الفرد أو الجماعة حيثما يُفتقد التصميم على الغوص إلى جذور القضية. قد يكون في عملية الترقيع بعض الفائدة غير أنها ستولد مشاكل جديدة تستدعي بدورها بديلاً مؤقتاً جديداً. هكذا هي الحال مع المحاولات العصبائية في حل الصراع الأساس، وهنا مثلما هو في أي مكان آخر، لا شيء يعطي فائدة حقيقية غير تغيير جوهر في الظروف التي انبثقت عنها المشكلة الأصلية، ما يفعله الشخص العصابي بدلاً من ذلك وما لا يستطيع إلا أن يفعله، هو تكديس أشباه الحلول واحداً

فوق الآخر، ربما يحاول كما رأينا، أن يجعل من أحد أوجه الصراع وجهًا متسلطًا ويظل هو خائبًا كسابق عهده. وربما يلجأ إلى الوسيلة الجذرية في عزل نفسه كليًا عن الآخرين. غير أنه رغمًا عن إيقاف الصراع عن العمل فإن حياته ستوضع برمتها على قاعدة غير مكينة. فيختلق ذاتًا مثالية يبدو فيها منتصرًا ومنتاسكًا غير أنه يخلق صدعًا جديدًا في الوقت نفسه. ويحاول أن يتخلص من ذلك الصدع بإلغاء ذاته الباطنية عن ميدان النزال ليجد نفسه واقعًا في مأزق أكبر لا يطاق.

يتطلب مثل هذا التوازن الشديد القلق مزيدًا من الإجراءات بغية تدعيمه أيضًا. يتجه المريض بعد ذلك إلى أيّ من الوسائل اللاواعية التي قد تصنف كبقاع مظلمة مجزئًا إياها إلى أقسام أو فئات ومسوغًا ضبط النفس المفرط والحق التعسفي والمراوغة والسخرية. لن نحاول مناقشة هذه الظواهر بحد ذاتها فقد تكون تلك مهمة مركزة جدًا، لكننا سنبين فقط كيف أنها تستخدم فيما يتعلق بالصراعات.

يمكن أن يكون البون شاسعًا جدًا بين السلوك الواقعي للشخص العُصابي وصورته المثلى عن ذاته، حيث يعجب المرء كيف يجهل العُصابي حقيقة نفسه. ولكونه بعيدًا عن فعل ذلك فإن بوسعه أن يظل غير واقع للتناقض البين. كانت هذه البقعة المظلمة المتصلة بالتناقضات البارزة جدًا إحدى الحالات الأولى التي لفتت انتباهي لوجود وترباط الصراعات التي كنت قد وصفتها. فمثلاً، أخبرني

أحد المرضى بشكل عرضي، ممن اتصف بصفات النمط المطاوع وممن كان يظن نفسه طاهرًا كالمسيح، أنه غالبًا ما كان يودّ لو أطلق النار على زملائه الواحد بعد الآخر أثناء اجتماعات موظفي الإدارة ممثلًا ذلك بمجرد حركة صغيرة من إبهامه. حقًا إن التوق المدمر الذي أثار أعمال القتل المجازية هذه كان غير واع آنذاك ولكن القضية هنا هي أنّ إطلاق النار الذي وصفه بأنه «لعب» لم يُثر قلق صورته المتشبهة بالمسيح.

و كان أحد المرضى الآخرين عالمًا يظن نفسه مُكرسًا لعمله بجد ويعتبر نفسه مبتكرًا في حقل اختصاصه يقاد في اختياره لما ينبغي أن ينشره بدوافع انتهازية محضة ناشرًا تلك البحوث التي يشعر أنها ستقوده إلى شهرة أوسع فحسب. لم تكن هناك محاولة للتمويه، بل مجرد الغفلة الناتجة عن التناقض الذي يرتبط بالأمر. وبصورة مماثلة لم يأبه أحد الرجال المعروفين بالطيبة والاستقامة بما يستحوذ عليه من مال إحدى الفتيات ليبذره على فتاة أخرى.

من الجلي في كل من هذه الحالات أن وظيفة التعامي كانت تتمثل في حجب الصراعات الكامنة عن الوعي. وما يثير الحيرة هو المدى الذي كان ممكنًا فيه وما هو أكثر حيرة أن المرضى المشار إليهم لم يكونوا أذكىء فحسب بل على اطلاع تام بعلم النفس أيضًا. أما إذا قلنا بأننا جميعًا نميل إلى تجاهل ما لا نهتم برؤيته فهذا بالتأكيد تفسير لا يفي بالمرام. وينبغي أن نضيف أن الدرجة التي نمحوها الأشياء

تعتمد على مقدار اهتمامنا بإجراء ذلك. يرينا مثل هذا المحو المصطنع وبأسلوب مبسط للغاية كم هو عظيم هنا تمييز الصراعات. غير أن المعضلة الحقيقية هي كيف نستطيع التغاضي عن تناقضات بارزة جدًا كتلك التي كنا قد ذكرناها قبل قليل. في الحقيقة هناك ظروف خاصة إن لم تكن موجودة فسيكون ذلك من المستحيل حقًا. يتمثل أحدها في حذرٍ متطرف بخبرتنا العاطفية الخاصة. وقد سبق أن بيَّنا الآخر سترينكر ونعني بذلك ظاهرة الحياة في أقسام مستقلة، يتحدث سترينكر الذي يعطي تفسيرات عن البقاع المظلمة أيضًا، عن حُجرات محكمة وعن فصلٍ نوعي، فهناك حجرة للأصدقاء وأخرى للأعداء، واحدة للعائلة وأخرى للأغراب، واحدة للحياة المهنية وأخرى للحياة الشخصية، واحدة لمشابهننا في المستوى الاجتماعي وأخرى لمن هم أدنى مستوى. من هنا فإن ما يحدث في أحد الأقسام لا يبدو للشخص العُصابي متناقضًا مع ما يحدث في القسم الآخر. يمكن لأحد الأشخاص أن يجيأ بتلك الطريقة بسبب صراعاته حينها يكون قد فقد إحساسه بالوحدة. وبقدرٍ ما، تمثل التجزئة في أقسامٍ حصيلة تمزق المرء نتيجة لصراعاته فهي تمثل دفاعًا ضد الاعتراف بوجودها. هذه العملية تكون متشابهة مع تلك التي وضعت في قضية لإحدى الصور المثلى إذ تبقى التناقضات بينما تطرد الصراعات بعيدًا. إنَّ من الصعب القول إن كان هذا النوع من الصور مسؤولاً عن التجزئة في أقسام أو إن الأمر معكوس تمامًا. يبدو من المحتمل، أن إمكانية

العيش في حجرات صغيرة تصير هي الأمم وأنها قد تكون مسؤولة عن نوع الصورة المختلفة.

ولتقويم هذه الظاهرة يجب أن تؤخذ العوامل الحضارية بعين الاعتبار. كان الإنسان قد أصبح مجرد وتدٍ في نظام اجتماعي شديد التعقيد ذلك لأن الاغتراب عن الذات أصبح عالمياً تقريباً، كما أنّ القيم الإنسانية ذاتها قد انحطت وكتيجة للتناقضات البارزة في حضارتنا والتي لا تعد ولا تحصى حدث فيها تطور خدر عام يرتبط بالمشاعر الأخلاقية. إذ يُنظر إلى المعايير الخلقية بشكل عابر تماماً بحيث لا أحد يفاجأ مثلاً إذا شاهد شخصاً كان في يوم من الأيام مسيحياً متديناً أو أباً حريصاً وقد راح يتصرف كأحد رجال العصابات.

هناك عدد ضئيل جداً من الأشخاص الذين يتحلون بالصدق والسوية إلى درجة تبرز اختلافات صارخة عند مقارنتهم بتناقضاتنا الشخصية. فيما يتعلق بالتحليل كان تغاضي فرويد عن القيم الخلقية نتيجة من نتائج اعتباره علم النفس كعلمٍ طبيعي قد ساهم في جعل المحلل يتصف بفقدان الحس نفسه الذي يتصف به المريض بالنسبة لتناقضات من هذا النوع. يظن المحلل أن التحلي بقيم خلقية خاصة به أو إبداء أي اهتمام بتلك القيم المرتبطة بالمريض مسألة «غير علمية». في حقيقة الأمر يبدو قبول التناقضات جلياً للعيان في كثير من الصياغات النظرية التي لا تقتصر بالضرورة على دنيا الأخلاق.

ربما يعرف التبرير على أنه خداع الذات بواسطة المنطق. إن الفكرة الشائعة على أنه مستخدم أساسًا لغرض تبرير السلوك الفردي أو للتوفيق بين دوافع المرء وأفعاله مع العقائد المقبولة التي هي صحيحة إلى درجة ما. ربما يعني المغزى هنا بأن جميع الأشخاص الذين يعيشون ضمن الحضارة نفسها صاروا يمارسون التبرير ضمن المسارات نفسها بينما تجد هناك في الواقع مجالاً عريضاً من الفروقات الفردية فيما يُبرّر في الأساليب المستخدمة لذلك. إن كون هذا الأمر كذلك هو أمر طبيعي إذا اعتبرنا التبرير طريقة من طرق إسناد المحاولات العُصائية ومن أجل خلق تناغم مصطنع. يمكن أن تشاهد العملية وهي تفعل فعلها في كل صور المنصات الدفاعية المشيدة حول الصراع الأساس. إذ يعزز الموقف السائد عن طريق المنطق وتقلل العوامل التي قد تسلط الضوء على الصراع أو تعاد صياغتها بحيث تتفق معه. وتظهر للعيان الحالة التي يساعد بها هذا الاستدلال المخادع للذات في انسيابية الشخصية حينها يقارن المرء النمط المطاوع مع النمط العدواني. يعزو الأول رغبته الشديدة في المعاونة لمشاعره الرحيمة رغماً عن توفر ميول قوية في السيطرة الكامنة لديه، فإذا كانت هذه صارخةً جداً فإنه يبرزها بشكل وسواس. وحينها يتصف الأخير بالمساعدة فهو ينكر أي إحساس بالشفقة ويلقي تبعة عمله كلها على عاتق ذريعة من الذرائع. تتطلب الصورة المثلى دائماً قدرًا كبيرًا من التبرير لإسنادها ويجب أولاً إلغاء

الفروق بين الذات الحقيقية والصورة بطريق المنطق. وتُحمَلُ النفس أثناء التخريج على الاقتناع بالبرهنة على ترابط الظروف الخارجية أو على الرؤية بأن الصفات غير المقبولة للفرد ذاته هي مجرد رد فعل «طبيعي» تجاه سلوك الآخرين.

إن الميل نحو ضبط ذاتي مفرط يمكن أن يكون قويًا جدًا بحيث أنني كنت أحسبه في وقت من الأوقات من بين النزعات العُصابية الأصلية. تتمثل وظيفته في كونه يؤلف سدًا ضد إفاضة العواطف المتناقضة. ورغمًا من كونه ابتداءً يمثل في الغالب عملاً من أعمال قوة الإرادة الواعية، لكنه يصبح عادة وبمرور الوقت تلقائيًا. لن يسمح الأشخاص الذين يبذلون مثل هذه السيطرة لأنفسهم بالانجراف، وإن حصل ذلك فبالإثارة الجنسية أو الشفقة بالنفس أو الغضب الشديد وعند التحليل سيظهر بأنهم يواجهون أعظم المصاعب في المعاشرة بحريّة. لن يسمحوا للمشروبات الكحولية أن ترفع من معنوياتهم وغالبًا يفضلون تحمل الألم على أن يخضعوا أنفسهم لتناول المهدئات. بإيجاز إنهم يريدون أن يكبحوا جماح أية حالات عفوية. وهكذا تكون هذه الصفة قد تطورت، في أقوى صورها، لدى الأفراد الذين ظهرت صراعاتهم علنًا ولم يتخذوا أيًا من الخطوات التي تعينهم كما هي العادة على طمس تلك العادات. فلم يحدث أي تسلط واضح لأية مجموعة من المواقف المتصارعة كما لم تكن قد تطورت لديهم عزلة كافية لإيقاف الصراعات عن النشاط.

يكون مثل هؤلاء الأشخاص كتلة واحدة متماسكة بواسطة صورهم المثلى. ومن الجلي أن قوتها الرابطة تكون غير كافية حينها لا تساند من قبل إحدى المحاولات الرامية إلى بناء الوحدة الباطنية أو غيرها. تكون الصورة غير ملائمة بشكل خاص حينما تتخذ هيئة خليط من العناصر المتناقضة. عندئذٍ يحتاج المرء إلى بذل قوة الإرادة، بوعي أو بلا وعي، للاحتفاظ بالاندفاعات المتصارعة تحت السيطرة. ولأن أشد الاندفاعات تمزيقاً هي تلك التي تعود للعنف المنطلق عن الغيظ فإن أعلى درجة من الطاقة توجه نحو السيطرة على الغيظ. هنا تبدأ حلقة مفرغة في التحرك إذ يصبح الغيظ قوة متفجرة تتطلب بدورها ضبطاً ذاتياً أكبر من أجل إخمادها. فإذا لفت نظر المريض إلى السيطرة الفائقة التي يمارسها فسوف يدافع عنها بالإشارة إلى فضيلة وضرورة ضبط الذات بالنسبة لأي فرد متحضر. وما يفعله هو طبيعة سيطرته القسرية، إذ ليس بوسعها إلا أن يبذلها بأقصى الطرق صلابة، كما يستبد به الهلع إن فشلت في تأدية وظيفتها لأي سبب كان. ربما يبدو الهلع كخوف من الجنون الذي يشير بوضوح إلى أن وظيفة السيطرة هي درء خطر الانفصام.

يملك الحق التعسفي وظيفة مزدوجة تتمثل في إلغاء الريبة من الباطن والتأثير من الخارج، تكون الريبة والتردد مرادفات ثابتة للصراعات غير المصرفة والتي يمكن أن تبلغ قوة جبارة بدرجة كافية لشل كل عمل. في مثل هذه الحال يكون الشخص سريع التأثير

بصورة اعتيادية. إننا لن نجبر على تغيير آرائنا بسهولة إذا كنا نمتلك قناعات أصلية، ولكن إذا كنا نقف عند مفترق الطرق طوال حياتنا مترددين إن كنا سنذهب في هذا الاتجاه أو ذاك حينها يكون بوسع القوى الخارجية أن تصبح العامل الحاسم في توجيهنا بسهولة حتى وإن كان ذلك مؤقتاً فقط. علاوة على ذلك لا ينطبق التردد على سُبُل الأداء الممكنة فحسب بل يتضمن شكوكاً بذات المرء وبحقوقه ويجدارته أيضاً.

تحدُّ هذه الشكوك من قدرتنا على مقارعة الحياة ولا تبدو ظاهرياً غير محتملة لكل امرئ بصورة مماثلة فكلما نظر أحد الأشخاص إلى الحياة على أنها معركة قاسية اعتبر الشك على أنه ضعف خطير. وكلما كان منعزلاً ومصرّاً على الاستقلال بنفسه صارت قابليته للتعرض للتأثير من الخارج مصدرّاً للسخط. تشير جميع ملاحظاتي إلى حقيقة تتضح في اتحاد نزعات عدوانية متسلطة بالإضافة إلى العزلة باعتبارها التربة الأخصب في تطوير الحق المتعسف. وكلما كان العدوان بارزاً على السطح كان الحق أشد تعسفاً وهو يؤلف محاولة في حسم الصراعات نهائياً، وذلك بالتصريح وبصورة جازمة أنه على حق دائماً. هنا تمثل الانفعالات خيانة من الداخل ويجب أن تمنع بالسيطرة القوية. وقد يتوصل بذلك إلى السلام غير أنه سيكون سلام القبور. وكما نتوقع فإن مثل هؤلاء الأشخاص يستهجنون فكرة تحليل النفس لأنه يهدد بضياغ الصورة التي يرتضيها.

تعتبر المراوغة أمرًا محوريًا بالنسبة للحق المتعسف لكنها تمثل بصورة مشابهة دفاعًا مؤثرًا ضد الاعتراف بالصراعات. وفي الغالب يمثل المرضى الذين يميلون إلى هذا النوع من الدفاع، تلك الشخصيات في أساطير الجنيات اللاتي يستجلن إلى سمكاتٍ حينما يُلاحقن فإن لم يكنَّ آمناتٍ في ذلك المظهر فإنهنَّ يتحولن إلى ظباءٍ فإن لحق الصياد بهنَّ فسيُحلّقن بعيدًا كالطيور. إنك لن تستطيع إلزامهم بأي قول إذ ينكرون أنهم كانوا قد قالوه أو يؤكّدون لك أنهم لم يكونوا يقصدونه بتلك الطريقة. إن لديهم استعدادًا مذهلاً على إحاطة الأمور بالغموض. ويستحيل عليهم غالبًا أن يقدموا تقريرًا ملموسًا عن أي حدث من الأحداث وإن حاولوا القيام بذلك فسيكون السامع غير متيقن مما حصل حقيقة.

الارتباك نفسه يسود حياتهم. إذ يكونون أشرازًا في لحظة من اللحظات وعطوفين في لحظة أخرى، مسرفين أحيانًا في تقدير الآخرين أو غير مبالين بمشاعر الآخرين بشكل متهور، متسلطين في بعض الجوانب ومنكرين لذاتهم في جوانب أخرى. وهم يمدون أيديهم إلى الرفيق المستبد لينقلبوا إلى مجرد «مسحة أرجل» ثم يكرّون راجعين إلى سابق عهدهم وسيغمرهم شعور بالندم بعد إساءة معاملة شخص ما فيحاولون تقديم الترضيات ثم يشعرون كما يشعر «المغفل» فينقلبون إلى حالهم الفاسدة مرة أخرى. إذ لا شيء حقيقي بالنسبة لهم.

ربما يجد المحلل نفسه في حالة ارتباك كذلك وأنه مثبط العزيمة فيشعر بضيق الخلاصة التي يعمل من أجلها. وهو على خطأ في ذلك الأمر فهؤلاء ببساطة هم المرضى الذين لم يكونوا قد نجحوا في تبني إجراءات التسوية المعتادة أي أنهم لم يكونوا قد فشلوا في كبت أجزاء من صراعهم ولم يشيدوا الصورة المثلى على وجه التحديد. قد يقال أنهم يظهرون أهمية هذه المحاولات بوضوح، لأنه مهما كانت العواقب وخيمة فإن الأشخاص السائرين على هذا المنوال، هم أفضل تنظيمًا وليسوا ضائعين تمامًا كضيق النمط المراوغ. من جهة أخرى، سيكون المحلل مخطئًا بصورة عامة إذ يتوقع عملاً ميسورًا لأن الصراعات تبدو للعيان ولذلك فهي ليست بحاجة لأن تسحب ببطء من مكنها. فمع ذلك سيجد أنه يرقى إلى مجابهة مع المريض وسينزع المريض إلى إحباطه ما لم يكن واضحًا لديه أن هذه هي طريق العُصابي في تفادي أي نفاذ بصيرة حقيقية.

إن السخرية هي دفاع أخير ضد الاعتراف بالصراعات والإنكار والاستهزاء بالمعايير الخلقية. فمن المحتم ظهور ريبة عميقة لدى كل مرض عُصاب، فيما يتعلق بالمعايير الخلقية وكيفما كان الشخص ملتزمًا عقائديًا بمقاييسه المقبولة هذه. وبينما تختلف أساليب السخرية فإن مهمتها تكون في إنكار وجود المعايير الخلقية وهكذا تحرر الشخص العُصابي من ضرورة الإفصاح بذاته عن ماهية ما يؤمن به حقًا.

الجزء الثاني

المراعات العُصائية ومحاولات الحل

من الممكن أن تكون السخرية واعيةً ومن ثم تصبح مبدأً من التقليد الميكيافيلي وأن يدافع عنها بهذه الصفة. فكل ما يُعول عليه هو المظهر الخارجي. تستطيع أن تفعل ما تشاء طالما لا تضبط متلبسًا. ويعتبر كل امرئ مُرائيًا ما لم يعتبر أبله حقيقةً. ربما يتميز هذه النوع من المرضى بالحساسية ضد استخدام المحلل لأي تعبير خلقي كما كان أولئك الناس في عصر فرويد يتحسسون تجاه الإشارة إلى الجنس. غير أن السخرية قد تظل لا شعورية أيضًا وتحجب بغلالة من المظهر السطحي الكاذب بالنسبة للعقائد السائدة ورغمًا عن كونه غير شاعر بسيطرة السخرية عليه ولكن الطريقة التي يعيش من خلالها والأسلوب الذي يتحدث به عن حياته سيظهر بأنه كان يعمل وفقًا لمبادئها. أو قد يوقع نفسه في التناقضات غير المعتمدة كالمريض الذي كان واثقًا بأنه يؤمن بقيم الصدق والحشمة ومع ذلك كان يحسد كل من أطلق العنان لنفسه في مناورات غير شريفة، وكان يستاء من الحقيقة لأنه هو نفسه لم يستطيع «الخلاص» من أمور كهذه. من المهم أثناء العلاج النفسي أن نحمل سخرية المريض إلى الوعي التام بها في الوقت المناسب، وأن نساعد المريض على إدراكها. قد يكون من الضروري أن نشرح لم يكون مفضلًا بالنسبة له قدرته لأن يؤسس مجموعته الخاصة من القيم الخلقية.

إن ما مرَّ ذكره إذا يُمثل الدفاعات التي تشاد حول نواة الصراع الأساس. سأشير لغرض التبسيط إلى نظام الدفاع برمته على أنه

البنية الواقية. إذ تطوّر في كل عُصاب مجموعة مؤتلفة من الدفاعات، غالباً ما تكون متوفرة جميعها رغم تفاوت درجاتها من الحيوية.

الفصل التاسع

المخاوف

مكتبة

t.me/soramnqraa

عند البحث عن المعنى الأعمق لأية معضلة عُصابية فمن المحتمل أن نضلّ سبيلنا في متاهة من التعقيدات. وليس ذلك أمراً غير طبيعي لأننا لا نستطيع أن نتوقع فهم مرض العُصاب دون مواجهة تعقيداته. ومن المفيد أحياناً أن نقف موقف المتفرج لاستعادة منظورنا.

كنا قد تعقبنا تطور البنية الواقية خطوة بعد خطوة. وكنا قد رأينا كيف يُبنى دفاع بعد آخر حتى تتوحد منظومة راسخةً نسبيّاً. وكان العنصر الذي يترك فينا انطباعاً عميقاً جداً هو الجهد المطلق الذي كان قد بذل في هذه العملية وكان جهداً هائلاً جداً يقودنا نحو التساؤل ثانية عن حقيقة ما يدفع بشخص ما عبر ممر شاق مجهد ذي ثمن باهظ. ونسأل أنفسنا ما هي القوى التي تجعل البنية الواقية بهذه الصلابة

والمناعة. هل تكمن القوة الدافعة للعملية كلها بسبب الخوف من الفعالية الممزقة للصراع الأساس؟ قد يوضح القياس التمثيلي مدخلاً نحو الإجابة. وكأي قياس تمثيلي آخر فهو يمكن أن ينطبق بصيغ شاملة جداً. لنفترض أن أحد الرجال من ذوي الماضي المشين كان قد وجد طريقه نحو أحد المجتمعات الصغيرة بطريق الادّعاء المزيف. فهو سيعيش لا محالة متخوفاً من افتضاح حاله السابق. ثم يعلو مركزه بمرور الزمن فيكون أصدقاءً ويؤمن لنفسه عملاً ويؤسس عائلة. وأثناء تعلقه بمركزه الجديد كان يكتنفه خوفٌ جديد خشية فقدان هذه الامتيازات الجديدة، كما كان اعتداده بكرامته يبعده عن ماضيه البغيض. لذا تجده يتبرع بمبالغ ضخمة من أجل الخير وقد يفعل الشيء نفسه لشركائه القدامى كي يظهر ماضيه المشين. كانت التبدلات في شخصيته تتابع على نحو مطرد لكنها تساهم في توريطه بصراعات جديدة وكمحصلة في نهاية المطاف يصبح استهلاله لحياته الحالية على أسس مزيفة مجرد تيار خفي يعكس صفوه فحسب.

وهكذا يظل الصراع الأساس باقياً في النظام الذي أعده الشخص العصابي لكنه يصبح مشوهاً. فحيث يكون قليلاً في بعض الجوانب فإنه يزداد في جوانب أخرى. ونظرًا للحلقة المفرغة المتأصلة في العملية تصبح الصراعات المنبثقة أشدّ إلحاحاً.. وما يصعد من حدّتها إلى أقصاها في الحقيقة كون كل موقف دفاع جديد يزيد من إضعاف علاقة العصابي مع ذاته ومع الآخرين، وهذه هي التربة

التي تنبت فيها الصراعات. فضلاً عن ذلك فإنها كعناصر جديدة مهما كانت مغلقة بالوهم، أي وهم الحب أو النجاح أو العزلة المتاحة أو الصورة الوطيدة، فهي تبدأ بلعب دور هام في حياته مولدة خوفاً من نوع مختلف وخوفاً من أن شيئاً ما قد يعرض هذه الكنوز للخطر. واغترابه المتصاعد عن قدرته على أن يقنع نفسه وأن يتخلص من مصاعبه. وهكذا يأخذ الكسل مكان النمو الموجه.

تتميز البنية الواقية مع كل صلابتها بكونها سريعة الانكسار وهي تُنمّي بحد ذاتها ظهور مخاوف جديدة. يتمثل أحد المخاوف هذه في الشعور بأنّ اتزانه سيكون قلقاً. ففي الوقت الذي تضي عليه البنية الواقية إحساساً بالتوازن لكنه سرعان ما يتقوض وينهار. ويكون الشخص ذاته غير واعٍ شعورياً بهذا التهديد لكن لن يسعه إلا الإحساس بذلك بطرق متنوعة. لقد علمته التجربة أنه يمكن أن يفقد عصا القيادة دون أي سبب ظاهر، إنه يصبح حائقاً أو مبهتجاً أو مكتئباً أو مجهداً أو كظيماً في وقت يتوقع فيه الرغبة في حدوث ذلك. إنّ محصلة كل هذه الخبرات أعطاه شعوراً بالرغبة وشعوراً بأنه لن يكون بوسعه الاعتماد على نفسه، كما لو كان يتزحلق على جليد هش. وربما عن عدم توازنه أيضاً في طريقة مشيته أو جلسته أو في نقص مهارته في أي عمل يتطلب توازناً عضوياً.

يتمثل أعلى تعبير ملموس لهذا الخوف بالخوف من الجنون. وحينها يتواجد ذلك بدرجة ملحوظة فإنه قد يكون العارض المرضي

الأشد بروزًا والذي يسوق أحد الأشخاص للبحث عن معاونة الطب النفسي. في مثل هذه الأحوال يدفعه الخوف أيضًا وبطريق الاندفاعات المكبوتة للقيام بجميع الأمور التي تدل على «خيل» أو عمل ذي طبيعة تخريبية في الغالب دون الإحساس بالمسؤولية عنها. لا يُعتبر تصوّر الخوف من الجنون كمؤشر على أن الشخص متجه فعلاً نحو الجنون. وقد يكون هذا أمرًا عابرًا يظهر في حالات المحن الشديدة. إن أكثر بواعثه المؤثرة هو التهديد المفاجئ للصورة المثلى أو التوتر المتعظم الذي يرتبط في الأعم بالغيظ اللاواعي مما يعرض ضبط الذات المفرط للخطر. فقد اعترت إحدى النساء المعروفات بسماحة الخلق والشجاعة موجةً من الرعب حينما أصابها إحساس بالخوف والغضب العنيف أثناء موقف محرج إذ انفجرت صورتها المتزنة المتماسكة بما يشبه شريطًا من الفولاذ وتركتها في حالة خوف من الانفصام. لقد سبق أن تحدثنا عن الرعب الذي يملك الشخص المنعزل حينما يُجرّ من مخبئه ويساق إلى علاقة حميمة مع الآخرين، أي حينما يتعين عليه مثلاً، أن يلتحق بالجيش أو أن يعيش مع الأقرباء. ربما يعبر عن هذا الرعب أيضًا كخوف من الجنون وفي هذا الظرف قد تحدث سلسلة من أحداث الذّهان فعلاً. وثمة خوف مماثل سينبثق أثناء تحليل النفس حينما يدرك أحد المرضى ممن كان قد بذل أقصى جهده لخلق توافق مصطنع، أنه منقسم على نفسه.

إن ذلك الخوف من الجنون والذي يطوح به في أغلب الأحوال غيظ لا شعوري يبرز أثناء التحليل في وقت تأخذ فيه روايته شكل

التصور في أن المريض قد يمين أو يضرب أو ربما يقتل بعض الناس في ظروف يستحيل عليه فيها ضبط الذات. سوف يشعر بالخوف من اقتراف أحد أعمال العنف أثناء النوم أو تحت تأثير مسكر أو مخدر أو عند الإثارة الجنسية. قد يكون الغيظ نفسه واعياً أو قد يظهر كاندفاع متسلط باتجاه العنف غير مرتبط بأي ميل أو شعور. وقد يكون عمله من جهة أخرى لا شعورياً بشكل عام، وكل ما يشعر به الشخص هو نوبات مفاجئة من هلع مبهم ربما يكون مصحوباً بالتعرق ودوار الرأس أو الخوف من الإغماء، مشيراً بذلك لخوف كامن في أن الاندفاعات العنيفة قد تفقده السيطرة. وحيثما يُخَرَّج الغيظ اللاشعوري فقد يمتلك الشخص ذعرٌ من العواطف الرعدية أو الأشباح أو اللصوص أو الثعابين وغيرها، أي من أية قوة مخيفة محتملة خارج حدود ذاته.

غير أن الخوف من الجنون بعد كل هذا، نادر نسبياً. إنه ببساطة أشد التعبيرات وضوحاً عن خوف فقدان الاتزان. وقد يفعل الخوف فعله بأساليب أكثر خفاءً. فيظهر بصور غامضة غير محدودة أو يترسب بواسطة أي تبدل في روتين الحياة، قد يشعر الأشخاص الذين يتعرضون له بالقلق العميق من القيام برحلة أو الانتقال أو تغيير العمل أو استخدام خادمة جديدة أو ما شابه ذلك. وهم حينها أمكن ذلك يحاولون تجنب مثل هذه التغييرات. كما أن تهديده للاستقرار قد يشكل عاملاً من العوامل التي تحول بين المرضى وبين تحليلهم نفسياً

وبخاصة إذا كانوا قد وجدوا طريقة للعيش تسمح لهم بممارسة نشاطهم بشكل جيد تماماً. وهم حينها يناقشون أرجحية التحليل النفسي فسوف يهتمون بقضايا قد تبدو معقولة بما يكفي لأول وهلة كالسؤال هل سيقوض التحليل أسس زواجهم؟ هل سيثقل قدرتهم عن العمل مؤقتاً؟ هل سيجعلهم سريع الانفعال؟ هل سيتدخل في معتقداتهم الديني؟ إن مثل هذه الأسئلة تقرر بشكل مبدئي سبب قنوط المريض فهو لا يعتقد أن القيام بأية مجازفة سيؤدي نفعاً. غير أن هناك تحسباً حقيقياً يكمن وراء قلقه، فهو بحاجة للتحقق ثانية بأن تحليل النفس لن يقلب توازنه رأساً على عقب. نستطيع في مثل هذه الحالات أن نفترض بكل اطمئنان أن التوازن مزعزع بشكل خاص وأن تحليل النفس سيكون مهمة صعبة.

هل يستطيع المحلل أن يعطي المريض التأكيد الذي يريده؟ كلا، لا يستطيع. من المحتم أن يخلق كل تحليل نفسي اضطراباً مؤقتاً. ما يستطيع المحلل أن يفعله على كل حال هو أن يغوص إلى جذور مثل هذه الأسئلة وأن يشرح للمريض ما هو خائف منه فعلاً وأن يخبره أنه بينما سيقرب التحليل النفسي اتزانه الحالي فهو سيمنحه فرصة لبلوغ توازن يرتكز على أرضية أكثر صلابة.

كما يتولد خوف آخر عن البنية الواقية هو خوف الافتضاح. ويقبع مصدره في الادعاءات الكثيرة التي تتصل بتطور وصيانة البنية ذاتها. سيوصف هذا مع ما يرتبط بإفساد الاستقامة الخلقية التي تنشأ عن

الصراعات غير المصرّفة. نود فيما يخص هدفنا الحالي فقط أن نشير إلى الشخص العصابي الذي يريد أن يُظهر لكل من نفسه والآخرين أنه مختلفٌ عما هو عليه فعلاً أي أكثر انسجامًا وأكثر سلامةً في تفكيره وأكثر كرمًا أو نفوذًا أو طيشًا. قد يكون من الصعب القول إذا كان أكثر خوفًا من أن يفتضح أمره بالنسبة له أو للآخرين. شعوريًا يكون الآخرون هم أكثر ما يقلقه وكلما عمل على تخريج خوفه أكثر ازداد قلقه وشعوره بأن الآخرين ينبغي أن لا يكتشفوه. قد لا يهتم ما يظنه هو عن نفسه وأن بوسعه أن يتحمل اكتشافه الشخصي لعيوبه خلال مسيرته إذا أمكن إبقاء الآخرين في الظل. لن يكون الأمر كذلك لكنه يمثل الطريقة التي يحس بها شعوريًا والتي تبين مدى الدرجة التي يكون فيها التخريج موجودًا.

قد يظهر خوف الافتضاح إما بصورة شعور غامض بأن المرء مخادع أو أنه قد يتعلق بميزة خاصة فحسب ترتبط من بعيد بما يضايق المرء فعلاً. قد يكون أحد الأشخاص خائفًا من أنه ليس ذكيًا أو ذا كفاءةٍ أو متعلمًا بشكل حسن أو جذابًا مثلما يظن نفسه وبذلك ينقل الخوف إلى الصفات التي لا تنعكس على شخصيته. وهكذا فقد تذكّر أحد المرضى أنه في سني مراهقته المبكرة كان يلاحقه خوف يتمثل في أن سبب كونه من الأوائل يرجع إلى الخداع. وكان واثقًا في كل مرة ينتقل فيها إلى مدرسة أخرى أن أمره سيفتضح هذه المرة، وكان الخوف يدوم حتى حينما انتزع المرتبة العليا. لقد حيره إحساسه لكنه لم يكن

قادرًا على أن يضع إصبعه على السبب، لم يستطع أن ينفذ ببصيرته إلى مشكلته هذه لأنه كان يسير على غير هداية. لم يكن خوفه من الافتضاح يرتبط بذكائه بل كان قد انتقل إلى ذلك المجال فحسب. كان ذلك يرتبط في الحقيقة بادعاءٍ لا شعوري بأنه شخص طيب لم يكن ليهتمّ بالدرجات، بينما كانت الحقيقة أنّ حاجةً مدمرةً كانت تطغى عليه بهدف الانتصار على الآخرين. يقودنا هذا المثال إلى تعميمٍ وثيق الصلة بالموضوع. يرجع الخوف دائمًا من كون المرء مخادعًا إلى أحد العوامل الموضوعية، وفي العادة لا يكون هو العامل الذي يظنه الشخص نفسه. إن تعبيره المميز كعرض مرضي يتمثل في احمرار الوجه خجلًا أو الخوف من احمرار الوجه خجلًا، ولأنه تظاهر لا شعوري ذلك الذي يخشى المريض افتضاحه فقد يرتكب محلل النفس خطأً جسيمًا إذا فتش عن بعض الممارسات التي يظن بأن العصابي يخجل منها ويخفيها. غير أن المريض قد لا يخفي أي شيء من هذا القبيل، ما يحدث بعد ذلك الشعور بأنه يصبح أكثر تخوفًا من أن شيئًا ما في دخيلته هو على جانب كبير من السوء بحيث أنه سيثبت لا شعوريًا من الإفصاح عنه. تقضي مثل هذه الحال لإمعان النظر في الذات بارتياح لكنها لن تقود إلى العمل البناء. وربما سيدخل في تفاصيل أخرى تدور حول أحداث جنسية أو اندفاعات مدمرة، لكن خوف الافتضاح سيبقى طالما يفشل محلل النفس في إدراك كون المريض أسيّرًا في قبضة صراع وبأنه هو نفسه يعمل على التأثير فيه من جانب واحد فقط.

من المحتمل أن يستثار خوف الافتضاح بواسطة أية حال تعني وضع العُصاي في موضع الاختبار. سيتضمن هذا البدء بوظيفة جديدة أو التعرف على أصدقاء جدد أو الانضمام إلى مدرسة جديدة أو الامتحانات أو التحشدات الاجتماعية أو أي نوع من الفعاليات التي قد تسلط الأضواء عليه حتى وإن لم يتعد ذلك المشاركة في مناظرة. إنه غالبًا ما يتصور لا شعوريًا بأنه خوف من الفشل له علاقة بالافتضاح في الواقع، ومن هذا المنطلق فهو لا يستكين بالنجاح.

سوف يشعر الشخص أنه «نفذ بجلده» هذه المرة فحسب، ولكن ماذا في المرة المقبلة؟ وإذا تعين عليه الفشل فسيكون أكثر قناعة بأنه كان وما زال مخادعًا وأنه قد ضبط متلبسًا هذه المرة. إن الجبن يمثل إحدى العواقب لمثل هذا الإحساس لا سيما ضمن أية حالة جديدة. تتمثل العاقبة الأخرى في الحذر إزاء كونه محبوبًا أو مقدرًا. سيفكر الشخص شعوريًا أو لا شعوريًا: «إنهم يحبونني الآن غير أنهم إذا عرفوني حقًا فسيشعرون بعكس ذلك». لا شك أن هذا الخوف يلعب دورًا في تحليل النفس حيث يكون غرضه الصريح هو «الاكتشاف».

يستدعي كل خوف جديد مجموعة جديدة من الاستحكامات. وتنقسم تلك التي تنصب ضد خوف الافتضاح إلى فئات متقابلة وتتوقف على بنية الشخصية برمتها. فمن جهة هناك ميلٌ نحو تجنب حالات الاختبار من أي نوع وإن لم يستطع تجنبها فهو يتحفظ عليها ويضبطها داخليًا ويلبسها قناعًا لا يمكن اختراقه. ومن جهة أخرى

هناك محاولة لأن يصبح المرء مخادعًا منقطع النظر بحيث لن تبقى هناك حاجة للخوف من الافتضاح. ليس الموقف الأخير وقائيًا فحسب إذ تستخدم المخاتلة الرفيعة المستوى من قبل أفراد من النمط العداوني ممن يعيشون نيابة عن الآخرين كوسيلة للتأثير على أولئك الذين يرغبون في استغلالهم؛ وأية محاولة في الارتياح بهم ستقابل بهجوم ماكر مضاد فيما بعد. إنني أشير هنا إلى الأشخاص الساديين بصورة صريحة. وسنرى بعد ذلك اتفاق هذه الميزة مع البنية كلها.

سوف نفهم خوف الافتضاح حينما نكون قد أجبنا على سؤالين: الأول ما الذي يخيف أحد الأشخاص إذا كان يفشي أمرًا؟ والثاني: ما الذي سيخشاه في حال تعرضه للفضيحة؟ كنا قد أجبنا على السؤال الأول مسبقًا. ولنجيب على الثاني أيضًا علينا أن نبحث في خوف آخر ينبعث من البنية الواقية وهو خوف الإهمال والإذلال والشعور بالسخرية. وبينما يكون ضعف البنية مسؤولاً عن خوف اضطراب التوازن، يُولد الخداع اللاواعي المرتبط بذلك خوفًا من الافتضاح. كما يتأتى خوف الإذلال من كرامة ذات جريحة. وقد لمحننا لهذه المسألة بشكل عابر في مجالات أخرى. يمثل كلٌّ من خلق الصورة المثلى وعملية التخريب محاولة في إصلاح احترام الذات المتضررة غير أن كلاً منهما لا يزيد عن كونه تجريحًا فحسب كما شاهدنا سابقًا.

إذا ألقينا نظرة شاملة على ما يحدث لاحترام الذات خلال تطور مرض العُصاب فسنفاجأ بزوجين من العمليات المتأرجحة صعودًا

ونزولاً. فبينما يهبط مستوى احترام الذات الواقعي تتصاعد كبرياء غير واقعية: كبرياء في كون المرء صالحًا جدًا ومكافحًا جدًا وفذاً جدًا ومطلق القدرة تمامًا ومطلق المعرفة أيضًا. نجد في الأرجوحة الأخرى تصغير ذات الشخص العُصابي الفعلية معادلةً بثقل مقابل نحو تصعيد الآخرين إلى منزلة العمالقة. تضيع رؤية الفرد لذاته من خلال تعقيم مساحات واسعة من الذات بالقمع والكبت أو بواسطة الصورة المثالية أو التخريج فيشعر بأنه صار كظل لا وزن له ولا جوهر فيه. في الوقت عينه، إن حاجته للآخرين وخوفه منهم لا يجعلهم أشدَّ هولاً بالنسبة له فحسب بل أشدَّ ضرورةً أيضًا. من هنا يصبح مركز ثقله أكثر استقرارًا في الآخرين منه في ذاته حيث يتنازل لهم عن امتيازات هي خاصة به حقًا. ويتمثل تأثيرها في إضفاء أهمية خاصة لا موجب لها على تقديرهم بينما يفقد تقديره الذاتي لمغزاه. وذلك يعطي لرأي الآخرين نفوذًا ساحقًا.

عند النظر إلى مجموعة العمليات معًا بنظر الاعتبار فإنها تفسر تحسس الشخص العُصابي المفرط للإهمال والإذلال والسخرية. وبقدرٍ ما تشكل هذه العمليات جزءًا من كل مرض من أمراض العُصاب بقدر ما يكون التحسس المفرط في هذا المجال شائعًا جدًا. فإذا كنا مطلعين على مصادر خوف الإهمال المتشعبة الأنواع فسوف نستطيع أن نرى أنه ليس من السهل إزالته أو التقليل منه فهو يمكن أن ينحسر إلى ما ينحسر إليه مرض العُصاب برمته.

بصورة عامة تتمثل عواقب الخوف هذا في أنه يبعد الشخص العُصابي عن الآخرين ويجعله عدائياً بالنسبة لهم. غير أن الأهم من ذلك كله يتمثل في قدرته على قص أجنحة أولئك الذين ابتلوا به إلى درجة عظيمة. فهم لا يجرؤون على توقع أي شيء من الآخرين أو أن يضعوا لأنفسهم أهدافاً سامية. إنهم لا يجرؤون على الاقتراب من أولئك الذين يحسبونهم أرفع مقاماً منهم بأية طريقة، وهم لا يجرؤون أيضاً على التعبير عن فكرة ما حتى ولو كانت لديهم مساهمة حقيقية لتقديمها، ويرون أن لا قدرة لهم على ممارسة القدرات الخلاقة حتى ولو توفرت فيهم، كما أنهم لا يستطيعون إضفاء السحر على أنفسهم أو المحاولة في التأثير على الآخرين أو البحث عن عمل أفضل وهلم جراً. حينها يركبون المخاطر في تلمس أي من هذه الاتجاهات يشدهم احتمال السخرية الكثيب إلى الورااء فيلجؤون إلى ستار التحفظ والكرامة.

وما هو أشد دقة من المخاوف التي كنا قد وصفناها يتمثل في أحد المخاوف التي قد تعتبر تكثيفاً لها جميعاً وكذلك لمخاوف أخرى تتواجد في التطور العُصابي. إنه الخوف من تغيير أي شيء في دخيلة المرء. يستجيب المرضى لفكرة التغيير عن طريق تبني واحد من موقفين متطرفين. إما أن يعضوا الطرف عن الموضوع برمته على الرغم من غموضه شاعرين بأن التغيير سيحدث عبر نوع من المعجزات في وقت غامض مستقبلاً أو أن يحاولوا التغيير

بسرعة فائقة وبإدراك أقل مما يجب لمتطلباته. فيضمرون في الحال الأولى تحفظًا فكريًا بأن إلقاء نظرة على معضلة من المعضلات أو الاعتراف بزلل ينبغي أن يكون كافيًا بحد ذاته. والفكرة في تحقيق ذاتهم تجعلهم يغيرون مواقفهم ودوافعهم باعتبارها صدمة عصبية تقودهم للإحساس بالقلق. ليس بوسعهم إلا أن يروا صحة المقترح ولكنهم يرفضونه لا شعوريًا. هذا الوضع المعاكس يقود إلى تظاهر لا شعوري في التغيير الذي يتم جزئيًا بطريق التمني الناشئ من عدم تحمل المريض لأي عيب يراه في نفسه ولكنه يتقرر أيضًا عن طريق إحساسه اللاواعي بالقدرة الفائقة، أي لمجرد تمني اختفاء مشكلة من المشاكل التي ينبغي أن يكفي التمني لتبديدها.

يكمن وراء الخوف من التغيير أحاسيس مفاجئة، بالخوف من التبدل نحو الأسوأ وأعني فقدان المرء لصورته لمثلى حيث ينقلب إلى الذات المرفوضة ويصبح كأى شخص آخر، أو يطرح بعد تحليل النفس إناءً فارغًا فيه دعر من المجهول وشعور بأن عليه أن يتخلى عن وسائل السلامة ومعطيات الارتياح التي كسبها حتى الآن ولا سيما تلك التي تتعلق بمطاردة الأوهام التي تبشر بالحل. وأخيرًا هنالك خوف من كونه قادرًا على التغيير وهو خوف سيكون مفهومًا بصورة أفضل عندما نصل إلى مناقشة القنوط العُصابي.

تنطلق جميع هذه المخاوف من الصراعات غير المصرّفة. وعلينا أن نفصح لها عن أنفسنا إذا ابتغينا التكامل وإلا فهي تقف حجر عثرة

أمام مواجهتنا لأنفسنا أيضًا. إنها تمثل مواضع التطهير التي يجب أن نبذل مزيدًا من التفكير عبرها قبل أن نفوز بالنجاة.

استلاب الشخصية

يُعنى البحث في عواقب الصراعات غير المصروفة الدخول إلى منطقة غير محدودة ومنطقة لم تكن قد اكتشفت إلا على نطاق ضيق. ربما يكون بوسعنا أن نقرب منها بالشروع في مناقشة بعض العلل التي تدل على أعراض مرضية مثل الاكتئاب والإدمان على المسكرات أو انفصام الشخصية آملين أن نصل إلى فهم أفضل عن اضطرابات معينة. إنني أفضل أن أمحصها من منطلق أكثر شمولاً وأن أطرح السؤال التالي: ماذا تفعل الصراعات غير المصروفة بطاقتنا وباستقامتنا وبسعادتنا؟ إنني أتبنى هذا المنحى لقناعتي بأنه ليس في ووسعنا أن ندرك مغزى أي اعتلال كعرض مرضي دون أن نفهم قاعدته الإنسانية الأساسية. والميل لدى طب النفس الحديث في

بلوغ نظرية ملائمة تفسر الأعراض المتوفرة يبدو أمرًا مفهومًا في ضوء حاجة الطبيب المعالج الذي يتعامل مع تلك الأعراض. لكنها محاولة قلما تكون عملية عدا عن كونها مشابهة لعمل مهندس معماري يبني الطوابق العليا لإحدى البنايات قبل إرساء الأساس.

لقد سبق وأشارت إلى بعض العناصر الداخلة في سؤالنا والتي هي بحاجة إلى تفصيل. كما أن عناصر أخرى مفهومة ضمناً في بحوثنا السابقة ولا تزال هناك عناصر أخرى تتعين إضافتها. كما لا يتمثل هدفنا في أن نترك القارئ يساير فكرة غامضة لإيذاء الصراعات غير المصرّفة بل ينبغي علينا إعطاء صورة واضحة وشاملة تمامًا عن الخراب الذي توجهه لتلك الشخصية.

يقتضي العيش مع الصراعات غير المصرّفة إتلافًا مخربًا للقوى الإنسانية، لا تسببه من وقت لآخر الصراعات ذاتها فحسب بل المحاولات المتتوية لإزاحتها أيضًا. وحينما يكون الشخص منقسمًا على ذاته فهو لن يستطيع أبدًا أن يكرس قواه بصدق نابع من القلب في أي شيء بل يريد دومًا أن يطارد هدفين أو أكثر من الأهداف المتنافرة هذا يعني إما بعثرة قواه أو إحباط جهوده عمليًا. وهذا يصدق على الأشخاص الذين تغريهم صورهم الرائعة كصورة بير جينت بالاعتقاد أن بوسعهم التفوق في كل شيء فالمرأة في حال كهذه ترغب أن تكون أمًا مثاليةً وطباخةً ومضيفةً كاملة وأن تكون أنيقةً وأن تلعب دورًا اجتماعيًا وسياسيًا ذا شأن وأن تكون زوجة متفانية

وأن تمارس عملاً منتجاً خاصاً بها. ولا حاجة للقول أن هذا أمر صعب وعندها سوف تشعر بخيبة الأمل في كل هذه المساعي كما أن طاقتها، مهما كانت كبيرة، فستؤول إلى الضياع مكتبة سُر من قرأ إن إحباط المسعى الصادق حين تصطدم الدوافع المتنافرة أحدها بالآخر له صلة أشمل بالموضوع. فقد يرغب أحد الرجال أن يكون صديقاً مخلصاً لكنه يكون مستبداً كثير المطالب بحيث يصعب تحقيق إمكاناته في هذا الاتجاه. ويريد آخر أن ينجح أطفاله في الحياة، لكن دافعه في السلطة وعدله الواسع يتضارب مع ذلك. ويرغب شخص آخر أن يؤلف كتاباً لكن صداعاً ممزقاً يعتريه أو يفاجئه إعياء مهلك وعندها لا يستطيع أن يعبر عما يريد. في هذا الحال أيضاً تكون الصورة المثلى هي المسؤولية. ولأنه العقل الموجه ينبغي أن تنساب منه الأفكار الرائعة كالأرانب المنطلقة من قبة ساحر! وحينها لا يقدر فهو ينفجر غيظاً. قد يمتلك شخص آخر فكرة رائعة يرغب في تقديمها في أحد الاجتماعات غير أنه لا يروم إظهارها بطريقة مثيرة يدفع بها الآخرين إلى الظل فحسب بل يرغب أيضاً أن يكون محبوباً متفادياً الخصومة وفي الوقت نفسه يتوقع السخرية بسبب تخريج احتقاره لذاته. وحصيلة ذلك أنه لا يستطيع التفكير إطلاقاً كما أن الفكرة ذات الصلة الوثيقة بالموضوع والتي ربما أراد إظهارها سوف لن تبلغ مرحلة النضوج.

وهناك شخص آخر يمكن أن يصبح رجل تنظيم جيد غير أنه وبسبب نزعاته السادية يشير عداوة كل من حوله. قلما يكون من

الضروري أن نقدم أمثلة إضافية لأننا نستطيع جميعاً أن نجد كثيرًا منها إذا أمعنا النظر في أنفسنا وفي من حولنا.

هناك استثناء ظاهر لهذا الافتقار إلى التوجه الواضح. يُظهر الأشخاص العصابيون أحيانًا عزمًا ما إذا مسلك واحد مثيرًا للغرابة. فقد يضحى أناس بكل شيء حتى بكرامتهم الشخصية من أجل طموحهم وقد لا تتمنى نساء شيئًا آخر من الحياة غير الحب، وقد يكرّس بعض الآباء كل اهتمامهم لأبناءهم. ويعطي مثل هؤلاء الأشخاص انطباعًا عن الإخلاص النابع من القلب ولكن كما سبق أن عرفنا فهم في الواقع يلاحقون سرابًا يبدو أنه يقدم حلاً لصراعاتهم. إنّ الإخلاص الظاهر صنعة نابعة عن القنوط أكثر من كونها نابعة عن الكمال.

لا تكون الحاجات والاندفاعات وحدها مسؤولة عن استهلاك وتبديد الطاقات. إذ إن لعوامل أخرى في البنية الواقية الأثر نفسه. وهناك إغفال ساحات كاملة من الشخصية بسبب كبح جواب من الصراع الأساس. تظل هذه الجوانب مفعمة بالنشاط بما يكفي للتأثير ولكن ليس من المستطاع توجيهها نحو غرض بناء. لهذا السبب تؤلف العملية فقدانًا للطاقة يمكن أن يستخدم لتوكيد الذات والتعاون أو لغرض توطيد أو اصر إنسانية حسنة. ثم هناك الانسلاخ عن الذات الذي يسلب من شخص ما قوته المحركة. بوسع هذا الشخص أن يظل عاملاً مفيدًا وقادرًا على بذل جهد لا يستهان به حينما يتعرض

لضغط خارجي غير أنه ينهار حالما يترك لوسائله الشخصية. لا يعني هذا بأنه لا يستطيع القيام بشيء بناءً أو تمتع وقت فراغه بل يعني أن جميع قواه الخلاقة قد تذهب أدراج الرياح.

في معظم الأحيان، تتحد عوامل متنوعة من أجل خلق مساحات واسعة تتميز بالكبت الشامل. ويتعين علينا كي ننفهم ونزيل كبتاً معيناً أن نعود إليه المرة تلو الأخرى معنيين النظر فيه من جميع الزوايا التي كنا قد ناقشناها.

من المحتمل أن ينجم تبديد الطاقة أو سوء توجيهها عن اضطرابات رئيسة ثلاثة تشكل جميعاً أعراضاً مرضية للصرعات غير المصرّفة. يتمثل أحدها في التردد العام. قد يكون هذا متفشيّاً في كل شيء بدءاً من الأشياء التافهة ووصولاً إلى شؤون شخصية ذات أهمية قصوى. فقد يكون هناك تذبذب لا حد له لهذا اللون من الطعام أو ذاك أو شراء حقيبة السفر هذه أو تلك والذهاب إلى السينما أو الإصغاء إلى المذياع. قد يكون من المحال التصميم على مهنة ما أو على أية خطوة ضمن إحدى المهن أو في المفاضلة بين امرأتين أو في التصميم للحصول أو عدم الحصول على الطلاق أو على الموت أو الحياة. إن القرار الذي يجب أن يتخذ والذي يتعذر إلغاؤه يمثل محنة حقيقية قد تترك إنساناً مصاباً بالهلع وفي حال إعياء.

رغمًا عن كون ترددهم واضحًا فالناس غالبًا غير واعين به لأنهم يبذلون قصارى جهدهم لا شعوريًا لتجنب اتخاذ قرار. إنهم يماطلون

و«لا يتهيأ لهم» إنجاز الأشياء فحسب وقد يسمحون لأنفسهم بأن تسيرها الصدف تاركين القرار لشخص آخر. وقد يجربون النقاط الحيوية في المسائل بدرجة من الغموض لا تترك أساسًا يستند إليه للبت في شأنها. إنَّ انعدام التوجه الذي يعقب ذلك لا يظهر جليًا للشخص نفسه عادة. كما أن الوسائل العديدة اللاواعية المستخدمة في التمويه على التردد المنتشر تعلل الندوة النسبية لاستماع المحللين لشكاوى ترتبط بما هو - في حقيقته - اضطراب شائع.

يتمثل مظهر آخر من مظاهر الطاقات المجزأة في وجود خمول شامل. إنني لا أقصد هنا عدم البراعة في حقل معين قد يكون سببه الافتقار إلى التدريب أو نقص الاهتمام بالموضوع. كما أنه ليس قضية طاقات غير مستغلة مثل تلك التي يصفها وليم جيمس في بحث ممتع.

مشيرًا إلى الحقيقة في أن خزينًا من الطاقة يصبح متوفرًا حينما لا يستسلم المرء لأي من صور الإعياء أو تحت ضغط الظروف الخارجية. إن الخمول في هذا الصدد ينتج عن عجز الشخص عن بذل قصارى جهده بسبب تياراته الباطنية المتضاربة. وذلك يماثل قيادة سيارة مع الضغط على الكابح إذ لا مفر من أن تنخفض سرعة السيارة. يمكن أن ينطبق هذا حرفيًا في بعض الأحيان. فكل شيء يحاوله المرء قد ينفذ بصورة أشد بطئًا مما قد تبرره قدراته أو الصعوبة الكامنة في المهمة. ليس لكونه لا يبذل جهدًا كافيًا بل على العكس

إذ عليه أن يبذل جهدًا مغاليًّا فيه في أي عمل يؤديه. وقد يستغرق ساعات مثلًا في تدوين تقرير بسيط أو في إتقان أداة يدوية بسيطة. إن ما يعرقل أمره بالضبط يختلف طبعًا، فقد يعلن العصيان لا شعوريًا ضمن ما يشعر به كإكراه وقد يساق إلى تحسين كل تفصيل دقيق وهو يتميز غيظًا ضد ذاته كما أشرنا سابقًا، وذلك لأنه لم يُبلِّ حسنًا في المحاولة الأولى. لا يظهر الخمول في التباطؤ فحسب، بل في الارتباك أو في النسيان أيضًا. فلا تؤدي خادمة أو ربة بيت عملها بكفاءة إذا كانت تشعر سرًّا أن من الظلم أن يتعين عليها القيام بعمل وضع وهي موهوبة. كما لن يقتصر خمولها على هذه الفعالية بالذات بل ستتخلل جميع مساعيها. هذا يعني من وجهة النظر الشخصية العمل المجهد وفي النهاية سوف تشعر بالإرهاك وبالحاجة للنوم الكثير. إن أي نوع من العمل تحت هذه الظروف يؤدي لأن يسلب جزءًا أكبر من المرء مثلما ستتضرر المركبة إذا سارت وكوابحها في حالة الإقفال.

لا يظهر الإجهاد الباطني والخمول في العمل فقط بل بدرجة ملحوظة في التعامل مع الناس أيضًا. فإذا كان أحدهم يرغب أن يكون ودودًا غير أنه في الوقت ذاته يمتعض من الفكرة لأنه يشعر بأنها مجرد مداهنة، فسيكون متكلفًا. وإذا رغب في طلب شيء ما لكنه كان يشعر أيضًا بأن ذلك حقُّ له عندها سيكون فظًا. أما إذا كان يرغب في تأكيد ذاته وظن أنه يساير أيضًا فحينها سيكون مترددًا. وإن كان يرغب بالاتصال بالناس لكنه يتوقع الرفض فسيكون

حينها جبانًا؛ وإذا كان يرغب في ممارسة علاقات جنسية لكنه يريد أيضًا أن يشعر رفيقته بالإحباط فسوف يكون فاترًا جنسيًا وهكذا. كلما كانت التيارات المتقابلة شاملة كان إجهاد الحياة أعظم.

يكون بعض الأشخاص على وعي بمثل هذا الإجهاد الباطني ويصبحون في غالبيتهم على وعي به فقط حينما يتزايد تحت ظروف خاصة. كما يلفت نظرهم أحيانًا في المناسبات القليلة التي يستطيعون خلالها الاسترخاء حيث يشعرون بالراحة ويصبحون عفويين.

وهم من ينسبون الإعياء الناشئ عادة إلى عوامل أخرى بصفتها المسؤولة: كبنية هزيلة أو زيادة في حجم العمل أو افتقار إلى النوم. إن أيًا من هذه قد تلعب دورًا بالفعل، لكنه دور أقل شأنًا بكثير مما يظن في حقيقة الأمر.

ثالثًا تؤلف العطالة الشاملة عرضًا مرضيًا من الاضطراب المعني بالشأن. أحيانًا يتهم المرضى أنفسهم بالكسل لكنهم واقعيًا لن يستطيعوا أن يتكاسلوا وينعموا بذلك. قد يكون لديهم مقت شعوري لبذل المساعي من أي نوع كان وقد يبررونه بالقول أنه يكفيهم فخرا أن يمتلكوا الأفكار وأن من واجب الآخرين تنفيذ «التفاصيل» أي إنجاز العمل. قد يبدو كرههم لبذل الجهد أيضًا بصورة خوف من أن الجهد سيكون ضارًا بهم. يمكن أن يكون هذا الخوف مفهومًا في ضوء الحقيقة وهي أنهم يعلمون كم يتعبون بسهولة وقد يتصاعد هذا بنصيحة الأطباء الذين ينظرون إلى الإعياء بمعناه الظاهري.

تمثل العطالة العُصابية شللاً لروح المبادرة والأداء. وهي نتيجة الاغتراب عن الذات وفقدان التوجه نحو الأهداف بصورة عامة. فالتجربة الطويلة في بذل جهد متوتر غير مجد يترك المريض العُصابي في فتور همة شاملة بكل معنى الكلمة رغماً عن تحلل ذلك أحياناً بفترات من النشاط المحموم. تؤلف الصورة المثلى والنزعات السادية عاملين من ضمن العوامل المتميزة التي تساهم فيها. قد يشعر الشخص العُصابي أن حقيقة حاجته إلى بذل جهد ما هي الدليل على أنه لا يمثل صورته المثلى، بينما يبدو الأمل في القيام بشيء عاديّ رادعاً إلى درجة عظيمة بحيث يفضل ألا يقوم به إطلاقاً، بل يمكنه إنجازَه فقط في مخيلته على نحو رائع.

ويسلبه احتقار الذات المزعج الذي تحدّثه الصورة ثقته بنفسه ولا يكون بوسعُه أن يفعل أي شيء جدير بالأهمية. فيختفي كل حافز وبهجة في العمل بهذه الوسيلة، كما لو كان ذلك وسط رمال متحركة. إن النزعات السادية في صورتها المكبوتة (السادية والارتكاسية) تجعل الشخص يتقهقر متراجعاً عن كل شيء يبدو كعدوان، مع النتيجة في أن ما يتلو ذلك قد يمثل شللاً نفسياً كاملاً قل أم كثر. تكون العطالة الشاملة ذات دلالة خاصة بها لأنها لا تطغى على الأداء فحسب بل على المشاعر كذلك. وتكون الطاقة المبددة بسبب الصراعات العُصابية غير المصروفة عظيمة لا يمكن أن تُسبر أغوارها. وبما أن أمراض العُصاب هي نتاجات حضارة

ما، فسيبرز مثل هذا الضياع للمواهب والخواص الإنسانية كاتهام خطير لتلك الحضارة.

لا يستلزم التعايش مع الصراعات غير المصرّفة تبديداً للطاقات فحسب بل تمزيقاً في شؤون ذات طبيعة خلقية أيضاً أي المبادئ الخلقية والمشاعر جميعها والمواقف والتصرفات التي تؤثر في علاقات المرء مع الآخرين كما تؤثر في تطور المرء الخاص. وكما هو شأن الطاقات فالتجزئة تقود إلى الخسارة وهكذا فهي تؤدي فيما يتعلق بالقضايا الخلقية إلى ضياع المصادقية الخلقية أو بعبارة أخرى إلى إفساد السلامة الخلقية. يحدث مثل هذه التعويض نتيجة الأوضاع المتناقضة المتقمصة وكذلك نتيجة محاولات إخفاء طبيعتها المتناقضة.

تظهر مجموعات من القيم الخلقية المتضاربة في الصراع الأساس. ورغماً عن جميع المحاولات في جعلها متناغمة فهي تظل نشطة جميعها. هذا يعني أن لا أحد فيها يؤخذ أو يمكن أن يؤخذ بصفة جديدة. فالصورة المثلى مع كل ما تتضمنه من عناصر ومثل صادقة فهي أساساً تمثل زيفاً وتكون صعبة في تمييزها عن الشيء الحقيقي على الشخص نفسه أو المراقب غير المدرب، مثلما يكون التمييز صعباً بين ورقتي نقد إحداهما مزيفة والأخرى حقيقية. وكما كنا قد رأينا، فالشخص العصابي قد يعتقد وبحسن نية بأنه يتبع مثلاً ما وقد ينتقد نفسه عن كل هفوة ظاهرة وبهذا يعي انطباعاً لتحسسه الفائق في ملاحقة معاييرهِ أو قد يُسكر نفسه بالتفكير والتحدث عن القيم

والمثل. ومن المؤكد أنه بالرغم من ذلك فهو لا يأخذ مثله مأخذ الجد وهذا يعني أنها لا تمتلك سلطناً ملزماً بالنسبة لحياته. فهو يطبقها عندما يكون من اليسير أو المفيد له أن يفعل ذلك، بينما هو يجربها بصورة مريحة في أحيان أخرى، وقد رأينا أمثلة من هذه أثناء بحثنا فيما سُمي بالبقاع المظلمة والتجزئة ضمن أقسام، وتلك أمثلة سوف لن تصدق في حال الأشخاص الذين حملوا مثلهم على محمل الجد.

وإلا فإن كانت المثل أصيلة فهل كان من الممكن أن يُضرب بها عرض الحائط بطريقة سهلة كما في حالة ذلك الشخص الذي يدعي تكريس نفسه بحماس لمبدأ ما غير أنه ينقلب خائناً حالما يتعرض للمغريات؟

بصورة عامة تبدو سمات إفساد السلامة الخلقية في نقص الإخلاص وزيادة الأنانية الذاتية، ومن الممتع أن نلاحظ في هذا المجال أن الإخلاص في كتابات زين بوديست يتعادل مع الصدق وهو يشير إلى النتيجة نفسها التي نتوصل إليها بالملاحظة السريرية، أي أنه ليس بوسع الشخص المنقسم في قرارة نفسه أن يكون مخلصاً كلياً.

- الناسك: إنني أعلم حينها يمسك الأسد بغريمه إن كان هذا أرنباً برياً أو فيلاً فهو يبذل جهداً مضنياً من قوته؛ فأخبرني من فضلك ما هي هذه القوة؟

- السيد: إنها روح الإخلاص (أو في الواقع هي قوة عدم المخاتلة).

إن الإخلاص، أي عدم المخاتلة، يعني «بذل كيان المرء كاملاً» وهو ذائع فنيًا على أنه «كيان بأكملة في حال الأداء»... حيث لا يبقى على شيء منه احتياطًا ولا يعبر عن شيء منه تمويهًا إذ لا شيء منه يذهب هباءً. حينها يجيا المرء حياة كهذه يقال عنه أنه أسد ذهبي الشعر، وأنه رمز الرجولة والإخلاص والصدق، وأنه إنسان قدسي. إن الأنانية مشكلة خلقية بمقدار ما تتضمنه من جعل الآخرين يتبعون لحاجات المرء الشخصية. فبدلاً من أن يعتبروا ويعاملوا على أنهم بطبيعتهم الشخصية كائنات بشرية فإنهم يستحيلون إلى مجرد وسيلة لغاية من الغايات. فينبغي أن يُستحالوا أو يُجبروا لتخفيف قلق المرء الشخصي. إذ يجب أن يتكون لديهم انطباع للإشادة باحترام المرء الذاتي لنفسه، ويتعين أن يلاموا لأن أحدهم لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية نفسه أو أن يغلبوا على أمرهم بسبب الحاجة الشخصية للانتصار وهكذا.

إن الوسائل الخاصة التي تبرز فيها هذه المعوقات تتنوع بتنوع الأفراد. وكان معظمها قد نوقش في بعض المجالات الأخرى وهو بحاجة لأن يراجع هنا بصورة أكثر تنظيمًا فحسب. لن أحاول أن أتحدث هنا بإسهاب، لأن ذلك سيكون شاقًا. إننا لم نكن قد بحثنا النزعات السادية وأجلنا البحث فيها لأنها تعتبر مرحلة نهائية

في التطور العُصابي. فمهما كان المسار الذي يتخذه أحد أمراض العُصاب في بدايته، فإن الادعاءات اللاواعية دائماً ما تؤلف عاملاً من العوامل. إن البارزة منها هي كما يلي:

ادعاء الحب إن الاختلافات في المشاعر والجهود الحثيثة التي يمكن أن تشمل بتعبير الحب أو التي يتم الشعور بها شخصياً على أنها كذلك تثير الدهشة الشديدة. فقد يشمل الآمال الطفيلية لأحد الأشخاص ممن يشعر أنه ضعيف بحيث يصعب عليه أن يحيا حياته الذاتية.

وقد يشمل في صورته الاعتدائية كثيراً الرغبة في استغلال الرفيق وفي الظفر بالنجاح والتميز والنفوذ. قد يعبر الحب عن حاجة لقهر شخص ما والانتصار عليه أو الاندماج مع شريك والعيش من خلاله ربما بطريقة سادية. وقد يعني حاجة للحصول على الإعجاب وبهذا يضمن التأكيد على صورة المرء المثلى. وللسبب نفسه في أن الحب في مدينتنا قلما يمثل حنواً أصيلاً تسود الخيانة وسوء المعاملة. بعدئذٍ نشير إلى أن الحب ينقلب إلى احتقارٍ وكره أو عدم اكتراث. ولكن الحب لا ينقلب على عقبه بسهولة تامة. إذ تكون الحقيقة أن المشاعر والمساعي التي نمت وسط حب زائف تطفو على السطح في نهاية الأمر. ولا حاجة للقول أن هذا الادعاء يفعل فعله في علاقة الآباء بالأبناء وفي الصداقة وفي الصلات الجنسية كذلك.

ادعاء الطيبة أو الإيثار أو العطف وأشياء أخرى تكون متجانسة مع ادعاء الحب. إنه يمثل صفة النمط المطاوع وهو يعزز بنوع

خاص من الصور المثلى وكذلك بالحاجة لحجب جميع الاندفاعات العدوانية.

ادعاء العناية والمعرفة يكون في أوج وضوحه عند أولئك الذين يغتربون عن انفعالاتهم ويظنون أن الحياة يمكن أن يؤخذ بزمامها بالفكر وحده. فيتعين عليهم أن يتظاهروا أنهم يعلمون كل شيء وأنهم يهتمون بكل شيء لكنه يبدو أيضًا أشد مكرًا عند أشخاص يظهر عليهم أنهم مكرسون لخدمة مهنة معينة فيستخدمون هذا الاهتمام ودون وعيٍ منهم لأجل الارتقاء للنجاح والسلطة أو لغرض المنفعة المادية.

يتوفر ادعاء الاستقامة والإنصاف في الغالب عند النمط العدواني ولا سيما عندما تكون للمرء نزعات سادية بارزة. فهو يدرك المرامي الخفية عبر ادعاءات الحب والطيبة لدى الآخرين ويظن أنه بسبب عدم انضمامه لمظاهر النفاق المتداول المرتبط بالكرم الظاهري أو الوطنية أو التقوى أو غيرها من الصفات يظن بأنه نزيه بشكل خاص. ففي الواقع إن لديه نفاقه الخاص الذي هو من طراز مختلف. ربما كان عدم وجود الأهواء المتداولة لديه يمثل احتجاجًا مستترًا أو سلبياً ضد القيم التقليدية. إن قدرته على قول «لا» قد لا تمثل قوة بل رغبةً في إحباط الآخرين. وقد تكون صراحته رغبةً في الاستهزاء والتحقير. وقد تكمن الرغبة في الاستغلال خلف مصلحة الذات المشروعة التي يقرّها.

يجب أن يناقش ادعاء المعاناة بإسهاب أعظم بسبب الآراء المضطربة التي تتداول حوله. يشارك المحللون النفسيون المتشددون والمتمسكون بنظريات فرويد الرجل العادي في الاعتقاد بأن الشخص العُصابي يرغب أن يشعر بالأذى وأنه يريد أن يقلق وأن لديه حاجات لأن يعاقب. إن الفكرة السائدة بأن الشخص العُصابي يريد أن يشقى هي فكرة معروفة تمامًا.

لكن التعبير يغطي في الواقع أنواعًا من المغالطات الفكرية. إذ يفشل المؤلفون الذين يقدمون النظرية في إدراك أن الشخص العُصابي يعاني أكثر بكثير مما يعرفه وأنه يصبح عادة على وعي بمعاناته عندما يبدأ باسترداد عافيته فحسب. يتمثل ما هو أوثق صلة بالموضوع في أنهم كما يبدو لا يدركون أن لا مفرًا من المعاناة من الصراعات غير المصرفة لأنها مستقلة تمامًا عن رغبات المرء الشخصية. فإذا ترك الشخص العُصابي نفسه تتجه نحو الانهيار فمن المؤكد أنه لا يُحدث مثل هذا الضرر لنفسه وحدها لأنه يرغب فيه بل لأن الضرورات الباطنية تفرض عليه أن يفعل ذلك. فإن كان من النمط الذي يمحو ذاته ويبيدي استعداداته لتقديم الخد الآخر، فهو -على الأقل شعوريًا- يكره أن يفعل ذلك ويحتقر ذاته لهذا السبب، غير أنه يشعر بذعر لا مثيل له بسبب مشاعره العدوانية الشخصية التي يتوجب عليه المضي نحو الطرف المقابل تاركًا نفسه تُظلم بطريقة أو بأخرى.

إن الميزة الأخرى التي كانت قد ساهمت في مفهوم النزوع إلى الشقاء هي الميل للمبالغة أو التعبير بطريقة مسرحية عن أية بلوى. في الحقيقة إن الشقاء قد يلمس ويعرض للعيان بسبب دوافع بعيدة. فقد يمثل ذريعة للفت الانتباه أو للصفح، وقد يستعمل لا شعوريًا لأغراض الاستغلال، وقد يكون تعبيرًا عن الحقد المكبوت فيستخدم بعدئذٍ كوسيلة من أجل إيقاع العقوبات. هذه هي السبل الوحيدة المفتوحة أمام الشخص العصابي، في ضوء تراكماته الذاتية بغية تحقيق غايات معفية. وصحيح أيضًا أنه غالبًا ما يعزي شقائه لأسباب مزيفة وهكذا يعطي الانطباع في أنه يتمرغ في شقائه دون أي سبب وجيه. لهذا فقد يكون مهمومًا بشعوره بأنه «آثم» بينما هو يقاسي في الواقع من كونه لا يمثل صورته المثلى. أو قد يشعر بالضيق حينما يفارق شخصًا يحبه، ورغم أن إحساسه يُعزى لحبه العميق إلا أنه في الحقيقة وبسبب تمزقه في قرارة نفسه لا يستطيع تحمل الحياة وحيدًا. قد يُزيّف عواطفه ويظن أنه يشقى بينما يكون في الواقع يضطرم غيظًا. قد تقاسي إحدى النساء لأن حبيبها لم يبعث لها برسالة في الموعد المتفق عليه ولكنها في الحقيقة غاضبة لأنها تمنى أن تجري الأمور كما توقعها تمامًا أو لأنها تشعر بالمهانة لأنها لم تكن في موضع الاهتمام. هنا يُفضّل الشقاء بصورة لا شعورية على الاعتراف بالغيظ وبالدوافع العصبية المسؤولة عنه ويؤكد عليه لأنه يغطي على الازدواجية المتصلة بالعلاقة كلها. وعلى كل حال، ليس

من المستطاع في أي من هذه الأمثلة أن نستدل بأن الشخص العصابي راغب في الشفاء. ولكن ما يعبر عنه هو ادعاء لا واعٍ بالشفاء.

يتمثل خلل معين آخر في نشوء عجرفة لا واعية. وتعني هذه انتحال سجايا للذات لا يمتلكها المرء أو أنه يمتلكها بدرجة أقل مما يدعيه، كما تعني المطالبة لا شعوريًا بحقه في أن يكون مهيمًا وشاعرًا بالازدراء تجاه الآخرين. إن كل عجرفة عصابية لا شعورية تنمو بسبب أن الشخص لم يع أية ادعاءات مزيفة. ليس الاختلاف في هذا الموضع بين عجرفة واعية وغير واعية بل بين واحدة بارزة وأخرى مخفية وراء تواضع جم وسلوك مبرر. يقبع الفرق في مدى العدوان المتيسر أكثر منه في مدى العجرفة الموجودة. في الحال الأولى يطالب أحد الأشخاص بامتيازات خاصة علنًا وفي الأخرى سيشعر بالألم إن لم تقدم إليه عفويًا. إن ما يبدو مفقودًا في أي من الحالين هو ما قد يسمى بالتواضع الواقعي أي الإدراك لما يقيد الكائنات البشرية عمومًا ولما يخص المرء شخصيًا. إن كل مريض حسب خبرتي ينفر من التفكير أو الاستماع إلى أي قصور قد ينطبق عليه. يصدق هذا بصورة خاصة لحال المريض ذي العجرفة الخفية. فهو سيميل لأن يؤنب نفسه بقسوة لكونه قد أغفل شيئًا على الاعتراف سوية مع القديس پول أن «معرفتنا تكون تدريجية». بعكس ذلك سيفضل اتهام نفسه لأنه كان مهملاً أو كسولاً على الاعتراف أن ليس هناك من هو بوسعه أن يكون منتجًا بشكل

متساوٍ في كل الأوقات. إنَّ الدلالة الأعظم تأكيدًا على وجود العجرفة الخفية تتمثل في التناقض الظاهر بين اتهام الذات مع موقفها الشديد الاعتذار والإثارة الباطنية التي تصاحب أي نقدٍ أو تجاهل من الخارج. في الغالب يتطلب الأمر ملاحظة دقيقة لاكتشاف هذه المشاعر الموجهة، إذ أن من المحتمل أن يقوم بكتبتها النمط الشديد التواضع. إنه في الواقع قد يكون كثير المطالب تمامًا مثلما يكون الشخص المتعجرف بصورة علنية. كذلك لا يكون انتقاده للآخرين أقل مرارة رغم أن ما يطفو على السطح قد يمثل إعجابًا مزيلاً للذات فحسب. وهو يتوقع سرًا الكمال نفسه لدى الآخرين مثلما يتوقعه هو في ذاته مما يعني أنه يفتقر إلى الاحترام الحقيقي للشخصية الفردية الخاصة بالآخرين.

تتمثل المشكلة المعنوية الأخرى في عدم القدرة على اتخاذ موقف محدود وما يرافقه من عدم الثقة. قلما يتخذ الشخص العُصابي موقفًا من المواقف طبقًا للفضائل الموضوعية التي تتعلق بأحد الأشخاص أو بفكرة أو بمبدأ بل غالبًا ما يكون ذلك على أساس حاجاته العاطفية الخاصة. وبسبب كون هذه متناقضة لذا يمكن بسهولة استبدال حال بأخرى بسهولة. من هذا المنطلق يمكن أن يحمل العديد من الأشخاص العُصابين على تغيير آرائهم بيسر - كما لو أنهم يُرشون لا شعوريًا - بإغراء يتمثل في حنو أكبر أو مقام أعظم أو تقدير أو سلطة أو «حرية» أعظم.

ينطبق هذا على كل علاقاتهم الشخصية إن كانت هذه فردية أو بصفتها جزءاً من جماعة من الجماعات. وهم في الغالب لا يستطيعون إلزام أنفسهم بشعور أو فكرة معينة تجاه شخص آخر.

فقد يغيّر رأيهم بعض الشائعات المشكوك فيها. وقد يكون بعض الاستخفاف أو خيبة الأمل أو ما يلمس على أنه كذلك سبباً كافياً للتخلي عن «صديق مهم جداً». وقد تحيل بعض الصعاب حماسهم هذا إلى فتور همة. كما قد يغيرون أفكارهم الدينية والسياسية أو العلمية بسبب بعض الصلات أو الامتعاض الشخصي. وربما يتخذون موقفاً من المواقف في حديث خاص غير أنهم يتراجعون تحت أي ضغط من قبل سلطة أو جماعة دون أن يعلموا في الغالب لماذا غيروا رأيهم أو إن كانوا حقاً قد فعلوا ذلك.

قد يتجنب الشخص العصابي لا شعورياً التردد الواضح بعدم استقراره على قرار ما في المقام الأول من خلال «الجلوس على التل» تاركاً جميع الخيارات قائمة. وقد يسوغ مثل هذا الموقف عن طريق الإشارة إلى الملابس الواقعية للوضع أو قد يكون مقيداً من قبل «كياسة» قسرية. مما لا ريب فيه أن الكفاح الأصيل لتحقيق العدالة شيء ثمين. كما أن رغبة الضمير الحي في جعل المرء عادلاً لا تسهل له اتخاذ موقف محدد في كثير من الأحوال ولكن العدالة يمكن أن تكون جزءاً مفروضاً للصورة المثلى ووظيفة العصابي حينئذ، هي كون اتخاذ موقف ما أمراً غير ضروري، بينما يتيح للشخص في الوقت

نفسه، الشعور بأنه «منسجم» لكونه فوق أساليب الكفاح البين. في هذه الحالة، هناك ميل في صعوبة التمييز بفكرة الاعتقاد، بأن اثنتين من وجهات النظر ليستا في الحقيقة متناقضتين جدًا، أو وجود حق لكلا الطرفين في نزاع من النزاعات. إنها أمور موضوعية كاذبة تلك التي تمنع شخصًا ما من تمييز نقاط الخلاف الجوهرية لأي مشكلة.

هناك فوارق عظيمة حول هذا الشأن بين مختلف أنواع أمراض العُصاب. يمكن أن يتوفر أعظم قدر من الموضوعية لدى أولئك الأشخاص المنعزلين ممن كانوا قد ظلوا خارج دوامة المنافسة والارتباطات العُصابية والذين لا ينجذعون بسهولة عبر «الحب» أو الطموح. كذلك يتيح لهم موقفهم موقف المتفرج تجاه الحياة موضوعية كبيرة في أحكامهم في الغالب. غير أنه لن يتوفر لكل شخص منعزل أن يستقر على موقف من المواقف. فقد يكره الجدل أو الالتزام لأنه لا يتخذ وضعًا محدودًا حتى في ذهنه الخاص بل هنا تختلط لديه نقاط الخلاف، أو في أفضل الأحوال يتذكر الخير من الشر والصواب من الخطأ دون التوصل إلى قناعة خاصة به.

يبدو النمط العدواني من جهة أخرى على النقيض مع التحقق بأن الشخص العُصابي كأمر ثابت يواجه صعوبة في اتخاذ موقف من المواقف. فهو يبدو شديد الميل للاستقامة الصارمة وليس ممتلكًا لقابلية غير عادية نحو الآراء المحدودة ومدافعًا و متمسكًا بها. لكن المظاهر خادعة، فحينها يكون هذا النمط واضحًا فالحال تعني غالبًا

اعتداده برأيه أكثر من أنه يمتلك قناعات أصيلة. ستتصف آراؤه بأنها ذات ميزة جزمية أو متعصبة لأنها تحدّ من كل الريب النابعة في دخيلة نفسه، وفوق هذا فهو يمكن أن ينخدع ببعض المغريات. كما تقتصر إمكانية الثقة لديه على بعض دوافعه في التسلط والظهور.

يمكن أن يكون موقف الشخص العصابي من المسؤولية غامضًا. يرجع هذا جزئيًا إلى الحقيقة في أن الكلمة ذاتها تمتلك معانٍ مختلفة. قد تشير إلى الضمير الواعي في تنفيذ الواجبات أو الالتزامات. إذا كان الشخص العصابي مسؤولاً بهذا المعنى فإن ذلك يعتمد على بنيته الخلقية الشخصية؛ إنه أمر لا تشترك فيه جميع أمراض العصاب. وقد تعني المسؤولية تجاه الآخرين الإحساس بالمسؤولية عن أفعال المرء الشخصية بقدر ما تؤثر هذه شخص آخر لكنها قد تمثل أيضًا وسيلة السيطرة على الآخرين. حينها تعني المسؤولية إلزام المرء وتحمله اللوم يومئذ قد تصبح مجرد تعبير عن الغيظ لأن المرء لا يمثل صورته المتكاملة وهي بهذا المعنى لا علاقة لها بالمسؤولية الحقيقية.

فإذا كنا على بينة تمامًا مما يقصد بتحمل المسؤولية تجاه الذات فسوف نفهم أنه من الصعب، إن لم يكن مستحيلًا، تحملها من قبل أي شخص عصابي. إنها تعني في المقام الأول الاعتراف بالأمر الواقع وبنوايا المرء وكلماته أو أفعاله وبكونه راغبًا في تحمل العواقب، سيكون هذا نقيض الكذب أو إلقاء التبعة على الآخرين. سيكون تحمل المسؤولية بهذا المعنى شاقًا للشخص العصابي لأنه كأمر ثابت

لا يعرف ماذا أو لماذا يفعل ذلك ولديه مصلحة شخصية قوية في جهله هذا. لذلك السبب يحاول في الغالب التخلص من الخطأ بالإنكار والنسيان والاستخفاف وبتقديم دوافع أخرى بصورة غير متعمدة شاعرًا بأنه قد أسيء فهمه أو أنه أصيب بالارتباك.

و بسبب ميله لاستثناء نفسه أو إبعادها من التبعية فسيفترض فورًا أن زوجته أو شريكه في العمل أو محلله النفسي هم المسؤولون عن ظهور أية مصاعب. وفي الغالب يساهم عامل آخر في عدم قدرته على تحمل عواقب أفعاله أو حتى في أن يراها، ويتمثل ذلك في إحساس خفي يتصل بالقدرة الثابتة وعلى أساسه يتوقع أن يفعل ما يشاء ويتملص مما يشاء. إن إدراك العواقب التي لا بد منها سيقترض هذا الإحساس. ويبدو أحد العوامل الأخيرة ذات الصلة بالموضوع لأول وهلة على أنه عجز ثقافي عن التفكير بصيغة السبب والنتيجة. وبشكل عام يعطي الشخص العُصابي انطباعًا عن كونه قادرًا فطريًا على التفكير بأسلوب الخطأ والعقاب. ويشعر كل مريض تقريبًا أن المحلل ينحي عليه باللائمة عندما يواجهه هذا في الحقيقة بمصاعبها وعواقبها. وقد يشعر عندما يكون خارج التحليل النفسي بأنه كمتهم واقع تحت تهديد الريبة والتهجم ولذلك يكون في حال دفاع دائمة. وفي حقيقة الأمر إن هذا تخريج متعلق بأمور نفسية متداخلة. إن الأصل الذي تنشأ عنه الشكوك والنوبات يتمثل في صورته الشخصية المثلى مثلما رأينا. إن ما يجعل صعوبة تصويره

لعلاقة السبب والنتيجة متى اتصل الأمر بذاته، كونه يكمن في تلك العملية الباطنية في البحث عن العيوب والدفاع عنها إضافة إلى تخريجها. وعندما تختفي مصاعبه، فإن بوسعه أن يكون واقعياً كأبي شخص آخر تماماً. فإذا ابتلت الطرقات بفعل المطر فهو لن يسأل عن المسبب بل يتقبل الأمر بسهولة.

حينما نتحدث عن تحمل المسؤولية عن الذات فإننا نقصد بالإضافة لذلك القدرة على الثبات إلى جانب ما نعتقده صواباً والرغبة في تحمل العواقب إن ثبت أن فعلنا أو قرارنا كان مغلوطاً. ويكون هذا من الصعوبة بمكان أيضاً حينما يكون المرء منقسماً على نفسه من جراء الصراعات. إذًا، لأي نزعة من النزعات المتعارضة في ذاته ينبغي عليه أو يكون بوسعه أن يثبت؟ إن أيا لا يمثل ما يريده أو يؤمن به حقاً. وهو يستطيع فعلاً أن يركض إلى صورته المثلى فحسب. وهذه لا تسمح له بإمكانية الوقوع في الخطأ. من هنا كان عليه لو قاده عمله إلى مشكلة أن يزيّف الأمور منحياً باللائمة على شخص آخر.

ثمة مثال بسيط سيوضح هذه المعضلة. يتحرق أحد الرجال شوقاً ليرأس مؤسسة ما أو يكون من ذوي النفوذ الواسع. فلا شيء يمكن أن يجعله يقنع نفسه بتكليف الواجبات للآخرين ممن كانوا أفضل استعداداً للتعامل مع شؤون معينة بسبب تدريبهم الخاص. إذ ليس هناك من شيء يجهره حسب وجهة نظره الخاصة. وفوق ذلك فهو

لا يريد لأي شخص آخر أن يصبح مرموقاً مثله. كما سيكون من المستحيل مواكبة آماله حتى وإن كان ذلك بسبب نقص في الزمن أو الطاقة. لكن هذا الرجل بالذات لا يريد أن يتسلط فحسب فهو مطاوع أيضاً وبحاجة لأن يكون رجلاً فاضلاً بصورة تفوق قدرة البشر. ونتيجة لصراعاته غير المصرّفة فهو يمتلك كل الأعراض المميزة التي كنا قد وصفناها: كالعطالة أو الحاجة إلى النوم والتردد أو المراوغة ولذلك ليس بوسعه أن ينظم وقته. إنه يستمتع سرّاً في تلكؤ الناس بسبب شعوره أن المحافظة على المواعيد شيء لا يطاق وهو إضافة لذلك يقوم بأشياء كثيرة تافهة لمجرد أنها ترضي غروره. أخيراً إن حافزه في أن يكون رب عائلة وحريصاً يستنفد كثيراً من وقته وتفكيره. مما لا شك فيه بعد ذلك أن الأمور في المؤسسة لا تسير على خير ما يرام؛ لكنه لعدم رؤيته أي خلل في ذاته يلقي اللوم على الآخرين أو على الظروف غير المواتية.

دعنا نسأل الآن، أيّ جزء من شخصيته هو قادر على تحمل المسؤولية؟ هل بسبب ميله للتسلط أو ميله نحو المطاوعة والتهدئة وإرضاء ذاته؟ إبتداءً هو لا يعي أيّاً منها. غير أنه إذا كان يعيها فهو لن يستطيع الاعتماد على أحدها مطوّحاً بالأخرى بسبب كونها قسريتين. وفوق ذلك لا تسمح له صورته المثلى لأن يبصر أي شيء في ذاته باستثناء الفضائل الرائعة والقابليات الواسعة. من هنا لا يستطيع تحمل المسؤولية للعواقب الناجمة عن صراعاته. عند قيامه بذلك سيبدو واضحاً كل ما هو في شوق من أجل كتمانها عن ذاته.

يكون الشخص العُصابي عند التحدث بشكل عام في حال نفور من تحمل المسؤولية لعواقب أعماله، فهو يغمض عينيه حتى عن تلك التي تبدو بارزة جدًا. ولكونه غير قادر على التملص من صراعاته ويُصرّ -لا شعورياً- على أن يُوصف بالقوة مثلما هو ينبغي أن يكون قادرًا على مقارعة تلك الصراعات. فالعواقب كما يعتقد هو ربما تأخذ بتلايب الآخرين أما بالنسبة له فهي لا وجود لها. لهذا السبب يجب أن يواصل تفادي أي اعتراف بقوانين المسببات والنتائج. بوسع هذه أن تلقنه درسًا قويًا لأنه كان سيفتح لها آفاق ذهنه فحسب. إذ تبرهن له بطريقة لا سبيل إلى الخطأ فيها أن نظام حياته لا جدوى منه وأنه مع كل دهائه وسعة حيلته فهو لا قدرة له لأن يزحزح القوانين المؤثرة في حياتنا النفسية بالعناد عينه مثلما هي الحال في العالم الطبيعي.

في الحقيقة لا يمتلك موضوع المسؤولية كله إلا جاذبية ضئيلة بالنسبة له. فهو يبصر - أو يشعر بصورة مبهمة - جوانبها السلبية فحسب. وما لا يبصره وما يتعلم عن أن يقدره تدريجيًا هو كونه يحبط جهوده الكبيرة من أجل الاستقلال. إنه يأمل الفوز بالاستقلال من خلال إقصاء جميع الالتزامات بجرأة بينما يمثل تحمل المسؤولية بالنسبة لأي إنسان حالاً لا غنى عنها للحرية الباطنية الفعلية.

يلجأ الشخص العُصابي لأية وسيلة من ثلاث وسائل أو في الغالب جميعها كي لا يقرب بأن معضلاته وشقائه ينشأان بسبب مصاعبه الباطنية. قد يستعمل التخريج هذا إلى حدّ الشالة حيث

يلقي اللوم على كل شيء بسبب تناول الطعام والمناخ أو البنية الموروثة عن الأبوين أو الزوجة أو القدر حيث يعتبرها جميعًا مسؤولة عن الكارثة المعنية. أو قد يلجأ إلى الموقف الذي يشير إلى أنه بسبب عدم مسؤوليته عن أي خطأ فمن الظلم أن يصاب بأية مصيبة. من الظلم أن يمرض أو أن يكبر في السن أو أن يموت أو ألا يكون سعيدًا في زواجه أو يحظى بطفل متعب أو أن يظل مغمورًا. هذا النوع من التفكير والذي قد يكون واعيًا أو غير واع تفكير خاطيء بصورة مزدوجة لأنه لا يقصي قسطه الخاص من مصاعبه بل كذلك كل العوامل المستقلة عن ذاته والتي لها صلة بحياته. ومع ذلك فهو يمتلك منطقتًا خاصًا به. إنه يمثل التفكير النموذجي لكائن منعزل يدور حول ذاته كليًا ومن تحول أنانيته دون أن يرى ذاته كحلقة صغيرة في سلسلة أضخم.

وهو يعتبر ببساطة أن من المفروغ منه أن ينبغي أن يستمد كل أطايب العيش في وقت معين وفي نظام اجتماعي ثابت لكنه يمتعض من كونه مرتبطًا مع الآخرين خيرًا أو شرًا. لهذا السبب ليس بوسعه أن يرى لماذا ينبغي عليه أن يشقى من أي أمر لم يتورط هو فيه شخصيًا.

ترتبط الوسيلة الثالثة برفضه إدراك العلاقات بين السبب والنتيجة. إذ تبدو العواقب من وجهة نظره كأحداث منفصلة غير مرتبطة بذاته أو بمصاعبه. قد يبدو الانقباض أو الخوف من المرض

نازلاً عليه من السماء. وربما يعود هذا للجهل النفساني أو الافتقار للملاحظة. لكن بوسعنا أن نشاهد أثناء التحليل أن المريض يبدي أشد العناد في المقاومة ضد الاضطلاع بأية معرفة عن الصلات المتناهية في الدقة. فقد يظل ميالاً للشك أو النسيان، أو قد يشعر أن المحلل يلقي «اللوم» عليه ويحفظ ماء وجهه هو بلباقة بدلاً من إزاحة الاضطرابات المزعجة على عجل والتي حضر من أجلها. إذاً فربما يكون المريض قد أصبح على اطلاع بالعوامل المتعلقة بتعطله لكنه يوحد عقله دون الحقيقة الواضحة وهي أن تعطله هذا لا يؤخر تحليل نفسه فحسب بل كل شيء يقوم به. أو ربما يكون شخص آخر عالمًا بسلوكه العدواني المنتقض تجاه الناس غير أنه لا يستطيع أن يفهم لم تشتد لديه الخصومات ولم أنه لا يجب كثيرًا. إن هذه المصاعب توجد في قرارة نفسه هذا شيء ولكن مشاكله الواقعية من يوم لآخر هي شيء آخر. يمثل هذا العزل لمشاكله الباطنية وتأثيرها على حياته أحد الأسباب الرئيسة في الميل نحو التجزئة والتقسيم.

تكون المقاومة مخفية بعمق ضد إدراك عواقب الاتجاهات والدوافع العُصابية في أغلب أجزائها وقد يغفلها المحلل بسهولة لأن العلاقة السببية جلية جدًا بالنسبة له. وما لم يلفت نظر المريض إلى أنه يخفي عن ذاته العواقب وما لم يعرف لماذا يقوم بذلك فلن يكون باستطاعته أن يدرك إلى أي مدى يتدخل هو في حياته بالذات. إن الوعي بالعواقب يمثل أقوى العوامل الباعثة على الشفاء في التحليل

إذ إنه يطبع في ذاكرة المريض أنه لا يستطيع بلوغ الحرية أبدًا إلا بعد تغيير بعض الأشياء في قرارة نفسه بالذات.

إذا لم يكن من المستطاع بعد ذلك أن يلزم الشخص العُصابي بمسؤولية ادعاءاته وعجرفته وأنانيته وتهربه من المسؤولية فهل نستطيع التحدث بلغة «الأخلاقيات» أصلاً؟ ستثار الحجة بأننا كأطباء، بحاجة فقط إلى توجيه عنايتنا لعلة المريض ولعلاجه وأن «أخلاقياته» ليست من اختصاصنا. وسيكون واضحاً أن إحدى مميزات فرويد العظيمة كانت اضطرابه لطرح الموقف «الأخلاقي» جانباً والذي يبدو أنني أدعو إليه.

تعتبر مثل هذه المناظرات ذات طابع علمي، لكن هل يمكننا الدفاع عنها؟ هل نستطيع حقاً بحالة السلوك الإنساني أن نقضي أحكاماً ذات صلة بالصواب والخطأ؟ إذا قرر محللو النفس ما هو بحاجة إلى الفحص التحليلي وما ليس بحاجة لذلك ألا يسيرون حقاً على أسس الأحكام نفسها التي يرفضونها وهم يشعرون؟ هناك مجازفة في مثل هذه الأحكام الضمنية. فمن المحتمل أن تصدر إما على أساس شخصي بحت أو تقليدي بحت. لذلك فقد يشعر «المحلل أن لا حاجة لتحليل المغازلات لأحد الرجال بينما تستحق مغازلات أية امرأة إمعان النظر فيها أو إذا آمن بحياة نظيفة خارج دوافع الجنس فقد يقرر أن الإخلاص إن كان لدى الرجل أو المرأة بحاجة إلى التحليل النفسي. حقاً ينبغي أن تقرر الأحكام على ضوء

عُصاب المريض الخاص. إن القضية التي يتعين البت فيها هي إذا خَلَّف أحد المواقف لمريض ما عواقب وخيمة بتطوره أو بعلاقاته مع الناس. فإذا كان كذلك فالموقف خاطئ وبحاجة للمعالجة. ينبغي أن يعبر للمريض عن أسباب استنتاجات محلل النفس على نحو واضح لكي يتمكن من اتخاذ قراره بهذا الشأن.

و أخيراً ألا تتضمن الحجج أعلاه المغالطة نفسها التي تعشش في ذهن المريض أي أن الأخلاقيات هي قضية تقدير فحسب وليست في الأساس أمراً يرتبط بحقيقة مقرونة بنتائج. دعنا نأخذ العجرفة العُصابية كمثال. فهي توجد كحقيقة بغض النظر عما إذا كان المريض مسؤولاً أم لا. يعتقد المحلل أن العجرفة مشكلة بالنسبة للمريض يتعين أن يدركها وفي النهاية أن يتغلب عليها. فهل يتخذ هذا الموقف الحاسم لأنه كان قد تعلم في مدرسة دينية أن العجرفة إثم وأن التواضع فضيلة؟ أم هل يتحدد اجتهاده في أن العجرفة تبدو غير واقعية وأن لها عواقب مضادة لا بد أن يتحمل المريض عبأها وبغض النظر عن مسؤوليته؟ إن العواقب في حال العجرفة تقف حائلاً دون معرفة المريض لذاته وهكذا تمخذه تطوره. ويميل المريض المتعجرف إلى كونه غير منصف تجاه الآخرين أيضاً ولهذا مضاعفاته، ليس في تعريفه للاصطدامات مع الآخرين بين الحين والحين فقط بل في انسلاخه عن الناس عموماً أيضاً. وهذا لن يعمل إلا على إيغاله في عُصابه بصورة أعمق. لا يمتلك محلل النفس خياراً غير أن يهتم

بأخلاقيات المريض لأنها تنتج جزئياً عن عُصابه وتساهم جزئياً في الإبقاء عليه.

القنوط

أحيانًا يكون بإمكان الشخص العصابي أن يبدو راضيًا برغم صراعاته، فيستطيع أن ينعم بالأشياء التي يشعر أنه في حال انسجام معها. غير أن سعادته تتوقف على ظروف كثيرة جدًا من أجل السماح بحدوثها بين آونة وأخرى. فهو لن يُسعد بأي شيء، مثلاً، حينما يكون بمفرده أو ما لم يشرك به شخصًا آخر وما لم يكن هو العامل المهيمن أو ما لم يمتدح من الجوانب كافة. وتقل الفرصة أكثر من ذلك من خلال تناقض الظروف التي تبعث على السعادة. فقد يكون سعيدًا بسبب اضطلاع شخص آخر بالترؤس لكنه قد يغتاض من ذلك في الوقت نفسه. وقد تستمتع امرأة بنجاح زوجها غير أنها أيضًا قد تحسده على ذلك. قد تستمتع هي بإقامة حفلة غير أنها تحب

أن تُعد كل شيء بصورة رائعة ولكنها متعبة للغاية قبل بدء الاحتفال. وحينها يجد الشخص العُصابي سعادة مؤقتة فعلاً، فسرعان ما تُعكر عليه لسرعة تأثيره ومخاوفه المتعددة الجوانب

و فوق ذلك تأخذ الحظوظ العائرة التي تصادف أي فرد أبعاداً لا مبرر لها في ذهنه. فقد يغمره الانقباض لأي فشل تافه لأن ذلك يثبت ضالة شأنه العام حتى لو كان ذلك بسبب عوامل خارجة عن سيطرته. إن أية ملاحظة بناءة قد تثير لديه القلق أو تجعله يستغرق في التفكير، وهكذا. وكتيجة لذلك فهو عادة يصير أكثر حزناً وسخطاً مما تبرره الظروف.

هذه الحال تتفاقم من خلال اعتبار آخر وكما يبدو تستطيع الكائنات البشرية أن تتحمل مقداراً مذهباً من البؤس طالما تتوفر هناك بارقة أمل غير أن التعقيدات العُصابية تحدث مقداراً ثابتاً من القنوط؛ وكلما كانت التعقيدات أشد قسوة كان القنوط أعظم، قد يكون هذا دفيناً بصورة عميقة، إذ قد يكون الشخص العُصابي منهمكاً بصورة مصطنعة في تخيل وتخطيط ظروف قد تبدل الأوضاع نحو الأحسن، كأن يكون متزوجاً أو لديه «شقة» أوسع أو لو كان هناك رئيس عمال آخر أو زوجة أخرى أو لو كانت رجلاً بدلاً من كونها امرأة وأكبر سنّاً أو أصغر بقليل أو أطول بعض الشيء أو ليست طويلة على الإطلاق، إذًا لكان كل شيء على خير ما يرام بعد ذلك. إن إقصاء عوامل مقلقة في بعض الأحيان يبرهن فعلاً أنه عون

حقيقي، مثل هذه الآمال غالبًا ما يجسد المصاعب الباطنية فحسب، حيث يحكم عليها بالفشل، ويتوقع الشخص العصابي عالمًا من الخير وسط التغييرات الخارجية لكنه لا بد أن يحمل نفسه وعُصابه ضمن أية حال جديدة.

من الطبيعي أن يكون الأمل المستند على عوامل خارجية أكثر انتشارًا بين الشباب وذلك يمثل أحد الأسباب في أن تحليل النفس لشاب يافع جدًا أقل بساطة مما قد يتوقعه المرء. حينها يصبح الناس أكبر سنًا ويتلاشى عندهم أمل بعد آخر فهم يصبحون أكثر رغبة في تفحص أنفسهم بإمعان بصفقتها مصدرًا محتملاً للشقاء.

وعندما يكون الإحساس العام بالقنوط غير واقع فإن وجوده وقوته يمكن أن تستنبط من مؤشرات متفرقة. قد تكون هناك سلسلة أحداث في سيرة الحياة تكشف عن رد فعل الشخص تجاه إجابات معينة كانت شديدة ولفترة زمنية لا تتناسب كليًا مع الباعث عليها. لهذا السبب قد يقابل المرء قنوطًا كاملاً ناتجًا ظاهريًا عن حب غير متكافئ أثناء فترة المراهقة أو بسبب خيانتته من صديق أو لإقصاء ظالم من العمل أو عن الفشل في الامتحانات. حقا قد يحاول المرء أولاً أن يسبر غور ما حصل من أسباب خاصة ترتبط بمثل رد الفعل العميق هذا. لكنه سيكتشف عادة بأن التجربة المؤسفة تستنزف بئرًا أعمق غورًا بكثير من القنوط. بصورة مماثلة يشير الاستغراق في التفكير بالموت أو بأفكار الانتحار الآنية لظهور قنوط شامل حتى

وإن بدا الشخص بمظهر كاذب من التفاؤل. إنَّ طلاقة اللسان الشاملة ورفض التعامل جدًّا مع أي شيء - إن كان ذلك ضمن وضع التحليل أو خارجه - يمثل مؤشِّرًا آخر مثلما يمثل ذلك هبوط الهمة السريع أمام إحدى المصاعب. يرتبط بهذه الحال كثير مما كان فرويد قد عرّفه كرد فعل علاجي سلبي. إنَّ أي نفاذ بصيرة جديد قد يتيح مخرجًا، رغمًا عن كونه مؤلِّمًا، وقد يبعث على هبوط الهمة وعدم الرغبة في المضي قُدُمًا عبر صعوبة العمل وعدم الرغبة في مقارعة معضلة جديدة. يبرز هذا في بعض الأحيان كما لو كان المريض لا يثق بنفسه في التغلب على الصعوبة المحدودة، ولكنه في الواقع يعبر عن فقدان الأمل في الاستفادة من التجربة. ومن المنطقي بالنسبة له في هذه الظروف الشكوى من أن التبصر يؤلمه أو يخيفه وأن يمتعض من الإزعاج الذي يسببه له المحلل. كذلك يمثل الانهالك في التنبؤ بالمستقبل علامة على القنوط. وعلى الرغم من أن هذه قد تبدو أمرًا ظاهرًا بصورة قلق من الحياة بشكل عام أو بسبب أن المرء قد يؤخذ على حين غرة أو بسبب الوقوع في الأخطاء لكننا سنلاحظ في مثل هذه الأحوال أنه بعدُ نظر مشوب بالتشاؤم بصورة دائمة. يشبه الكثير من العصابين شخصية كساندرا فكثيرًا ما يتوقعون شرًا وقلما يتوقعون خيرًا. ينبغي أن يبعث هذا التركيز على الجانب المظلم بدلاً من الجانب المشرق من الحياة على الارتياح بوجود قنوط شخصي عميق مهما كان مبررًا ببراعة. أخيرًا هناك حالة الاكتئاب المزمن التي

يمكن أن تكون مخفية بدهاء تمامًا بحيث لا يخطر للمراء بأنها حالة اكتئاب.

قد يؤدي الأشخاص المبتلون بها أعمالهم بصورة جيدة وبوسعهم أن يكونوا لطفاء وأن يستمتعوا بأوقاتهم لكنهم قد يستغرقون ساعات قبل أن يوقظوا أنفسهم في الصباح وقبل أن تدبّ فيهم الحياة ليصبروا على مرارة العيش مرة أخرى. تكون الحياة عبئًا ثقيلًا إلى درجة عظيمة بحيث أنهم قلما يشعرون بها كحياة رغما عن كونهم لا يتدمرون منها. غير أن عزائمهم تكون في حالة دائمة لانحسار شديد.

و بينما تكون أسباب القنوط لا شعورية بشكل دائم فإن الإحساس ذاته قد يكون ملموسًا بكل معنى الكلمة. ربما يتولد لدى شخص ما شعور غامر بالهلاك أو قد يتخذ موقفًا مستسلمًا تجاه الحياة بصورة عامة وهو لا يتأمل أي خير، شاعرًا ببساطة أن الحياة يجب أن تجرّع. أو قد يُعبر عن ذلك بصيغ فلسفية قائلًا ما معناه أن الحياة هي في أساسها مأساة وأنّ البلهاء فحسب هم الذين يندعون أنفسهم بالنسبة لقدر الإنسان المحتوم. قد يحصل لدى المرء انطباع فوري لقنوط المريض خلال المقابلة الأولية. إذ سيكون غير راغب في تقديم أقل تضحية أو تحمل أدنى إزعاج أو تحمل أتفه المجازفات. بعد ذلك قد يعطي الانطباع في كونه مستغرقًا في الاهتمام بذاته، لكنه في الحقيقة لا يرى سببًا ملزمًا لتقديم تضحيات عندما لا يأمل أن يخرج

من ورائها بطائل. ويمكن أن تشاهد مواقف مماثلة خارج تحليل النفس. إذ يستمر أناس في مواقع لا ترضيهم مطلقاً وهم قادرون على تحسينها بشيء من الجهد والمبادرة. كما أنّ أحد الأشخاص قد يكون مشلولاً شللاً كاملاً بسبب قنوطه بحيث تبدو المصاعب المعتدلة أمامه كعقبات أداء لا يمكن تذليلها.

قد تؤدي ملاحظة عابرة أحياناً إلى ظهور هذه الحال. فقد يستجيب أحد المرضى متسائلاً لقول المحلل أن مشكلة ما لم تحل بعد وهي تتطلب جهداً إضافياً: «أنت لا تظن أنّ الأمر ميئوس منه؟» وعندما يصبح شاعراً بقنوطه فهو في حقيقته لا يستطيع أن ينسبه لشيء. أو من المحتمل أن ينسبه لعوامل خارجية أخرى بدءاً من مهنته أو زواجه ثم إلى الحال السياسية. لكنه لا يرجعها لأي سبب أو ظرف مادي ثابت أو مؤقت. إنه يشعر بالقنوط لأنه لم يستطع أبداً أن يصنع من حياته شيئاً أو القدرة لأن يكون سعيداً أو حراً على الإطلاق. ويشعر بأنه مستثنى من كل ما يجعل حياته ذات مغزى.

ربما كان سفرين كيركجارد قد قدم أكثر الإجابات عمقاً. إذ يقول في مؤلفه المرض نحو الموت إن كل قنوط هو في حقيقته من العيش على سجيتنا. وقد أكد الفلاسفة في كل العصور على الأهمية البالغة في أن نحيا على سجيتنا، وعلى شعورنا باليأس الشديد المصاحب للشعور بأننا نمنع من التوصل إليها. إنها الفكرة الثابتة في كتابات زين بوديست. وهنا لا أجدُ بدءاً من أن أقتبس من بين المؤلفين

المحدثين هذا القول من جون ماكمري: «أي مغزى آخر يمكن أن يكون لوجودنا أكثر من أن نحيا كما نحن تمامًا وبكل ما في الكلمة من معنى».

يمثل القنوط ذروة نتاج الصراعات غير المصروفة، الممتدة في أعماق اليأس المرتبط بعدم عودة المرء إلى نفسه السليمة وغير المجزأة أبدًا. تقود نسبة مرتفعة من العضلات العصبية إلى مثل هذه الحال. إن أساس ذلك يتمثل في الشعور بكون المرء أسير صراعاته كطير في شبك دون أن تلوح أبدًا فرصة واضحة لإنقاذ نفسه. على رأس ذلك تأتي جميع محاولات الحل التي لا تقوده للفشل فحسب بل تُقصي الشخص بعيدًا عن ذاته بصورة مضاعفة. إذ تقود الخبرة المتكررة إلى تكثيف القنوط. فالموهب التي لا تؤدي إلى النجاح بسبب الطاقات المبعثرة في مختلف الاتجاهات، المرة تلو المرة، أو بسبب المصاعب المنبثقة عن أية عملية خلاقية، تكون كافية لردع الشخص عن الاستمرار في المثابرة. وقد ينطبق هذا أيضًا على أمور الحب وقضايا الزواج والصدقات التي تتحطم الواحدة تلو الأخرى. مثل هذا الفشل المتكرر يوهن العزيمة؛ مثلما تبدو حال فئران المختبر بعد أن تتكيف للقفز داخل فتحة معينة للحصول على الطعام، ثم حين تقفز المرة تلو المرة تجد الفتحة موصدة في وجهها.

وفوق ذلك هناك المشروع الذي لا طائل من ورائه والمتمثل في محاولة الارتقاء إلى مستوى الصورة المثلى. نستطيع القول بأن هذه

تمثل أعظم العوامل المسببة للقنوط ولا جدال في أن القنوط يتجسد بوضوح تام أثناء التحليل النفسي عندما يصبح المريض واعياً في حال أبعد من أن يمثل الشخص المتكامل بصورة فريدة مرسومة في مخيلته. إنه يشعر بالقنوط في مثل هذا الوقت لا بسبب بأسه فحسب من بلوغ تلك المراقية الخيالية بل أيضاً بسبب كونه يستجيب لهذا الإدراك باحتقار عميق للذات. وهذا مضر ولا شك لتوقع الفوز بأي شيء على الإطلاق سواء كان ذلك في أمور الحب أو في مشكلات العمل.

إن كل العمليات التي تتسبب في تحوّل مركز ثقل أحد الأشخاص من داخل ذاته مما يجعله يكف عن إدراك المحرك الفعال في حياته تمثل العامل الأخير من بين العوامل المساهمة في القنوط. ومحصلة كل ذلك فقدان الثقة بذاته وفي تطوره ككائن إنساني وهكذا يميل إلى الاستسلام. وإنه موقف، رغماً عن أنه قد يمرّ دون أن يلاحظ، له عواقب وخيمة بحيث يمكن تسميته بالموت النفسي. وكما يقول كير جارد: «غير أنه رغماً عن الحقيقة (المتصلة بيأسه).. فإنه مع ذلك قد.. يكون قادراً على مواصلة الحياة بصورة حسنة جداً، وأن يكون رجلاً وأن يتزوج وينجب أطفالاً ويظفر بأسباب الشرف والاحترام. وربما لا يلاحظ بعض الناس افتقاره لذاته بطريقة ما. عن أمر لا يُثير الهرج والمرج في الدنيا لأن الذات تمثل شيئاً لا يُثير لدى العالم كثيراً من التساؤل عنه؟ إنه الشيء الذي يمثل مصدر الأشياء جميعاً، الأعظم خطرًا بالنسبة لصاحبه وهو لا يسمح للناس لملاحظة ما يستحوذ

عليه. فالخطر الأعظم هو ذلك الذي يتصل بخسارة المرء لذاته الخاصة، وقد يتلاشى بهدوء كما لو أن شيئاً لم يحدث، وكل خسارة لغيره، كتلك التي تتصل بفقد ذراع أو ساق أو خمسة دولارات أو ضياع زوجة، الخ..، من المؤكد أن تُلاحظ».

إنني أعلم من خلال خبرتي في الإشراف على عملي أن محلل النفس لا يتخيل بوضوح معضلة القنوط في الغالب، ومن هنا فهي لا تعالج بصورة لائقة. كان بعض زملائي وما يزالون يزدادون ارتباكاً بسبب قنوط المريض الذي عاجوه لكنهم لم ينظروا إليه كمعضلة وذلك قادم لليأس الشديد. هذا حقاً موقف حاسم بالنسبة لأي تحليل للنفس إذ كيفما تضاعفت البراعة الفنية أو كيفما كان الجهد راسخاً أدرك المريض أن المحلل قد تخلى عنه فعلاً. إن الأمر صحيح خارج دائرة التحليل النفسي أيضاً. فليس باستطاعة أي فرد أن يكون صديقاً أو زوجاً وفيّاً ما لم يؤمن أن بإمكان صاحبه تحقيق الإمكانيات الكامنة فيه.

كان الزملاء قد وقعوا في الخطأ الآخر بسبب عدم إدراكهم لقنوط المريض إدراكاً كافياً. فقد شعروا بحاجة المريض الى التشجيع ولذلك شجعوه وهو أمر جدير بالإطراء غير أنه لا يكفي أبداً. ولو حدث هذا ولو قدر المريض حسن نوايا المحلل لصار معذوراً تماماً في استيائه منه لأنه يدرك جيداً أن قنوطه هذا ليس مجرد مزاج يمكن تبديده عبر التشجيع وحسن النية.

قبل كل شيء وحتى نمسك الثور من قرنيه ونواجه المشكلة مباشرة فلندرك من خلال الدلالات غير المباشرة، كتلك المشار إليها آنفًا، بأن المريض يحس بقنوطه ولنعي مقدار ما يحس به كذلك. ثم ينبغي أن يفهم أن لقنوطه ما يبرّره تمامًا عبر تعقيداته. ينبغي أن يدرك المحلل وأن ينقل للمريض بجلاء أن موقفه أمر ميثوس منه طالما بقي الوضع الراهن وطالما تصوّره غير قابل للتغير فقط. إن المشكلة برمتها توضح بصورة مبسطة عبر مشهد في قصة جيخوف الموسومة حديقة الكرز. إذ يجيّم القنوط على العائلة المشرفة على الإفلاس وعندما يهّمون بمغادرة مزرعتهم وحديقة الكرز العزيزة، يتقدم منهم أحد الوجهاء مقترحًا ببناء بيوت صغيرة تُؤجّرُ وسط جزء من المزرعة. إلا أنهم بسبب أفكارهم المضطربة لا يستطيعون تبني مثل هذا المشروع ويتضاعل أملهم إذ لم يكن هناك من حلٍ آخر. ثم يتضاعف يأسهم كما لو أنهم لم يصغوا للاقتراح، ويتساءلون إن كان بوسع أحد أن يُسدي لهم النصيح أو يمد لهم يد العون. فلو كان ناصحهم محللاً بارعًا لقال لهم: «إنّ الموقف محرج ولا شك. لكن ما يُضاعف اليأس فيه هو موقفكم الخاص نحوه. فلو فكرتم مليًا في اختياراتكم في الحياة إذا لا انتفت الحاجة للإحساس بالقنوط».

إن الإيمان بأن المريض يمكن أن يتغير فعلاً، فهذا يعني حقًا أن بوسعه التصرف تجاه صراعاته، كونه العامل الذي يقرر إن كان لدى المحلل الجرأة أو عدمها لمعالجة المعضلة وإن كان بوسعه

أن يفعل ذلك بقدر مناسب من النجاح. في هذا الصدد تتجسد خلافاتي بجلاء مع فرويد. إن سيكولوجية فرويد والفلسفة التي تكمن خلفها تبدو ان تشاؤميتين بصورة واضحة. وهذا ما يطبع نظرته لمستقبل الجنس البشري. وكذلك موقفه نحو العلاج. إنه لا يستطيع إلا أن يكون متشائماً بسبب افتراضاته النظرية. فالإنسان يندفع غريزياً ويمكن تحوير الغرائز أحياناً «بالتسامي» فحسب. كما أنه لا مفر من إحباط دوافعه الغريزية المتجهة نحو الإشباع من قبل المجتمع. أما «الأنا» عنده فهي تُتقَدَّفُ هنا وهناك بلا حول ولا قوة وسط الدوافع الغريزية و«الأنا العليا» التي يمكن أن يُشار إليها فقط. تتميز الأنا العليا بالتحريم والتحطيم بالدرجة الأساس. ولا تتوفر مثلُ حقيقية. أما الرغبة في الإنجاز الشخصي فهي «نرجسية». كما أن الإنسان بطبعه مولعٌ بالتخريب وتضطره «غريزة الموت» لأن يُدمر الآخرين أو يشعر بعذاب النفس. هذه النظريات لا تترك إلا حيزاً صغيراً تجاه الموقف الإيجابي للتغير. كما أنها تحدّ من قيمة علاج باهرٍ كان فرويد قد أنشأه. على النقيض من ذلك فإنني أعتقد بأن النزعات القسرية في أمراض العُصاب ليست غريزية ولكنها تنبع من صلاتٍ إنسانية مضطربة. إنها يمكن أن تتغير حالما تتحسن هذه الصلات وإن أية صراعات تنبثق عن مثل هذا المنشأ يمكن أن تُبدد فعلاً. إن هذا لا يعني كون العلاج المستند إلى المبادئ التي أدعو إليها بلا حدود. ويظل علينا أن نقوم بعمل كثير قبل تعيين هذه الحدود،

بشكل واضح. إنها في الحقيقة تعني امتلاكنا أسبابًا مستندة لأساس متين لتقبل حدوث تغيير جوهري.

لماذا يكون مناسبًا. بعدئذ، إدراك ومعالجة قنوط المريض؟ أولاً يتمتع هذا الأسلوب بأهميته في التعامل مع معضلات خاصة كالإكتئاب والميول الانتحارية. نستطيع فعلاً أن نقتلع الإكتئاب الفردي بمجرد إزاحة الستار عن الصراعات الخاصة التي يؤسر الشخص في شباكها عندئذ، دون المساس بقنوطه الشامل. لكننا إذا لم نرد عودة الإكتئاب مرة أخرى فسوف يتعين علينا مقارعة لأنه المنبع الأعمق الذي تنطلق منه أحاسيس الإكتئاب. وهل سيكون بوسعنا أن نكافح الكآبة المزمنة الماكرة، ما لم يتجه المرء نحو هذا المنبع الأساس؟

يصدق الأمر ذاته مع حالات الانتحار. نحن نعلم أن مثل هذه العوامل كالقنوط الحاد والتحدي والحقد ربما تقود إلى اندفاعات انتحارية ولكن قد يكون فات الأوان في الغالب لمنع الانتحار بعدما يصبح الحافز ظاهرًا تمامًا. من المحتمل أن بالإمكان تجنب الكثير من حوادث الانتحار بتركيز دقيق حول ظواهر القنوط الأقل إثارة وبواسطة طرح المشكلة على المريض في الوقت المناسب.

و مما له أهمية أشمل من ذلك، هو قنوط المريض الذي يقف حائلاً دون شفاء أي عُصاب حاد. كان فرويد يميل إلى تسمية كل شيء يعيق تماثل المريض نحو الشفاء على أنه مقاومة. لكننا قلما نستطيع أن ننظر

إلى القنوط بهذا المنظار. إذ يتعين علينا في تحليل النفس أن نتعامل مع تفاعل متقابل من قبل قوى تتحرك تقدمًا وتقهقرًا مصحوبة بمقاومة وحافز. تمثل المقاومة تعبيرًا شاملاً لكل القوى في باطن المريض والتي تفعل فعلها في الإبقاء على الوضع الراهن. من جهة أخرى يتكون حافزه بالطاقة البناءة التي تستحثه بقوة نحو الحرية الباطنية: القوة الدافعة هذه والتي نعمل بواسطتها كل ما نشاء. إنها القوة التي تعين المريض على التغلب على المقاومة وتجعل علاقاته مثمرة كما تقدم الفرصة للمحلل لاستيعاب أفضل. إنها تمنحه القوة الباطنية لتحمل ألم النضوج الذي لا بد منه، وتزيد من رغبته في المجازفة وبالتخلي عن المواقف التي كانت قد وفرت له الشعور بالأمن والمبادرة بالقفز إلى عالم مجهول. ليس بوسع المحلل أن يسحب المريض ببطء خلال هذه العملية إذ يجب أن يكون المريض نفسه راغبًا في المضي. تلك هي القوة التي لا تثنى والتي تُشَلِّب بسبب حال قنوطه هذه. وعند الفشل في إدراكها ومعالجتها مجرد المحلل نفسه من أفضل سبله في المعركة ضد عُصاب المريض.

لا يمثل قنوط المريض معضلة يمكن أن تُحَلَّ بتأويل واحد فحسب. سرعان ما يكون هناك كسب حقيقي لو بدأ المريض بإدراكها كمعضلة قد تحلَّ في النهاية بدلاً من الانغماس في الشعور بالقدر المشؤوم وقد تحرَّره هذه الخطوة للانطلاق. ستحصل هناك نجاحات وعشرات، وقد يشعر المريض بالتفاؤل والذي قد يتضاعف

إذا اكتسب شيئاً من نفاذ البصيرة المفيدة، ليستسلم إلى قنوطه مرة أخرى، حالما يقترب من معضلة أشدّ إقلاقاً. في كل مرة يجب أن تعالج القضية مجدداً. لكن تمكن القنوط من المريض سيتضاءل عندما يدرك أنّ بوسعه أن يتغير فعلاً، وسيزداد حافزه طبقاً لذلك. فقد يكون الحافز مقتصرًا عند ابتداء التحليل على مجرد الرغبة في التخلص من أعراضه المرضية الأشدّ إزعاجًا. لكنه سيكتسب قوة عندما يصبح المريض واعياً لأغلاله متذوقاً طعم الشعور بالحرية.

النزعات السادية

إن بوسع الأشخاص الواقعين فريسة للقنوط العُصابي «مواصلة» المسيرة بطريقة أو بأخرى. فإذا لم تكن قابليتهم على الإبداع قد تضررت بإفراط شديد نتيجة عُصابهم فقد يكونون قادرين على ترويض أنفسهم والالتفات بوعي كامل تجاه حياتهم الشخصية مضاعفين اهتمامهم بالحقول المنتجة. وقد ينغمسون في حركة اجتماعية أو دينية أو في عمل مرتبط بإحدى المنظمات. قد يكون عملهم نافعًا ويمكن تفهّم الحقيقة في افتقارهم للحماس بسبب افتقارهم لأية مصلحة شخصية يتطلعون إليها.

أما الآخرين فإنهم يكتفون أنفسهم ضمن وضع خاص من أوضاع الحياة وهكذا قد يتوقفون عن الارتباب فيها لكنهم مع ذلك

لا يعلقون عليها اهتمامًا كبيرًا ويحاولون فقط تنفيذ التزاماتهم. يُصوّر جون ماركاند هذا النوع من الحياة في جملة: «يال له من وقت قصير». أعتقد أنها الحال التي يصفها إيريك فروم في تغيره مع مرض العُصاب على أنها حال «خلل». وإنني أفسرها كثمرة للعمليات العُصابية.

من جهة ثانية، قد يهمل المصابون بالقنوط العُصابي كل الاهتمامات الجادة والمجدية ويتوجهون نحو هامش الحياة محاولين انتزاع شيء من المتعة. وقد يجدون مصلحتهم في إحدى الهوايات أو في المسرات الطارئة كالأكل الجيد والشرب والمرح وشيء من العلاقات الجنسية. أو أنهم قد ينجرفون مع التيار فيفسدون ويقذفون بأنفسهم نحو الانهيار. ولكونهم غير قادرين على القيام بأي عمل ثابت، فهم يلجأون إلى احتساء الخمر أو لعب القمار والدعارة. قد يمثل نوع الإدمان على المسكرات الذي يصفه چارلس جاكسون في عطلة نهاية الأسبوع الضائعة نهاية مرحلة لمثل هذه الحال. بهذا الصدد مما يثير الاهتمام أن يتأمل المرء هنا التصميم اللاواعي على الانهيار الذي قد يقدم مساهمة نفسية فعالة في مثل تلك الأمراض المزمنة كالسل والسرطان.

أخيرًا قد ينقلب الأشخاص الفاقدين للأمل إلى أشخاص مخربين. غير أنهم يقومون في الوقت نفسه بمحاولة العودة إلى سابق عهدهم من خلال الحياة البديلة التي يجيئونها. هذا كما أعتقد هو معنى النزعات السادية.

كان اهتمام تحليل النفس قد تركز بصورة واسعة على ما يدعى بالانحرافات السادية نظرًا لأن فرويد اعتبر النزعات السادية نزعات غريزية. غير أنّ النماذج السادية في العلاقات الجارية، رغم عدم إهمالها، لم تكن قد عُرِفَت على وجه الدقة. لقد كان أي نوع من السلوك المؤكد للذات أو العدوانية يُعتبر تعديلاً أو تسامياً للنزعات السادية الغريزية. فاعتبر فرويد مثلاً أي نضال من أجل السلطة نوعاً ما يمثل هذا التسامي. حقاً إنّ الكفاح من أجل السلطة يمكن أن يكون سادياً غير أنه يمكن أن يمثل كفاحاً من أجل البقاء لدى شخص يرى الحياة بصورة معركة يتولاها الجميع ضد الجميع. وفي الحقيقة ليس من الضروري أن يكون ذلك عُصائباً على الإطلاق. إنّ محصلة هذا الافتقار إلى التمييز هي أننا لا نمتلك صورة شاملة عن الأشكال التي قد تتقمصها المواقف السادية ولا أية معايير دقيقة عن حقيقة السلوك السادي. الأمر متروك للحصافة الفردية بدرجة كبيرة لتحديد ما قد يدعى سادية بحق وما قد لا يدعى كذلك، وهو وضع قلما يقود إلى رؤية سديدة.

إن مجرد القيام بإيذاء الآخرين لا يمثل بحد ذاته مؤشراً لوجود ميل سادي. فقد يكون رجل ما منهمكاً في مسعى ذي صفة شخصية أو عامة ويضطر أثناءه لإيذاء خصومه وأصدقائه أيضاً. وقد يكون العمل العدائي تجاه الآخرين أيضاً مجرد رد فعل. فمن المحتمل أن يشعر شخص ما بالأذى أو الرعب ويريد أن يكيل بقوة الصاع

صاعين لكنها ليست متكافئة مع الإثارة الموضوعية إلا أنها ذاتياً تتماشى معها. من السهولة خداع الإنسان ذاته بهذا الشأن. ويتم الادّعاء غالباً برد فعل مبرّر في وقت تكون فيه أحد الميول السادية قد فعلت فعلها. لكن الصعوبة في تمييز الواحد عن الآخر لاتعني أنّ العمل العدائي، كرد فعل، ليس له وجود. أخيراً تتوفر هناك خطط للهجوم، وجميعها مرتبطة بالنمط العدواني، والذي يشعر أنه يقاتل من أجل البقاء. ينبغي ألاّ أسمى أيّاً من هذه الاعتداءات بأنها سادية، فقد يتضرر آخرون بها ولكن الإضرار أو الأذى يمثل ناتجاً عرضياً لا بد منه أكثر من كونه نية مبيتة. يمكننا القول للتعبير عنها ببساطة أنه على الرغم من كونها عدوانية أو حتى هجومية لكنها لم ترتكب بروح خبيثة. إذ ليس هناك ارتياح شعوري أو لا شعوري مستمد من حقيقة الإيذاء ذاتها.

على سبيل التغيير دعنا نتأمل بعض المواقف السادية النموذجية. يمكن ملاحظة هذه لدى أشخاص واضحين في التعبير عن ميولهم السادية تجاه الآخرين، إن كانوا واعين أو غير واعين بوجود مثل هذه الميول. وحينها أتحدث عن شخص سادي أعني شخصاً تتصف مواقفه نحو الآخرين بسادية متسلطة.

قد يرغب مثل هذا الشخص أن يستعبد الآخرين أو أن يستعبد شريك حياته بصفة خاصة. إنّ «ضحيته» يجب أن تكون عبداً للرجل يسمو عن البشر ومخلوقاً ليس دون رغبات وأحاسيس أو مبادرات

خاصة به فحسب بل دون أية مطالب أيضاً. قد يتخذ مثل هذا الميل شك ترويض أو تعليم الضحية مثلما يُروّض البروفيسور هيجنز شخصية إيزا في رواية بيجماليون.

و في أحسن الأحوال يمكن أن تمتلك بعض الجوانب البناءة، كما هو الأمر في حال الآباء مع المصاحب السّادي الأكثر نضوجاً. غير أنه حتى في تلك الحال ستبرز قرون الشيطان إذا عبر العبد عن أية إشارة تعني أنه يرغب في الذهاب لحال سبيله أو في أن يكون لديه أصدقاء أو هوايات خاصة به. في أغلب الأحوال تتتاب السيد غير حبه التملك ويتخذها كوسيلة للتعذيب. ومن المثير للغرابة في العلاقات السادية مثل هذه أن إبقاء السيطرة على الضحية يمثل شغلاً شاغلاً يفوق اهتمام المرء بحياته الشخصية. إنه سيهمل مهنته وسيمتنع عن مسرات وفوائد الاجتماع بأشخاص آخرين بدلاً من رضاه بتحويل صاحبه أي استقلال.

إن الطرق التي يبقى من خلالها على صاحبه مستعبداً هي طرق ذات صفات مميزة. وهي تتنوع فقط ضمن مدى محدود نسبياً وتعتمد على بنية الشخصية لكل من الطرفين. سيقدم الشخص السّادي للآخر ما يكفي فحسب لجعل العلاقة جديرة باهتمامه، إنه سيحقق حاجات معينة من حاجات ذلك الصاحب رغماً عن بقائها عند أدنى مستوى من العيش. كما أنه سيؤكد له الميزة الفريدة لعطائه. سيوضح له أن ليس هناك من يستطيع أن يمنحه مثل هذا التفهم ومثل هذه

المعاونة أو إشباع الهوايات العديدة وليس هناك شخص آخر يستطيع أن يتحملة أبدًا. ثم قد يحتفظ به ضمن إغراء لأوقات أفضل تلميحًا أو تصریحًا كالوعود بالحب أو الزواج أو بمركز مالي أفضل أو بمعاملة أحسن، أحيانًا سيؤكد السّادي حاجته الشخصية للرفيق الذي يحاوره على ذلك الأساس. إنّ تأثير هذه الوسائل سيكون أشد من خلال السيطرة والاستخفاف الكبيرين حيث يعزل صاحبه عن الآخرين. إذ لو تحرّر الأخير نهائيًا فقد يهدد في النهاية بالهجر.

ولا تزال هناك وسائل أخرى للتهديد قد تستخدم ولكن لهذه الوسائل حيوية كبيرة خاصة بها ستناقش بصورة منفصلة في مجال آخر. لا شك أننا لا نستطيع أن نفهم ما يدور في علاقة كهذه دون أخذ خصائص الصاحب بنظر الاعتبار. فهو في الغالب من النمط المطاوع ومن هنا يكون خائفًا من الهجر أو قد يكون شخصًا دوافعه السّادية الخاصة مكبوتة بعمق، وهو عاجز بسبب ذلك كما سيتضح لنا فيما بعد.

إن الاتكال المتبادل المتراكم لمثل هذا الموقف يثير الغيظ عند الاثنين. فإذا كانت حاجة الرجل الأخير للعزلة صريحة فسيكون السّادي مستاءً بصفة خاصة لإزاحة الأول الشيء الكثير من تفكيره وطاقته. فقد يوبّخ الصاحب لكونه جشعًا أو متكالبًا دون أن يدرك أنه هو نفسه كان قد خلق هذه الروابط المتشنجة. إنها تمثل رغبته في الإفلات، بمناسبات كهذه، تعبيرًا عن الخوف والكراهية مثلما تمثل وسيلة من وسائل التهديد.

لا تهدف كل رغبة سادية ملحة نحو الاستبعاد. هناك نوع آخر منها يجد متعة في التلاعب بعواطف شخص آخر كما لو كان يداعب آلة موسيقية. يرينا سفرين كيركجارد في رواية يوميات الغاوي كيف أنّ أحد الرجال ممن لا يأمل شيئاً من حياته الشخصية يمكن أن يكون غارقاً تماماً في اللعبة ذاتها. فهو يعلم متى يُبدي اهتماماً ومتى يكون غير مكترث. إنه مرهف الحساسية في توقعه وملاحظته لردود فعل الفتاة بالنسبة له. وهو يعلم ما سيثير ويُزيّن رغباتها الشهوانية. غير أن حساسيته تقتصر على متطلبات اللعبة السادية. فهو لا يبالي تماماً بما قد تعنيه هذه التجربة بالنسبة لحياة الفتاة. إنّ ما يمثل حسابات واعية مدروسة في رواية كيركجارد يحدث غالباً بصورة لا شعورية. لكنها اللعبة نفسها والتميزة بالانجذاب والصد وبالإغراء والفشل وبرفعة الشأن والضعة وبإثارة الفرح وبعث الحزن.

الصفة الثالثة هي استغلال الصاحب حيث لا يكون الاستغلال بالضرورة مشروعاً سادياً لمجرد الكسب فحسب، قد يكون الكسب في الاستغلال السادي أحد الاعتبارات لكنه يكون في الغالب خادعاً ولا يتناسب كلياً مع الجهد المبذول في ملاحقته. ويصبح الاستغلال بالنسبة للسادي نوع من الشغف بحد ذاته. والمهم هو تجربة فرحة الانتصار لنيل أفضل ما لدى الآخرين. وتظهر صبغته السادية المميزة في الأساليب المستخدمة من أجل الاستغلال. يتعرّض الصاحب بصورة مباشرة وغير مباشرة لمطالب تتزايد باستمرار كما يدفع إلى

الشعور بالإثم والحقارة إن لم يُقْم بتنفيذها. إنّ بوسع الشخص السّادي دائماً أن يجد مبرراً للشعور بعدم القناعة وبكونه يعامل بظلم، ومبرراً للمطالبة بالمزيد أيضاً. وبناءً على ذلك توضح شخصية الكاتب إبسن، ميذا كابلر، كيف لا يثير تنفيذ مثل هذه المطالب أي امتنان وكيف أنّ المطالب هي نفسها في الغالب تحفز من قبل التوق الشديد في إيذاء الشخص الآخر وإبقاءه في موضعه ذاك. قد تتعلق هذه المطالب بأشياء مادية أو حاجات جنسية أو مساعدة لتأسيس مهنة ما، وقد تكون المطالب من أجل تمييز خاص أو من أجل اندفاع أكبر أو من أجل صبر لا حد له. لن يكون هناك شيء سادي مميز في محتواها. وما يشير إلى السادية فعلاً هو التوقع في أنه ينبغي على المصاحب وبها يتوفر لديه من وسائل أن يملأ حياة هي خاوية عاطفياً. كما توضح هذه أيضاً بصورة جيدة من قبل شخصية ميكا كابلر عبر شكواها المتواصلة المرتبطة بمشاعر الملل والرغبة في التحفز والإثارة. كقاعدة، تكون الحاجة للعيش كذلك وعلى الحيوية العاطفية لشخص آخر، لاشعورية تماماً، لكنها قد تكون مستقرة في قعر الرغبة الشديدة للاستغلال وإن هذه تكوّن التربة التي تنبت فيها المطالب الصريحة.

تصبح طبيعة الاستغلال أكثر وضوحاً عندما ندرك أنّ هناك ميلاً نحو إحباط الآخرين في الوقت نفسه. سيكون من الخطأ أن نقول إنّ الشخص السّادي لا يريد أن يقدم شيئاً على الإطلاق. فهو في ظروف معينة قد يكون كريماً جداً؛ إنّ ما هو نموذجي في السادية كونها ليست

شُحًا بمعنى الإمساك، بل هي اندفاع شديد القوة، رغمًا عن كونه غير واعٍ، نحو إحباط الآخرين ونحو تدمير سعادتهم وتبديد آمالهم. إن أية قناعة أو تفاؤل عند الشريك يثير الشخص السادي بصورة عنيفة ويندفع إلى تدميرها بطريقة ما. فإذا تشوّق الشريك إلى رؤيته فسيبدو متجهًا وإذا أراد هذا مزاوله الجنس فسيكون فاطر العاطفة أو لا قدرة له على الإطلاق. وقد لا يستدعي الأمر أن يفعل شيئًا أو أن يفشل في القيام بأي شيء إيجابي. إن مجرد إشاعة الوجود سوف يثبط من همته. وهو هنا كما هو الأمر في النص الذي نقتبسه للمؤلف آلدوس هكسلي: «لم يكن عليه أن يفعل شيئًا، كان يكفيه مجرد أن يكون. فذبلوا واستحالوا سودًا بمجرد العدوى». وبعد ذلك بقليل: «أي تفنن رفيع لإرادة السلطة، أية قسوة رائعة! وأية موهبة مذهلة في ذلك الوجود البائس، الذي يثبط كذلك أسمى المشاعر ويخمد إمكانية المتعة ذاتها».

إنّ ما يماثل أيًا من هذه في الأهمية هو ميل الشخص السادي إلى ذم وازدراء الآخرين. فهو حاذق بشكل متميز في رؤية العيوب واكتشاف مواطن الضعف لدى الآخرين ولفت النظر إليها. إنه يعلم بالسليقة كيف يكون الآخرون مرهفي الإحساس وأين يمكن إيلاهم. وهو يميل إلى استعمال بديته متقدّمًا ومنتقصًا الآخرين. قد يبرر هذا على أنه صدق أو رغبة في المساعدة؛ وقد يجد نفسه قلقًا من جراء الشكوك المتعلقة بكفاءة أو تكامل الشخص الآخر،

لكنه سيصاب بالذعر إذا شعر بالارتياب في مصداقية شكوكه. قد يبدو ذلك أيضًا مجرد ريبة. فقد يقول المريض: «لو أمكنني الوثوق بذلك الشخص فحسب!». غير أنه بعد أن يرى في أحلامه ما تعافه النفس صفة لصاحبه كالخنفساء أو الفأرة، كيف يتسنى له أن يثق به؟! بعبارة أخرى يمكن أن تكون الريبة مجرد حصيلة الانتقال من شخص آخر. فإذا لم يكن الشخص السّادي واعيًا لموقفه المنتقص فقد يكون شاعرًا بالريبة الناتجة فحسب. وقد يبدو من المناسب أن نتحدث عن الرغبة الشديدة للبحث عن الأخطاء وهي أكثر من مجرد ميل بسيط. إنه لا يُوجّه أضواءه الكاشفة نحو الأخطاء الواقعية فحسب بل هو شديد التطرف في اكتناه عيوبه الذاتية وهكذا يخلق قضية ضد الشخص الآخر. فإذا كان قد أزعج شخصًا آخر بسلوكه الخاص مثلاً عندها يُبدي اهتمامًا فوريًا أو ربما احتقارًا يتضح في عدم الاستقرار العاطفي لذلك الشخص. وإذا لم يكن الشريك صريحًا معه تمامًا فسيؤبّخه لكتمانه أو لكذبه. سيؤبّخه لأنه قد أصبح عالمةً عليه في الوقت الذي كان هو نفسه قد عمل كل ما في وسعه ليجعله كذلك. ليس هذا التخريب مسألة كلمات مجردة بل يكون مصحوبًا بكل أنواع سلوك الاحتقار. ويمكن أن يكون الازدراء أو الخط من شأن الممارسات الجنسية واحدًا من مظاهره.

حينما يُجْبَطُ أي من هذه الدوافع أو حينما تنقلب الأوضاع ويشعر الشخص السّادي أنه هو نفسه متسلط عليه ومُستغَلٌّ أو محقَرٌ حينها

تصيبه نوبات من الغيظ الجنوني. فيدخل في روعة أن ليس هناك عذاب عظيم بما يكفي ليصبه على المذنب. فقد يركله ويضربه أو يقطّعه إربًا.

من الممكن أن تكبت نوبات الغيظ السّادي هذه وأن تؤدي إلى ظهور حال من الذعر الحاد أو بعض الاضطرابات العضوية الوظيفية التي تشير إلى تصاعدٍ في التوتر الباطني.

وبعد ذلك يبرز التساؤل: ما معنى هذه النزعات؟ ما هي الضرورات الذاتية التي تضطر أحد الأشخاص للتصرف بمثل هذه القسوة؟ إنّ الافتراض بأن النزعات السادية تمثل تعبيرًا عن دافع جنسي منحرف لا أساس له في الحقيقة. ولكن من المستطاع التعبير عنها ضمن السلوك الجنسي. وهي بهذا لا تمثل استثناء للقاعدة العامة في أن جميع مواقفنا التي جُبلنا عليها يمكن أن تبرز بشكل ما في عالم الجنس، مثلما تبرز في طريقتنا في العمل وفي طريقة مشينا وفي خط يدنا. من الصحيح أيضًا أنّ كثيرًا من الرغبات السادية تنفذ بإثارة معينة أو كما ذكرت مرارًا بعاطفة مشبوبة. إنّ المحصلة في أن مشاعر المتعة والإثارة هذه تكون جنسية في طبيعتها حتى وإن تجاهلناها يستند فقط على افتراض أن كل إثارة هي جنسية في حدّ ذاتها. غير أنه لا يتوفر دليل لإثبات مثل هذا الافتراض. إن كلاً من الإحساسين المتعلقين بالمتعة السادية والتهالك الجنسي يبدو مختلفًا تمامًا في طبيعته.

يملك التأكيد بأن الاندفاعات السادية تمثل نزعة طفولية مستمرة جاذبية خاصة، حيث يعاملُ الأطفال الصغار الحيوانات والأطفال الآخرين الأصغر منهم سناً بقسوة ويبدو أنهم يستمتعون بذلك. وقد يقول المرء في ضوء هذا التشابه إن قسوة الطفل البدائية كانت قد تهذبت فقط عندما كبر. لكنها في حقيقتها لم تهذب فحسب؛ فقسوة السّادي البالغ تختلف في النوع. وهي تمتلك سمات بارزة، كما رأينا، تنعدم في قسوة الطفل العفوية. تبدو قسوة الطفل استجابة بسيطة للشعور بالاضطهاد أو بالاحتقار. فيؤكد ذاته بالشأر من مخلوقات أكثر ضعفاً منه.

بينما تكون النزعات السادية المعنية أشد تعقيداً وتنمو وسط جذور أكثر تشابكاً. إن كل محاولة لتعليل الأعمال الشاذة المتأخرة عن طريق ربطها مباشرة بالخبرات المبكرة تُخَلَّفُ سؤالاً بالغ الأهمية دون إجابة، وهو: ما هي العوامل التي تفسر بقاء وتطور القسوة؟

يرتكز كل من الافتراضين أعلاه بقوة على جانب واحد من السادية فقط: الاتجاه الجنسي في حالة، والقسوة في الحالة الأخرى، ويفشل كلاهما حتى في تعليل هذه المميزات. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن شرح تقدم به إيريك فروم بالرغم من اقترابه إلى العناصر الأساسية أكثر من الآخرين. يبين فروم أن الشخص السّادي لا يريد أن يحطم المرء المتعلق به بل لأنه لا يستطيع أن يحيا حياته الخاصة لذا كان عليه أن يستخدم شركه من أجل وجود متضامن. إن هذا

صحيح بالتأكيد، لكن تفسيره ما زال يُجهل بشكلٍ كافٍ: فلماذا يُدفعُ أحد الأشخاص قسراً ليعبث بحياة الآخرين ولماذا يتخذ هذا العبث الصور المقررة التي يتقمصها؟

إذا اعتبرنا السادية عرضاً لمرض عصابي، فيجب أن نبدأ، كما هي الحال دائماً، لا بمحاولة شرح العارض المرضي بل بمحاولة فهم بُنية الشخصية التي تطوّره. حينها نعالج المشكلة من هذه الزاوية ندرك أن ليس هناك من تتطور عنده نزعات سادية صريحة ولا يمتلكه شعور غامر بتفاهة ما يتصل بحياته الشخصية، لقد أدرك الشعراء بالفطرة هذه الحال الخفية قبل وقت طويل من اكتسابنا القدرة على إظهارها بملاحظتنا السريرية الثاقبة. كان الاحتمال في كل من حالتي هيدا كابلر والغاوي من أنهما سيصنعان من نفسيهما أو من حياتهما شيئاً ذا قيمة يمثل قضية محسومة. فإذا لم يكن بوسع أحدهم في مثل هذه الظروف أن يتجه نحو الاستسلام فإنه سيصبح بالضرورة شديد الامتعاض وسيشعر أنه مُبعَدٌ ومغلوبٌ على أمره إلى الأبد.

لذلك، يبدأ كارهاً الحياة وكل ما هو إيجابي فيه. لكنه يكرهها كشخص يمتلكه حسدٌ مشتعل، قد صُدَّ عن أمر يرغب فيه. بحماس عظيم، إنه الحسد المرّ المتصل بشخص يشعر بتجاوز الحياة له. كان نيتشه يدعو «حسد العيش». إنه لا يشعر بأن للآخرين أحزانهم أيضاً، «هم» يحبون ويبدعون ويتمتعون ويشعرون بالعافية والراحة وينتمون إلى مكان ما. فتغيظه سعادة الآخرين وآمالهم

«السادجة» في المرح والمتعة. إذا لم يستطع أن يكون سعيدًا وحرًا فلماذا ينبغي أن يكونوا هم كذلك؟ وبتعبير شخصية الأبله عند الروائي دوستويفسكي: إنه لا يستطيع أن يغفر لهم سعادتهم. يجب أن يطأ بقدميه على ابتهاج الآخرين. وتشرح موقفه هذا قصة المعلم الذي فتك به مرض السل فكان يبصق في شطائر تلاميذه فترفع معنوياته لقدرته على سحقهم. كان ذلك فعلاً واعياً مرتبطاً بحسد حقود لئيم. وكعبد يكون الميل نفسه عند الشخص السادي لإجباط وسحق معنويات الآخرين لاشعوريًا بصورة عميقة. لكن غايته تمثل الغاية نفسها في الرذيلة لذلك المعلم وهي أن ينقل شقاءه إلى الآخرين. فإذا شعر الآخرون بالهزيمة وحقارة الشأن فسيخف بؤسه الشخصي ولا يعود يشعر بأنه هو نفسه الوحيد المبتلى بالمرض اللعين.

هناك طريقة أخرى لتخفيف حدة الضيم تتمثل في أسلوب «العنب الحامض» وهي متقنة حد الكمال وربما ينخدع بها حتى المراقب المتمرس. وفي الواقع يكون حسده دفينًا في أعماق سحيفة قد تخفى عليه هو ذاته وسينكر أي إجماع عن وجوده. لذلك لن يكون تركيزه على الجانب المؤلم والثقيل أو القبيح من الحياة تعبيرًا عن مرارته فحسب بل ربما عن اهتمامه في أن يُبرهن لذاته بأنه لم يفقد شيئًا. وينشأ بحثه الدائم عن الأخطاء. وسبل الخط من قيمة الآخرين من هذا المنظار. فهو سيلاحظ ذلك الجزء الوحيد غير المثالي

في جسد امرأة جميلة. عندما يدلف إلى إحدى الغرف فستتسمر عيناه على اللون الوحيد أو قطعة الأثاث الوحيدة التي لا تنجسم مع غيرها. سيلتقط الغلطة الفردية في خطبة عصماء من بين كل الجوانب الأخرى. وبصورة ممثلة سيأخذ أي عيب في حياة الآخرين أو في خلقهم أو في دوافعهم المحتملة أبعادًا هائلة في ذهنه. فإذا كان متحذلقًا فسينسب هذا الموقف لكونه حساسًا للعيوب. لكن الحقيقة هي أنه يوجّه ضوءه الكاشف نحو هذه الأمور فحسب تاركًا كل شيء آخر مُغلقًا بالظلام.

و بالرغم من نجاحه في إطفاء حسده وإزالة امتعاضه فإن موقفه المستخف بدوره سيبعث فيه شعورًا دائمًا بخيبة الأمل والتذمر. فإذا رُزِقَ بأطفال فإنه سيفكر أساسًا بالمتاعب والالتزامات المرتبطة بهم وإذا لم يكن كذلك فسيشعر بأنه حُرْم من أعظم ما في الوجود. وإذا لم تكن له علاقات جنسية فسيشعر أنه محروم وسيكون مهتمًا بأخطار كبت الجنس، وإذا كانت له علاقات جنسية فسيشعر بخجل منها وأنه مهان بسببها. ولو توفرت له فرصة للقيام برحلة قصيرة فسينوء بمتاعبها، وإذا لم يستطع السفر فسيعتبر أنّ من العار عليه البقاء في البيت. ولن يخطر بباله أنّ مصادر تدمره المزمّنة يمكن أن تكمن في دخيلته هو ذاته. سيشعر بأنه مخول في إشعار الآخرين بأنهم يخذلونه، ثم يتقدم بمطالب أعظم من أي وقت مضى دون أن يجعله تحقيقها يحوز على رضاه أيضًا.

إن الحسد المرير والميل نحو الخط من قيمة الآخرين والتذمر الناشئ عن ذلك يعلل النزعات السادية إلى حد ما. فنحن نفهم لماذا يكون السادي مدفوعاً باتجاه إحباط الآخرين وتعرضهم للشقاء وكشف عيوبهم وتقديم مطالب لا تنتهي. ولن يكون بوسعنا أن نقدر مدى أخطائه أو اعتداده الشديد بنفسه حتى نبحث فيما يفعله قنوط المرتبط بذاته.

و بينما ينتهك معظم المتطلبات الأولية للباقة البشرية فهو يأوي في دخيلته بالوقت عينه صورة مثلى ذات معايير خلقية راقية ولكنها متممة بشكل خاص. إنه أحد الذين (كنا قد تحدثنا عنهم سابقاً) بسبب بأسهم من قدرتهم على تحدي مثل هذه المعايير فقد وطّدوا العزم شعورياً أو لا شعورياً بأن يكون قدر استطاعتهم «سيئين». قد ينجح أحدهم في أن يكون «سيئاً» وأن يمتلئ بنوع من البهجة القانطة. لكنه عندما يتصرف كذلك فستصبح الهوة بين الصورة المثلى والذات الحقيقية غير قابلة للردم وسيشعر بأنه بعيد عن الإصلاح، وبعيد عن الصفح والمغفرة. كما يصبح قنوطه أعمق حيث يتطور لديه طيش امرئ لا يمتلك شيئاً يخاف أن يفقده. طالما تستمر هذه الحال يستحيل عليه أن يتخذ موقفاً بناءً تجاه ذاته. كما أنّ مصير أية محاولة مباشرة في جعله بناءً سيكون مآلها الفشل وتتم عن جهلٍ بحالته.

ويبلغ اشمئزؤه من ذاته أبعاداً عظيمة جداً لن يستطيع عندها أن يلقي نظرة على نفسه. عليه أن يُحصّن نفسه ضدها بتقوية عنصر

الاستقامة المتوفرة عنده الآن. بوسع أخف تقدير وأقل تجاهل أو غياب التقدير الخاص أن يعبئ احتقاره لذاته، ولذلك عليه أن يرفض اعتباره غير منصف. لهذا السبب فهو مكره على تخريج احتقار ذاته بلوم وتوبيخ وازدراء الآخرين. وهذا مما يطوّح به في شباك حلقة مفرغة. فكلما اشتد احتقاره للآخرين قل الوعي باحتقاره لذاته؛ وكما أصبح احتقار ذاته أشد عنفاً وقسوة أصبح أشد قنوطاً. إذاً يكون توجيه الضربات للآخرين قضية محافظة على الذات. تُشرح العملية بالمثال الذي ذكر سابقاً للمريضة التي اتهمت زوجها بالتردد وأرادت أن تمزق نفسها إرباً عندما أدركت أنها كانت حقاً حانقةً ضد تردها هي شخصياً.

في هذا الضوء نبدأ بتقدير السبب البين للشخص السادي في أن ينتقص الآخرين. كما نستطيع الآن أن نلمس أيضاً المنطق لدافعه القسري الباطني والمتزمت في الغالب باتجاه إصلاح الآخرين أو على الأقل باتجاه إصلاح الشريك. فلكونه لا يستطيع هو الارتقاء نحو صورته المثلى يتوجب على ذلك الشريك أن يفعل الشيء ذاته. حينها يجد غيظه القاسي تجاه نفسه متنفساً ضد شريكه. وقد يسأل نفسه أحياناً «لم لا أتركه وشأنه؟» لكن من الجلي أن مثل هذه الاعتبارات المنطقية لا تجدي طالما تستمر المعركة الباطنية ويستمر تخريبها. وهو عادة يبرّر الضغط الموجه نحو الشريك باسم «الحب» أو الاهتمام في «تطور» هذا الشريك. ولا حاجة للقول إن ذلك لا يمثل الحب.

ولكنه ليس اهتماماً بتطور شريكه وفقاً لمساراته الشخصية أو طبقاً لقوانينه الباطنية والذاتية. فهو حقاً يحاول فرض المهمة المستحيلة على شريكه أملاً في تحقيق صورته، أي صورة السادي، المثلى. إن الاستقامة المطلقة التي تعين عليه أن يطورها كدرعٍ واقٍ ضد احتقار الذات قد تتيح له أن يفعل ذلك بثقةٍ بالغة.

يعطينا فهم هذا النضال الباطني نفاذ بصيرة أفضل في عامل آخر أكثر شمولاً كامنٍ في الأعراض المرضية السادية وهو الحقد الذي يسيل كالسّم خلال كل حجيرة في شخصية الرجل السادي. فهو يُضطر أن يكون حقوداً ليوجه إلى الخارج احتقاره العنيف لذاته، ولأن استقامته تمنعه من رؤية مساهمته في أية مشكلة ظاهرة فهو لذلك يشعر بأنه هو المرء الذي تُساء معاملته والذي يُضحى به. ونظراً لعدم استطاعته لرؤية مصادر بأسه، لأنها تكمن في باطن ذاته، لذا فإنّ عليه أن يعتبر الآخرين مسؤولين عن ذلك اليأس. وأنهم كانوا قد دمّروا حياته وعليهم الآن أن يدفعوا ثمن ذلك وعليهم أن يجرعوا ما سيحدث لهم من جرائه. إنّ هذه الروح الثأرية هي التي تقتل في قرارة نفسه كل مشاعر العطف والرحمة. لماذا ينبغي أن يعطف على أولئك الذين حطموا حياته وفوق ذلك يجدهم أفضل منه حالاً؟ في أحوال خاصة قد تكون روح الثأر شعورية لديه وقد يعيها كما يتعلق الأمر بوالديه مثلاً. غير أنه على كل حال، لا يعي كونها نزعة شخصية سائدة.

إن الشخص السادي كما رأيناه حتى هذه اللحظة هو من يتصرف بشكل مسعور موجهًا تنفس غيظه تجاه الآخرين في حال الانتقام الأعمى لأنه يشعر بأنه منبوذ مقضي عليه. وكما ندرك الآن بحثه عن تخفيف بؤسه الشخصي من خلال ما يشعر به الآخرون من أسباب البؤس. غير أن هذا قلما يمثل هنا التفسير برمته. إن مظاهر التخريب لا تفسر لوحدها الانفعال الشاغل الذي هو سمة لازمة لكثير من الهوايات السادية. يمكن أن تتوفر هناك منافع أكثر وضوحًا، منافع تمتلك بالنسبة للسادي أهمية حيوية. وقد يبدو هذا التعبير متناقضًا مع الافتراض بأن السادية هي ثمرة القنوط. فكيف يمكن لشخص قانط أن يتأمل شيئًا ويلاحقه وبمثل هذه الحيوية المهلكة؟ حقًا إن هناك الكثير من الفوائد ومن وجهة النظر الشخصية. ففي الحط من شأن الآخرين لا يهدى من احتقار ذاته الشديد فحسب بل يعطي نفسه إحساسًا بالتفوق أيضًا. وحينما ينظم حياة الآخرين فهو لا يكتسب شعورًا محفزًا بالتسلط عليهم فحسب بل يكتشف أيضًا مغزىً بديلاً لحياته. حينما يستغل الآخرين عاطفيًا فهو يزود نفسه بحياة عاطفية بديلة تقلل من إحساسه بالخواء. وحينما يهزم الآخرين فهو يفوز بهجة الانتصار طويًا هزيمته الشخصية القانطة. من المحتمل أن تكون هذه الלהفة الشديدة من أجل الظفر الانتقامي تُمثل قوته الدافعة الأشد حدةً.

كذلك تفيد كل هوايته في إشباع جوعه للمتعة والإثارة. لا يكون الشخص المعافى، المتزن تمامًا بحاجة لمثل هذه المتعة. إذ كلما

كان ناضجًا كلما قلَّ اهتمامه بها. لكن حياة الشخص السادي تكون خاوية. حيث تكون جميع المشاعر تقريبًا قد توقفت عدا مشاعر الغضب والظفر. فهو فاقد تمامًا للإحساس بحيث يصير بحاجة لهذه الحوافز الجامحة ليشعر أنه ما زال على قيد الحياة.

أخيرًا وليس آخرًا، إن تصرفاته السادية مع الآخرين تمنحه شعورًا بالقوة والغرور يعزز إحساسه اللاواعي بالقدرة التامة. يمر موقف المريض تجاه نزعاته السادية بتغيرات عميقة أثناء تحليل النفس. ومن المحتمل أن يتخذ موقفًا حاسمًا تجاهها عندما يصبح واعيًا لها لأول مرة. لكن رفضه الضمني لا يمثل له موقفًا صادقًا بل يمثل اللامبالاة بالمعايير المتداولة. وقد تتتابه نوبات من الاشمئزاز من الذات بين الحين والآخر. وقد يشعر حينها يقترب من نبذ طريقته السادية في الحياة بأنه على وشك أن يفقد شيئًا نفسيًا. لأول مرة بعد ذلك سيجرب بصورة واعية سرورًا عظيمًا في كونه قادرًا على أن يفعل ما يشاء مع الآخرين. وقد يعبر عن قلقه حتى لا يجيله تحليل النفس لإنسان ضعيف محتقر. مرة أخرى وكما يحدث غالبًا في تحليل النفس يكون لقلق المريض ما يبرره شخصيًا. فبحرمانه من سلطانه في جعل الآخرين يخدمون حاجاته العاطفية سيرى نفسه كمخلوق بائس عاجز. وسيدرك بمرور الزمن أن إحساس القوة والكبرياء الذي استنبطه من ساديته يمثل بديلاً ضعيفًا. لقد كان ذلك عزيزًا عليه ولكن القوة الحقيقية والكبرياء الحق لم يكونا في متناول يديه.

عندما نعي طبيعة هذه المكاسب سوف لا نرى أي تناقض في القول بأن الشخص القانط قد يكون في حال بحث محمومة عن شيء ما. لكنه لا يتوقع أن يجد حرية أعظم أو تحققاً أعظم للذات، فكل ما يساهم في تكوين قنوطه يظل ثابتاً وهو لا يعمد إلى تغييره. إنَّ ما يطارده يمثل حالات بديلة.

تُحَقِّقُ المكاسبُ بواسطة عيشِ حياةٍ بديلةٍ. أن يكون المرء سادياً يعني أن يجيأ اعتدائياً وفي معظم الأحيان بصورة هدامة من خلال أناسٍ آخرين. لكن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع الشخص السادي أن يجيأها من خلالها. فالطيش الذي يطارده به غاياته متولد بسبب قنوطه الشديد. ولأنه لا يمتلك شيئاً حتى يخسره لذلك فهو يحاول أن يكسب فحسب. إنَّ للجهود السادية ضمن هذا المعنى غرضاً إيجابياً ويجب أن تُعتبر على أنها تُمثل محاولةً في العودة إلى الوضع السابق. يكمن السبب في مطاردة الغرض بانفعال شديد. في أنَّ الشخص السادي يكون قادراً على إزالة إحساسه الشخصي بالهزيمة المُدلة عبر انتصاره على الآخرين.

لا يمكن أن تبقى العناصر المخربة في هذه المساعي دون مضاعفات بالنسبة للمرء ذاته، كنا قد أشرنا الآن إلى تصاعد احتقار الذات. كما تتمثل إحدى المضاعفات التي تماثله في الأهمية في انبعاث القلق. وهو في أحد أجزائه خوف من المقابلة بالمثل. فهو يخشى أن يعامله الآخرون كما يعاملهم هو، أو كما يريد أن يعاملهم. ويبدو هذا

بصورة واعية لا كخوفٍ منهم مثلما يبدو كثقة واضحة بأنهم سوف «يعاملونه بخشونة» لو استطاعوا. أعني إذا لم يمنع ذلك عن طريق البقاء على أهبة الاستعداد بصورة مستمرة. لذلك عليه أن يبقى حذرًا جدًا في اكتشاف وإحباط أي تصادم محتمل بحيث يتصور أنه غير قابل للاختراق عمليًا ومن جميع الجوانب.

غالبًا ما تلعب قناعته اللاواعية بمنعته الذاتية ضد الاختراق دورًا لا يُستهان به لتمنحه شعورًا فخميًا بالأمن. فهو لن يتمكن أحدٌ من إيذائه ولن يتمكن أحد من فضحه ولن يصادف أي حدث طارئ أو يصاب بعدوى لأحد الأمراض وليس من الممكن أن يموت أبدًا! وإذا حدث أن أصيب بالأذى فعلاً من قبل أشخاص أو ظروف فإن أمنه الزائف قد يتناثر ومن المحتمل أن يصاب بذعرٍ بالغ.

يمثل قلقه جزئيًا خوفًا من العناصر المتفجرة المدمرة في دخيلة نفسه. فهو يشعر كما يشعر شخص حامل لقنبلة شديدة الانفجار في حله وترحاله. لذلك هو بحاجة لضبط ذاتٍ فائقي واحتراس متواصل من أجل إبقاء هذه العناصر الخطيرة خاضعةً للرقابة. وقد تطفو هذه العناصر الخطيرة على السطح حينما يحتسي الخمر، إذا لم يشعر بخوفٍ شديدٍ جدًا من أن تنحل عقدة لسانه بتأثير الشراب. بعد ذلك قد يصبح مخربًا بشكل عنيف. كذلك قد تقترب اندفاعاته من الوعي بصورةٍ أعظم بتأثير ظروف خاصة تمثل إغراءً بالنسبة له. لهذا السبب يصبح السادي في رواية زولا الوحش البشري مدعورًا حينما ينجذب

لإحدى الفتيات لأن هذا يثير فيه اندفاعاً شديداً لقتلها. كما تبعث فيه رؤيته لأي حدث طارئ أو أي عمل من أعمال القسوة موجةً من الخوف لأنها توظف اندفاعه الذاتي في التخريب.

إن هذين العاملين وهما احتقار الذات والقلق مسؤولان بصورة واسعة عن كبت الاندفاعات السادية. كما تختلف شمولية وعمق الكبت. وغالباً ما تُستبعد الاندفاعات التخريبية من الوعي. إن ما يبعث على الذهول هو مقدار السلوك السّادي الذي يمارسه الفرد دون ما شعور. فهو يشعر برغبات طارئة في إساءة معاملة شخص أضعف منه وقد يستثار حينها يتفهم الأفعال السادية أو عندما تستحوذ عليه بعض التصورات السادية الواضحة. لكن هذه اللمحات المتفرقة تبقى في عزلة. وفي معظم الأحيان يكون الحجم الأعظم مما يفعله تجاه الآخرين لاشعورياً في سلوكه اليومي. كما يمثل خدر إحساسه بالنسبة لذاته وللآخرين أحد العوامل التي تطمس القضية، وحتى يُبدد هذا، لن يكون بوسعهُ أن يُحسّ عاطفياً بما يفعله، إلى جانب ذلك، يكون التبرير الذي يُقدّم في إخفاء النزعات السادية في الغالب وبدرجة كافية بحيث لا يخدع الشخص السّادي ذاته فحسب بل حتى أولئك المتأثرين بتلك النزعات. يجب ألا ننسى أنّ السادية مرحلة نهائية لمرض عُصاب حاد. من هنا سيعتمد نوع التبرير المستخدم على بنية العُصاب الشخصية التي تتطور عنها النزعات السادية. فعلى سبيل المثال سيستعبد النمط

المطامير شريكه بادعاء الحب اللاواعي. وستنسب مطالبه إلى حاجاته. فينبغي على ذلك الشريك أن يفعل الأشياء نيابة عنه لأنه شديد العجز والقلق أو شديد المرض. ولأنه لا يستطيع أن يكون وحيداً ينبغي على الشريك أن يكون معه دائماً. كما سيعبر عن خيبته بصورة غير مباشرة من خلال إقامته الدليل وبصورة لا شعورية على ما يكابده من قبل الآخرين.

يُعبّر النمط العدواني عن النزعات السادية بصورة صريحة جداً ولكن هذا لا يعني بأنه يعيها تماماً. إنه لن يتردد في إعلان تدمره واشمئزازه ومطالبه، ولكنه يشعر فوق ذلك أنه مُحقٌّ تماماً ومتميز بالصراحة. وهو سيُخرِّجُ عدم اعتباره للآخرين والرغبة في استغلالهم وسيهددهم بعبارات لا يرقى إليها الشك كما يسيئون هم معاملته.

عند التعبير عن نزعات سادية يتميّز الشخص المنعزل بأنه غير فضولي بصورة فريدة. فهو يُشعرُ الآخرين بالإحباط وبعدم الاطمئنان لو أبدى استعداداً للانسحاب مثيراً الانطباع بأنهم يضايقونه أو يقلقونه وهكذا يصير متمتعاً بلذة خفية بتركهم وهم يتصرفون بحماقة.

لكن بوسع الاندفاعات السادية أن تكبت بصورة أعمق، وبعدها تُسبّب ما قد يُدعى بالسادية الارتكاسية. وما يحدث بهذا الصدد هو كون الشخص السادي يخشى اندفاعاته إلى درجة عظيمة جداً بحيث أنه يميل إلى التردد من فضحها لذاته أو للآخرين. وينأى

بنفسه عن كل ما يؤكد ذاته كالعدوان أو الخصومة. وفي المحصلة سيكون مكبوتاً بعمق وشمول.

سنجد فكرة موجزة عما تتضمنه هذه العملية. فالميل إلى التردد لاستبعاد الآخرين يعني عدم القابلية لإصدار أي أمر بل وأدنى من ذلك كثيراً فهو يعني عدم تحمل أي موقع يتميز بالمسؤولية أو القيادة. وهذا يدعو إلى الحذر المفرط في ممارسة التأثير أو إسداء النصيحة. كما يتضمن كبتاً حتى لأكثر مشاعر الغيرة المعقولة. سيلاحظ المراقب الثاقب النظر أن الشخص مصاب بصداع، بوعكة معوية أو ببعض الأعراض المرضية الأخرى لو كانت الأمور لا تجري كما يشتهي.

إن الميل إلى التردد في استغلال الآخرين يدفع إلى المقدمة ميول إزالة الذات. يبدو ذلك في فقدان الجرأة للتعبير عن أية أمنية أو ربما حتى على امتلاكها وفقدان الجرأة في إعلان العصيان ضد الظلم أو حتى بالشعور بالظلم في الميل لتبرير آمال ومطالب الآخرين وجعلها أعظم أهمية مما يخصه شخصياً. كما أنه يُفضل أن يكون مُستغلاً من قبل الآخرين بدلاً من مصلحته الذاتية. مثل هذا الشخص واقع بين فكي الرحى. فهو خائف تارةً من اندفاعه لاستغلال الآخرين وتارةً يحتقر ذاته لنكوصه الذي قد يعتبر جُبناً. وحينما يُستغلُّ كما سيحدث بصورة طبيعية، فإنه يقع أسير دوامةٍ شائكةٍ وقد يكون رد فعله بصورة اكتئاب أو إثارة بعض الأعراض العضوية الأخرى.

و بصورة مماثلة سيبدو مفرط القلق لئلا يُخَيَّب آمال الآخرين وعليه أن يتصف بمراعاة شعورهم وأن يكون كريماً معهم بدلاً من إحباطهم. سيبدل قصارى جهده كي يتجنب ما يمكن أن يؤدي مشاعرهم أو ازدراءهم بأية طريقة. سيجد بالسليقة شيئاً «لطيفاً» يذكره، كملاحظة جميلة ليزيد من ثقتهم الذاتية. إنه يميل إلى إلقاء اللوم على نفسه تلقائياً وستبدو أعذاره كثيرة جداً. وإذا تعين عليه إبداء النقد فسيبديه بأكثر ما يمكن من الاعتدال. وسوف لا يُظهر شيئاً غير «التفهم» حتى عند شعوره بظلم الآخرين له. لكنه في الوقت نفسه يكون شديد الإحساس بالنسبة للاحتقار متعذباً من جرّائه بصورة موجعة.

عندما يكون التلاعب السّادي بالعواطف مكبوتاً بعمق فقد يحل مكانه شعور بعجز المرء لاجتذاب أي شخص. لهذا السبب قد يظن شخص ما بأنه غير جذاب بالنسبة للجنس الآخر ويتعين عليه أن يقنع نفسه بالقليل النادر. وإذا وصفنا حالته بالشعور بالنقص فقد يكون ذلك مجرد استخدام لتعبير آخر يعيه الشخص على أية حال وهو بكل بساطة تعبير عن احتقاره لذاته.

لكن فكرة عدم الشعور بالانجذاب قد تكون نكوصاً لا واعياً عن الإغراء باتجاه ممارسة اللعبة المثيرة في الإخضاع والرفض. وقد يصير واضحاً أثناء التحليل أنّ المريض كان قد زيف لا شعورياً صورة علاقات الحب عنده. هنا سيحدث تغييرٌ مشير: فيصبح «البطوط

القبیح» واعيًا برغبته وقدرته على جذب الآخرين غير أنه يقابلهم بحق واحتقار حالما يحملون مداعباته هذه على محمل الجد.

تتميز صورة الشخصية اللاحقة بالمواربة وصعوبة التقويم. يكون تناظرها مع النمط المطاوع بارزًا تمامًا. وبينما ينتمي الشخص السادي الصريح عادة إلى النمط العدواني يكون السادي المرتكس قد ابتدأ في تطوير نزعات مطاوعة بشكل عام. كما يكون الاحتمال الأقوى هو أنه كان قد تلقى ضربة قاسية بشكل خاص أثناء مرحلة الطفولة. كان قد زيّف مشاعره وبدلاً من أن يعلن العصيان ضد المستبد انقلب ليجبه. وحينما أصبح أكبر سنًا أي في سن البلوغ أصبحت الصراعات لا تطاق فالتجأ إلى العزلة. لكنه عندما جُوبه بالفشل لم يستطع الاستمرار في تحمل عزلة برجه العاجي. بعد ذلك ارتدّ راجعًا في ظاهره إلى اتكاليته السابقة. لقد أضحت حاجته للحنو يائسة جدًا بحيث أنه كان راغبًا في دفع أي ثمن كي لا يُترك وحيدًا. كانت فرصة في العثور على الحنان قد تضاءلت لأن حاجته للعزلة والتي ما زالت قائمة أخذت تتدخل باستمرار في رغبته الملحة لأن يرتبط بشخص ما. ثم أصبح قانطًا وتطورت لديه ميول سادية بعد أن أصبح منهكًا بسبب هذا الكفاح. لكن حاجته للناس كانت ملحة جدًا بحيث لم يستطع أن يكبت نزعاته السادية فحسب بل صار ميالاً لإخفائها أيضًا.

في هذه الحال يتصف حضوره مع الآخرين بتوتر شديد رغم أنه لا يدرك ذلك. صار يميل إلى التكلف والحجل. إذًا عليه أن يلعب

دائمًا دورًا معاكسًا لاندفاعاته السادية. عليه أن يفكر هو ذاته بشدة حبه للناس وحينها يصحو أثناء التحليل يُذهل لسماع الحقيقة كونه لا يضرهم إلا أقل ما يمكن من المشاعر، أو على أقل تقدير إنه غير واثق من حقيقة مشاعره نحوهم. يميل عندئذ إلى تفهم النقص البارز كونه حقيقة غير قابلة للتغير. لكنه في حقيقة حاله يجتاز مرحلة الإقلاع عن تظاهره بالمشاعر الإيجابية ويفضل بدون وعي منه ألا يشعر بشيء على أن يواجه اندفاعاته السادية. هنا يمكن أن ينمو شعور إيجابي إذ يتعرّف على هذه الاندفاعات محاولاً التغلب عليها.

هناك عناصر معينة في الصورة ستبين للمراقب المدرب وجود نزعات سادية، بدءًا من الأساليب التي يُشاهد فيها وهو يقوم بتهديد وباستغلال وبإحباط الآخرين. إذ تتوفر هناك عادة ازدراء ملحوظ غير واعٍ نحو الآخرين منسوب ظاهريًا لمعاييرهم الخلقية الأدنى. بالإضافة لذلك هناك عدد من التناقضات تشير إلى السادية. ففي بعض الأحيان مثلاً قد يتحمل الشخص السلوك السادي أو ازدراءً يوجّه إليه. وأخيرًا فهو يشير الانطباع بأنه «يتلذذ بالتعذيب»، أي في الانغماس بالشعور بأنه كبش فداء. ولكن من الأفضل أن نتعد عنه وأن نصفَ بدلاً من ذلك العناصر ذات العلاقة. ستُساء معاملة السادي المرتكس لكونه يشعر بكبت شامل تجاه تأكيد ذاته. غير أنه في حقيقته ينجذب صراحة نحو الأشخاص الساديين لأنه ينوء تحت ضعفه الشخصي، معجبًا بهم ومشمئزًا منهم في آن واحد مثلما يكون

الأخرون منجذبين إليه وهم يشعرون بأنه ضحية سهلة. بهذا يضع نفسه في طريق الاستغلال والإحباط والازدراء. إنه يتعذب بسبب هذه المعاملة السيئة ولا يستمتع بها. فما تقدمه له يمثل الفرصة لأن يعيش اندفاعاته السادية الخاصة من خلال شخص آخر دون أن يُضطر لمواجهة ساديته الشخصية. يستطيع أن يشعر بأنه بريء وحاتق معنوياً بينما يتأمل في الوقت نفسه الحصول على أفضل ما لدى رفيقه السّادي وقد ينتصر عليه.

لقد لاحظ فرويد الصورة التي أصفها غير أنه أفسد نتائج بحثه بتعاميم لا مبرر لها. لقد ظنّها بعد وضعها في إطار فلسفته برمتها برهاناً على أنه مهما كان الشخص صالحاً ظاهرياً فهو مخرب بطبعه. إن الحال في الواقع هي ثمرة مستقلة ناتجة عن عُصاب مستقل.

لقد اجتزنا طريقاً طويلةً بعيداً عن وجهة النظر التي تعتبر الشخص السّادي منحرفاً جنسياً أو تلك التي تستعمل تعابير طنانة كأن تصفه بأنه خسيس وخبيث. إن الانحرافات الجنسية نادرة نسبياً. وحينما تتواجد فهي تمثل مجرد إحدى النواحي لموقف عام تجاه الآخرين. ليس بوسعنا إنكار النزعات التخريبية؛ لكننا عندما نفهمها سنرى كائناً بشرياً معذباً خلف السلوك غير الإنساني ظاهرياً. إننا بهذا نفتح الطريق للوصول إلى مثل هذا الكائن البشري عبر العلاج. وسنجدّه فرداً يائساً يبحث عن استعادة حياةٍ قد هزمتُهُ.

خاتمة

تصريف الصراعات العُصائية

مكتبة

t.me/soramnqraa

كلما أدركنا مقدار الضرر الكبير الذي تحدثه الصراعات العُصائية في الشخصية كلما بدت الحاجة ماسة حقًا لتصريفها. إن هذا التصريف لا يمكن أن ينفذ بالقرار الواعي ولا بالمراوغة ولا ببذل قوة الإرادة، فكيف ينفذ إذًا؟ هناك طريقة واحدة فحسب. إن تصريف الصراعات يمكن عبر تغيير تلك الظروف الكامنة في داخل الشخصية والتي أدت فيما بعد إلى ظهورها.

إنها طريقة جذرية وصعبة. كما ندرك جيدًا الصعوبات المتصلة بتغيير أي شيء من دواخل أنفسنا إذ ينبغي أن نجوس في الأرض بحثًا عن سببٍ مختصرة. ربما كان ذلك هو السبب في أن المرضى غالبًا ما يتساءلون: هل يكفي أن يبصر المرء صراعه الأساس؟ الجواب بوضوح هو كلا.

وعندما يستطيع المحلل أن يُعين المريض على إدراك هذا الصدع بعد اكتشافه بصورة مبكرة للغاية، وكيف يكون المريض منقسماً على نفسه بالضبط، فإن نفاذ البصيرة هذا لن يكون ذا فائدة على الفور. وقد يكتسب المريض شيئاً من الراحة حيث يبدأ برؤية سبب ملموس لمشاكله هذه بدلاً من أن يكون ضائعاً وسط ضباب كثيف من الغموض. ولكنه لن يستطيع الاستفادة من ذلك في حياته. إذ إن تصوّره كيف تعمل وكيف تتداخل أجزاءه المتنافرة مع بعضها فذلك لن يجعله أقل انقساماً على ذاته. فهو يصغي لهذه الحقائق كشخص يستمع إلى رسالة غريبة تبدو جديرة بالتصديق ظاهرياً ولكنه لا يدرك مضامينها بالنسبة له شخصياً. وهو يصمم على تنفيذها بمختلف التحفظات الفكرية اللاواعية. سيصرّ لا شعورياً أنّ المحلل يبالغ في حجم صراعاته وأنه سيكون على خير ما يرام لو لم يكن الأمر بسبب ظروف خارجية وأن الحب أو النجاح سيخلصانه من محنته وأنه يستطيع أن يتحاشى صراعاته بالبقاء بعيداً عن الناس. وأن ما يقوله المحلل قد يصدق على سوية الناس لأنهم لا يستطيعون أن يقوموا بخدمة سيّدين أما هو فقادر لأن يقوم بذلك لتمتعه بالقوة والإرادة والذكاء. أو قد يشعر وبصورة غير واعية بأن المحلل ليس أكثر من أحقّ حسن النية عليه أن يعلم بأن المريض يائس بدرجة لا ينفع فيها إصلاحٌ. ذلك يعني أنّ المريض يستجيب لإيحاءات المحلل عبر إحساسه الذاتي بالقنوط.

إن مثل هذه التحفظات الذهنية تشير إلى حقيقة كون المريض متشبثًا بمحاولاته الشخصية في الحل، أو لأنه يقنط حقًا من الشفاء لذا يجب العمل على النفاذ نحو تلك المحاولات ونتائجها جميعًا قبل أن يصبح من المستطاع مقارعة ذلك الصراع الأساس بصورة مجدية. كان البحث عن طريقة أسهل قد أدى إلى تساؤل آخر كما أشار إليه فرويد في الأصل، وهو هل يكفي إرجاع هذه الدوافع المتصارعة إلى جذورها ومظاهرها المبكرة في مرحلة الطفولة؟

والجواب سيكون كلا. ومرة أخرى تنطبق الأسباب الآنفة الذكر نفسها إذ إن أكثر الذكريات تفصيلاً عن خبر المريض المبكرة لا تقدم له إلا النزر اليسير في جعل مواقفه أكثر تساهلاً وأكثر صفحاً تجاه نفسه. إنها لا تجعل صراعاته الحاضرة أقل تمزيقاً بأية طريقة.

إن المعرفة الشاملة بالمؤثرات البيئية المبكرة والتغيرات التي أحدثتها في شخصية الطفل بالرغم من كونها تمتلك قيمة علاجية مباشرة ضئيلة فهي تمتلك تأثيرًا حقيقيًا لتساؤلنا عن الظروف التي تتطور فيها الصراعات. كانت التغيرات في علاقاته مع نفسه ومع الآخرين هي التي سببت تلك الصراعات في الحقيقة. وكنت قد وضعت هذا التطور في مؤلفاتٍ سابقة وكذلك في الفصول الأولى من هذا الكتاب. باختصار قد يجد الطفل نفسه في حال تهدد حرته الباطنية وإحساسه بالأمن وثقته بنفسه. فيشعر بعزلته وعجزه وفي النتيجة فإن محاولاته الأولى في الاندماج بالآخرين لا تقرر بسبب

مشاعره الحقيقية بل عن طريق الضرورات الاستراتيجية. إنه بوضوح لا يستطيع أن يحب أو لا يحب وأن يثق أو لا يثق، وأن يعبر عن أمانيه أو يحتج على أمانى الآخرين ولكنه يستطيع أن يستنبط طرقاً ليقارع الناس ويناورهم بأدنى ضررٍ لنفسه. يمكن تلخيص المميزات الأساسية التي تنبثق بهذه الطريقة على أنها اغتراب عن الذات وعن الآخرين وإحساس بالعجز وإحساس شامل مرهف وتوتر عدواني في علاقاته الإنسانية التي تتأرجح بين الاحتراس الشامل والبغض البين.

ليس بإمكان الشخص العُصابي مهما حدث أن يستغني عن أي من دوافعه المتصارعة طالما استمرت هذه الحال. على نقيض ذلك تصبح الضرورات الباطنية التي تنشأ عنها أشد إلحاحاً أثناء التطور العُصابي. كما أن الحلول المزيفة تزيد الاضطراب في علاقاته مع الآخرين ومع نفسه ويزداد الحل الحقيقي بُعداً بصورة مستمرة.

لذلك فإن هدف العلاج يمكن أن يتمثل في تغيير الحالات نفسها فقط. يمكن أن يُساعد الشخص العُصابي على استعادة ذاته وأن يصبح واعياً لمشاعره ورغباته الحقيقية، أن يستنبط مجموعة قيمه الشخصية وأن يوصل نفسه بالآخرين على أساسٍ من مشاعره وقناعاته. إذا استطعنا أن نفعل ذلك بمزيد من الدقة فستلاشى الصراعات عندئذٍ. لكننا يجب أن نتعرّف على الخطوات التي يمكن اتخاذها لإحداث التغيير المطلوب.

ولأن كل عصاب - مهما كان مثيرًا ومهما كانت أعراضه المرضية تبدو ظاهريًا غير شخصية - يُمثل اضطرابًا في الشخصية، تكون مهمة العلاج تحليل بنية الشخصية العصبية برمتها. ومن هنا كلما استطعنا أن نكون أكثر وضوحًا في تحديد هذه البنية وأشكالها الفردية، استطعنا وبدقة أكبر أن نخطط للعمل الذي يتعين إجراؤه. فإذا تصورنا العصاب كصرح واقٍ مشيد حول الصراع الأساس صار بوسعنا أن نقسم تحليل النفس إلى جزئين بصورة عامة.

يؤلف الجزء الأول فحص جميع محاولات الحل اللاواعية بالتفصيل والتي كان مريضٌ معينٌ اتخذها مع تأثيرها على شخصيته بكاملها. هذا سيتضمن دراسة جميع مضامين اتجاهه النفسي البارز وصورته المثلى وتخرجه وغيرها، دون أن نأخذ بنظر الاعتبار علاقة هذا المضامين بالصراعات الكامنة. وسيكون من الخطأ الافتراض بأن المحلل لا يستطيع أن يفهم ويتعامل مع هذه العوامل قبل أن تكون الصراعات قد توضحت. لأن هذه المضامين كانت قد نشأت بسبب الحاجة للتوافق مع الصراعات فهي تمتلك حياة خاصة بها وتحمل ثقلها الخاص وتستخدم سلطانها الخاص أيضًا.

يتضمن الجزء الثاني العمل مع الصراعات ذاتها. سوف لا يعني هذا تقريب المريض لإدراك مساراتها العامة، بل في مساعدتها لرؤية أسلوب عملها بالتفصيل، أي كيف تتداخل دوافعه المتضاربة والمواقف التي تنشأ عنها مع بعضها، وفي أحوال معينة كيف تكون

الحاجة في إخضاعه لنفسه والمعززة من قبل السادية الارتكاسية مثلاً، والتي تمنعه عن الفوز في لعبة ما، أو عن إتقان عمل من الأعمال التنافسية بينما هي في الوقت نفسه تجعل الظفر ضرورة ملحة تدفعه للانتصار نحو الآخرين. أو كيف يبدو الزهد الناشئ عن مصادر مختلفة متدخلًا في الحاجة إلى العطف والحنو والانغماس في الذات. علينا أن نريه كيف يقع بين طرفي نقيض، وكيف يتراوح بين التزمّت والتساهل المفرطين مع نفسه، أو كيف تتكون طلباته المخرّجة المفروضة على ذاته، والتي ربما تعززها الدوافع السادية والمتضاربة مع حاجته في أن يكون شديد المقدرة وكثير التسامح، وكيف يستطيع بالنتيجة أن يتذبذب بين الإدانة والصفح عن كل شيء ينهض به الشخص الآخر، أو كيف يستطيع تغيير اتجاهه بين انتحال الحقوق جميعًا لنفسه وبين الشعور بأنه لا يمتلك أية حقوق على الإطلاق.

سيشمل هذا الجزء من العمل التحليلي إضافة لذلك تفسير جميع التسويات التي يحاول المريض القيام بها، كمحاولة الربط بين الأنانية مع الكرم، والقهر مع الحنو، والتسلط مع التضحية.

سيتضمن ذلك مساعدته على أن يفهم تمامًا كيف تكون صورته المثلى، وتخرجه مما كان قد أدى إلى إبعاد صراعاته هذه وفي التعيم عليها وتلطيف قوتها المخربة. بإيجاز سيتضمن تقريب المريض للفهم الشامل لصراعاته هذه بتأثيرها العام على شخصيته ومسؤوليتها المحدودة عن أعراضه المرضية.

سيقدم المريض نوعًا مختلفًا من المقاومة في كل من هذين الجزئين للعمل التحليلي. فحينما تحلل محاولاته في كشفها نفسيًا، يصير مصممًا للدفاع عن القيم الذاتية الكامنة في مواقفه ونزعاته، ولذلك يمحو أي تبصر للذات في طبيعتها الحقيقية. وسيهتم بصورة رئيسة أثناء التحليل لصراعاته بالبرهنة على أنها ليست صراعات أبدًا، ولذلك يُموّه ويقلل من شأن الحقيقة في تضارب دوافعه الشخصية.

أما بشأن السياق الذي ينبغي أن تُجابه به الصراعات فإن نصيحة فرويد ستكون دائمًا ذات أهمية قصوى إذ بعد دراسته لتحليل النفس وفق مبادئٍ ثبتت صحتها في المعالجة الطبية أكد فرويد على الأهمية لاعتبارين اثنين في أي تعامل مع مشاكل المريض. أولاً ينبغي أن يكون أي تفسير نافعًا وثانيًا ينبغي ألا يكون هذا التفسير مؤذيًا. بعبارة أخرى إنَّ السؤالين اللذين يجب أن يحتفظ المحلل بهما في ذهنه هما: هل يستطيع المريض أن يتحمل نفاذ بصيرة معينة في هذا الوقت؟ وهل يكون من المحتمل أن لأحد التفسيرات معنى معينًا بالنسبة له وأن يدفع به إلى التفكير بطريقة بناءة؟ إننا ما نزال نفتقر إلى معايير ملموسة تتعلق بقدرة أحد المرضى لتحمله بالضبط وما يؤدي إلى استثارة نفاذ بصيرة بناءة. إن التباين في البنية بين مريض وآخر تبدو عظيمة جدًا، بحيث لا تسمح بأية وصفات ثابتة تتعلق بضبط التفسيرات لكننا نستطيع القول إن عضلات معينة لا يمكن أن تُجابه بصورة نافعة دون مجازفة إلا بعد تغييرات محدودة في مواقف

المريض. وبوسعنا على هذا الأساس أن نُشير إلى إجراءات قليلة يمكن تطبيقها بصورة ثابتة.

إنّ من غير المجدي مجابهة المريض مع أي صراع رئيس طالما يكون مصمماً على ملاحقة أشباح تقوده للنجاة حسبما يتصور. يجب أن يشاهد أولاً أن هذه التطلعات لا طائل من ورائها وهي تتدخل في حياته. وبعبارة واضحة جداً ينبغي تحليل محاولات الحل قبل الصراعات. إنني لا أقصد أنه ينبغي أن يتجنب أي ذكر للصراعات بصورة دائمة. أما الذي يتطلبه نوع من المفاتيح الخدرة فيعتمد على ضعف البنية العصبية كلها. بعض المرضى قد يصابون بذعر إذا أُبرزت لهم صراعاتهم قبل الأوان. وسوف لن تتضمن أي معنى بالنسبة لغيرهم إذ ستلاشى دون أن تترك أي أثر. لكن المرء لا يستطيع منطقياً أن يتوقع امتلاك المريض لأي اهتمام حيوي بصراعاته طالما كان متمسكاً بحلوله الخاصة متأملاً أن «ينجح» مع وجودها.

يتمثل الموضع الآخر الذي يتعين أن يطرق، بالصورة المثلى. قد ننحرف بعيداً عما نحن بصدده لو بحثنا هنا في الظروف التي يمكن أن تقارع أثناءها نواحي معينة في مرحلة مبكرة جداً. فالحذر مرغوب فيه بسبب كون الصورة المثلى تمثل الجزء الحقيقي الوحيد بالنسبة للمريض. وقد يكون العنصر الوحيد الذي يزوده بنوع من احترام الذات والذي يمنعه من إغراق نفسه بوسائل احتقارها. يجب

أن يظفر المرء بمقدار من القوة الحقيقية قبل أن يستطيع تحمل أي تقويض لصورته.

من المؤكد أن العمل على مقارعة النزعات السادية في فترة مبكرة من التحليل سوف لن يكون نافعا. ويكمن السبب في التباين الشديد الذي تظهره هذه النزعات مع الصورة المثلى. حتى بعد فترة متأخرة فإن الوعي بها يملأ المريض بالرعب والاشمئزاز. لكن هناك سبب أدق في تأجيل هذا الجزء من تحليل النفس بعد أن يكون المريض قد أصبح أقل قنوطاً وأوسع حيلةً. إذ لا يمكن إطلاقاً أن يكون بوسعه الاهتمام بالتغلب على نزعاته السادية بينما هو ما زال مقتنعا لا شعورياً أن الحياة البديلة التي اختارها تمثل الشيء الوحيد الذي بقي لديه.

يمكن أن يستخدم الدليل نفسه لتوقيت التفسيرات ولكن تطبيقه الفردي يعتمد على بنية الشخصية المعينة. فمثلاً مع مريض تسيطر عليه النزعات العدوانية - مريض يحتقر العواطف كلها بصفقتها ضعف ويُهَلِّل لكل سيئ يعطي مظهر القوة - يجب أن يجابه هذا الموقف بكل مضامينه أولاً. سيكون من الخطأ أن نعطي أسبقية لأي جانب من حاجته للمودة الإنسانية الحميمة مهما كانت هذه الحاجة بيّنة بالنسبة للمحلل. سيستاء المريض من أي تحرك من هذا النوع لكونه يمثل تهديداً لأمنه. سيشعر أنه يجب أن يحترس ضد رغبة المحلل ليحيله رجلاً «فاضلاً إلى حد السذاجة». سيكون قادراً

لأن يتحمل ميوله نحو المطاوعة ومحو الذات عندما يكون أقوى من ذلك بكثير فحسب. مع مريض كهذا يحسن المرء أيضًا التوجه بعيدًا عن معضلة القنوط لأنه من المحتمل أنه سيقاوم الاعتراف بأي من هذه المشاعر. القنوط سيعني بالنسبة له شفقة على الذات البغيضة ويعني الاعتراف بالهزيمة. وبالعكس من ذلك إذا تسلطت النزعات المطاوعة فيجب أن تمحّص كل العوامل المتصلة «بالتحرك نحو» الناس تمامًا قبل أن يكون من المستطاع مقارعة أي ميول تسلطية أو انتقامية، ومرة أخرى إذا اعتبر أحد المرضى نفسه عبقرًا عظيمًا أو عاشقًا عظيمًا، فسيكون الأمر إضاعة كاملة للوقت إذا بحثنا بأسباب خوفه التي تتعلق بكونه محتقرًا ومرفوضًا وسيكون الأمر أشد انعدامًا في جدواه إذ أردنا أن نقارع احتقاره لذاته.

أحيانًا يكون المجال في المجابهة محدودًا جدًا. يبدو هذا خاصة عندما تتوحد درجة عالية من التخريج مع مثالية متصلبة للذات وهي حال سوف ترفض أي عيب. فإذا افترضت علامات معينة لهذه الحال فإنه سيوفر وقتًا كثيرًا بتجنب أي تفسيرات، حتى ولو أشير إليها من بعيد لكونها مصدر مشكلة المريض الكامن في دخيلة ذاته. وقد يكون من العملي خلال هذه الفترة أن نشير إلى نواح معينة من الصورة المثلى مثل المطالب المتطرفة التي يفرضها المريض على نفسه.

تساعد معرفة القوى المحركة في بنية الشخصية العُصابية أيضًا على أن يفهم المحلل بصورة أسرع وأدق ما يريد المريض أن يعبر عنه

بالضبط في تداعي أفكاره، ومن هنا ما ينبغي أن يتعامل معه في تلك اللحظة. سيكون قادرًا أن يتصور ويتنبأ من خلال مؤشرات تافهة ظاهريًا جانبًا واحدًا كاملاً من شخصية المريض وهكذا يكون بوسعه أن يوجه انتباهه للعناصر التي يتعين أن يترقبها. سيماثل مركزه مركز الطبيب الباطني الذي عندما يعلم أن أحد المرضى يسعل ويعرق ليلاً ثم يكون شديد الإعياء عند العصر، سيفكر هذا الطبيب في إمكان إصابته بتدرن رئوي وينقاد في فحصه طبقاً لذلك.

إذا كان أحد المرضى كثير التبرير في سلوكه ومستعدًا ليعجب بالمحلل، وكاشفًا عن ميول نحو الذات في صلاته، حينها سيتصور المحلل جميع العوامل المرتبطة في «التحرك نحو» الناس وسيتفحص احتمال كون هذه تمثل الموقف المتسلط على المريض؛ وإذا وجد دلائل أخرى فسوف يحاول أن يبحث فيها من كل زاوية ممكنة. كذلك إذا تحدّث أحد المرضى بصورة متكررة عن التجارب التي شعر بالعار منها، وأشار إلى أنه ينظر إلى تحليل النفس في هذا الضوء فسيعرف المحلل أن عليه أن يجابه خوف المريض من الاحتقار. وسوف يختار أصل ذلك الخوف الذي يمكن التوصل إليه بسهولة في تلك الأثناء. وقد يكون قادرًا على ربطه بحجة المريض لإثبات صورته المثالية، بشرط أن بعض أجزاء الصورة قد أوضحت. وإذا كان المريض يظهر تعطلًا من خلال موقف التحليل مثيرًا للشعور بالهلاك، حينها سيتعين على المحلل أن يقارع قنوطه بقدر ما يستطيع ذلك عندئذ.

فإذا حدث هذا منذ البداية فقد يستطيع أن يبيّن معناه فقط، أي إنّ المريض كان قد يئس من نفسه. سيحاول أن ينقل إليه أن قنوطه لا ينبع من حال ميثوس منها حقاً بل يمثل مشكلة معينة يتعين أن تُفهم وأن تُحل في النهاية. أما إذا ظهر القنوط في فترة متأخرة فقد يستطيع المحلل أن يعزّيه بصورة أدق لياسه في العثور على مخرج من صراعه أو في الارتقاء إلى مستوى صورته المثلى.

ما زالت الإجراءات المقترحة تترك مجالاً واسعاً لبديهية المحلل ولحساسيته لما يدور في باطن المريض، كما تبقى هذه وسائل قيّمة لا يمكن الاستغناء عنها، وإنّ على محلل النفس أن يكافح في سبيل تطويرها بأقصى جهده. لكن استخدام الفطرة لا يعني أن النهج يكمن في مملكة «الفن» أو أنه نهج يكفي فيه تطبيق الفطرة السليمة. إنّ معرفة بنية الشخص العصائية يجعل الاستنتاجات التي تستند عليها تصبح علمية بصورة دقيقة وتمكن المحلل من قيادة تحليل النفس بأسلوب دقيق ومسؤول.

مع ذلك يستطيع المحلل أحياناً بسبب الاختلافات الفردية اللامتناهية في البنية أن يتقدم بواسطة المحاولة والخطأ. حينما أتحدث عن الخطأ فإنني لا أشير إلى تلك الأغلاط الفادحة، كالدوافع المنسوبة إليه والغريبة على المريض، أو إلى الفشل في فهم دوافعه العصائية الأساسية. ما يدور في خلدي هو الخطأ الشائع جدّاً الذي يرتبط بإعطاء تفسيرات لا يكون المريض مستعدّاً

لاستيعابها في ذلك الحين. وبينما يمكن تجنب الأغلط الفادحة، سيبقى ثمة خطأ في إعطاء تفسيرات فجّة. نستطيع أن نتوصل لإدراك أسرع لمثل هذه الأخطاء إذا كنّا شديدي الاحتراس تجاه طريقة رد الفعل المريض. ويبدو لي أن تأكيداً صريحاً كان قد وضع على حقيقة «مقاومة» المريض، أي قبوله أو رفضه لتفسير ما، كما وضع تأكيد قليل لما يدل عليه رد فعله بالضبط. وذلك لأن نوع رد الفعل بكل تفاصيله هو الذي يبيّن ما يتعين أن يُمحّص قبل أن يكون المريض مستعداً للتعامل مع المعضلة التي كشف المحلل عنها النقاب. قد تنفع الحال كمثال إيضاحي. أدرك أحد المرضى أنه ضمن علاقاته الشخصية كان يبدي قلقاً عميقاً في الاستجابة لأي مطلب من مطالب الشريك. كان يعتبر أهونَ الطلبات أموراً لا تحتمل، وأصحّ الانتقادات كإهانات. وفي الوقت ذاته كان يشعر بأنه حر في المطالبة بتفانٍ مطلقٍ وفي التعبير عن انتقاداته الشخصية بصورة صريحة جداً. لقد أدرك بأنه خوّل نفسه كل امتياز بينما أنكر كل شيء على شريكه. أصبح جلياً لديه أنّ هذا الموقف كان يقود إلى إفساد العلاقة بينهما إن لم يكن إلى تدميرها. لقد كان حتى هذه المرحلة يتميز بنشاط عالٍ كما كان غزير الإنتاج في أدائه التحليلي. لكن الصمت خيّم على الجلسة التي أعقبت تحسسه بعواقب مواقفه. كان المريض مكتئباً وقلق البال إلى حد ما. بيّنت خواطره القليلة التي ظهرت فعلاً وجود ميلٍ قويٍ للتراجع مما كان يتناقض

بشكل حاسم مع لهفته في الساعات المنصرمة لإقامة علاقة وشيكة مع إحدى النساء.

كان اندفاعه في التراجع يمثل تعبيرًا لعدم تحمله المشاركة العاطفية بالنسبة له. لقد كان يقبل فكرة المساواة في الحقوق نظريًا ولكنه يرفضها عمليًا. وبينما كان اكتأبه يمثل رد فعل تجاه اكتشافه لنفسه ضمن دوامة مضطربة كان ميله للتراجع يعني بأنه كان يتلمس حلاً. وحينما أدرك عدم جدوى التراجع وشاهد ألا مخرج هناك باستثناء تغيير موقفه، أضحى مهتمًا بالمسألة المرتبطة بسبب عدم قبوله المشاركة العاطفية. كانت خواطره التي ظهرت مباشرة بعدئذٍ قد بينت أنه كان انفعاليًا يرى أحد بديلين فحسب؛ إما حيازة الحقوق كلها أو عدم وجود أي حق له مهما كان. فعبر عن خشيته في أنه إذا تنازل عن أي حق، فسوف لن يقدر أن يفعل ما يريد بل سيضطر إلى مسايرة رغبات الآخرين. وقد فتح هذا بدوره بوابة نزعاته المسايرة والمزيلة للذات، والتي بالرغم من أنها لم تكن قد أثرت حتى ذلك الحين، لم تكن قد شوهدت قبل ذلك ضمن أبعادها وأهميتها الكاملة. كانت مسايرته اتكالية لأسباب متعددة عظيمة جدًا حيث تعين عليه سابقًا أن ينشط في الدفاع المصطنع المتضمن انتحال وحصر جميع الحقوق لنفسه. كان التخلي عن الدفاع في وقت كانت مطاوعته ما تزال تمثل صورة باطنية ملحة يعني إغراق نفسه كفرد.

وقبل أن يستطيع حتى مجرد التفكير في تغيير استقراره العفوي كان يتعين عليه أن يبحث في نزاعه المطاوعة.

سيكون جلياً ضمن كل شيء ذكر في هذا الكتاب أن المرء لن يستطيع استنزاف مشكلة، بحثاً وتمحيصاً عبر طريق واحدة. إذ يجب أن يعود إليها ثانية وثالثة من مختلف الزاوية. لأن أي موقف منفرد ينبع من أصول متفرقة، ويتمص وظائف جديدة أثناء التطور العُصابي. وهكذا يمثل موقف الاسترضاء و«التحمّل» للكثير، جزءاً أساسياً من حاجة الشخص العُصابي للحنو الذي يجب أن يقارع أثناء التعامل مع تلك الحاجة. كما يجب أن يستأنف إمعان النظر فيها ملياً عند البحث في الصورة المثلى. في ذلك الضوء سيُشاهد الاسترضاء كتعبير عن فكرة المريض بأنه قدّيس وسيفهم الحاجة لتجنب الاحتكاك حينها تُناقض عزلته. كما ستصبح طبيعة الموقف القسرية أكثر جلاءً حينها يظهر للعيان خوف المريض من الآخرين، وميله إلى التقهقر أمام اندفاعاته السادية. قد تشاهد حساسية أحد المرضى تجاه الإكراه، أولاً كموقف وقائي ناشئ عن عزله، ثم كإسقاطٍ لرغبته الملحة الخاصة نحو السلطة وربما بعد ذلك كتعبير عن التخريب والإكراه الباطني أو النزعات الأخرى.

يجب أن يُفهم ويدرس أي موقف أو صراع عُصابي أثناء تحليل النفس من خلال صلته بالشخصية ككل. وهذا ما يدعى بالتححرر التدريجي. وهو يتضمن الخطوات التالية: مواكبة جميع المظاهر الخفية

والعلنية للنزعة أو الصراع المحدود، ومساعدة المريض على إدراك طبيعته القسرية، وتمكنه من التوصل إلى قدر كل من أهميته الذاتية وعواقبه المضادة.

حينما يكتشف المريض ميزة عُصابية غريبة ويميل إلى عدم تمحيصها من خلال طرح السؤال مباشرة: «كيف حدث هذا؟»، فهو يأمل حل المشكلة الخاصة متجهًا إلى أصولها التأريخية. وهنا على المحلل أن يُبصره بعدم جدوى تذكر الماضي. وأن يصبح على اطلاع حسن بالميزة غير المألوفة. يجب أن يتعرّف على الطرق المحدودة التي تظهر فيها نفسه، والوسائل التي يلجأ إليها هو لتغطيتها والتعرّف على مواقفه الشخصية تجاهها فإذا كان منبع فزع المريض كونه مسائرًا بشكل جلي، حينها ينبغي أن يُبصر بمقدار ما يصل إليه في غيظه وخوفه واحتقاره لنفسه ولأي من أنواع محبي الذات. عليه أن يميز الضوابط التي كان قد أقامها لا شعوريًا للتخلص من كل إمكانات المطاوعة وكل ما يتعلق باتجاهات المطاوعة في حياته. سيفهم بعد ذلك كيف تخدم المواقف المختلفة ظاهريًا غاية واحدة، كيف أمكن له أن يُحدّر حساسيته تجاه الآخرين حيث أصبح غير واعٍ بمشاعرهم وبرغباتهم أو ردود أفعالهم وكيف أمات أي إحساس بالحنان تجاه الآخرين وكذلك بإخفاء أية رغبة لأن يُحبَّ من قبلهم. كيف أنه يستخف بمشاعر الرقة والطيبة عند الغير؛ كيف يميل تلقائيًا للالتباسات وكيف يكون شعوره تجاه علاقاته الشخصية. قد يكون

متقلب الطبع ونزاعاً إلى النقد كثير المطالب ولكنه ينكر على الغير
 أيًا من هذه الامتيازات. وإذا كان إحساس المريض بالقدرة الكلية هو
 الذي تبلور فلا يكفي حينها أن يميز امتلاكه لهذا الإحساس. يجب أن
 يدرك كيف يكلف نفسه منذ الصباح حتى المساء بمهمات مستحيلة،
 وكيف يفكر في القدرة لأن يكتب بحثًا لامعًا لموضوع معقد بسرعة
 فائقة، وكيف يتوقع أن يكون عفويًا ومتألقًا برغم إنهاكه الشديد،
 وكيف يتوقع أثناء التحليل حلَّ مشكلة ما في اللحظة التي يسترق
 إليها النظر.

ثم ينبغي أن يعرف المريض أنه مدفوع للأداء موافقًا للنزعة المعينة
 وبغض النظر عن، أو ربما على نقيض رغباته أو مصلحته الشخصية
 العليا. ويجب أن يدرك تأثير القسر دون تمييز ودون دراسة الظروف
 الواقعية. عليه أن يلاحظ موقفه في البحث عن الأخطاء الموجهة نحو
 خلّانه وأعدائه على حد سواء. فهو يلوم شريكه مهما كان تصرف
 الأخير. فإذا كان هذا لطيفًا يرتاب لشعوره بالذنب لشيء ما، وإذا
 كان حَقَّق ذاته فهو مستبد، وإذا استسلم فهو ضعيف، وإذا أحب أن
 يكون برفقته فهو سهل المنال بصورة مفرطة، وإذا رفض شيئًا فهو
 شحيح، وهكذا. أو إذا كان الموقف الذي تجري مناقشته متعلقًا بشك
 المريض في كونه مرغوبًا أو محتفى به فيجب أن يميز استمرار الموقف
 رغبا عن جميع الأدلة المعاكسة. كما يتضمن فهم طبيعة النزعة القسرية
 أيضًا إدراك ردود الفعل تجاه إحباطها. فإذا كانت النزعة التي انبثقت

تتصل بحاجة المريض للحنو سيتعين عندها فهم الشعور بالضياع والرعب في أية علاقة للرفض أو اضمحلال المودة مهما كانت تلك العلاقة تافهة أو مهما كان مقدار أهمية الشخص بالنسبة له.

و بينما تبين أولى هذه الخطوات للمريض سعة مشكلته الشخصية لتؤكد الثانية في ذهنه كثافة القوى الكامنة وراءها. كالتأثيران اهتمامًا من أجل إمعان النظر فيها.

حينما يصل الأمر إلى دراسة القيمة الشخصية للنزعة الخاصة فغالبًا ما سيكون المريض نفسه تواقًا للإدلاء بالمعلومات. قد يبين أن عصيانه وتحديه للجميع يمثل إكراهًا ضروريًا، أو في الحقيقة هو مسألة حياة أو موت لأنه كان واقعًا تحت تأثير أبٍ مسيطر. وقد أعانته أفكار التفوق، وما زالت، على مواصلة السير ضد افتقاره لاحترام الذات، وأن عزله أو موقفه في أن «لايالي» يحميه من الأذى. حقًا إن خواطرًا كهذه تنطلق بروحية الدفاع لكنها تكون معبرة أيضًا. فهي تذكّرنا بالأسباب التي أدت إلى اكتساب الموقف الخاص بالدرجة الأولى وبذلك تظهر لنا أهميتها التاريخية وتعطينا فهمًا أفضل لتطور المريض. غير أنها تقود المسيرة أيضًا باتجاه فهم وظائف النزعة المتوفرة. وهذه تمثل الوظائف التي تتميز بأهمية قصوى من وجهة نظر العلاج. إذ لا تصير أية نزعة أو أي صراع مجرد تحفة تشير إلى الماضي، فهي لو اكتسبت مرة فستستمر إلى الأبد. إن بوسعنا أن نتأكد كونها تتقرر من إلحاح الضرورات في قرارة بنية الشخصية الحالية. من الممكن أن

يكون مجرد المعرفة لسبب تطور ميزة عُصابية غريبة أصلاً ذات قيمة ثانوية فقط، لأن ما يجب أن نغيّره هو تلك القوى المؤثرة في الوقت الحاضر.

إن القيمة الذاتية لأي حال عُصابية تكمن في موازنتها المتقابلة لبعض الميول العُصابية الأخرى. لذلك سيعطي الاستيعاب الشامل لهذه القيم مؤشراً لأسلوب التقدم في حال معينة. فإذا كنا نعي كون أحد المرضى لا يستطيع التخلص من إحساسه بالقدرة الكلية لأنها تهيئ له فرصة الخطأ، متصوراً إمكاناته الكامنة هي وقائع، وخططه المجيدة هي منجزات حقيقية، فسنعلم أننا قادرون على فهم مقدار وُلوجِه في دنيا الخيال. وإذا سمح لنا مشاهدة حياته بهذه الطريقة صائناً ذاته ضد الفشل فسيوجّه انتباهنا للعوامل التي لا تقوده إلى توقع الفشل فحسب بل إلى بقاءه في فرع دائمٍ منه أيضاً.

تتمثل الخطوة العلاجية الأعظم أهميةً في لفت نظر المريض كي يشاهد الوجه الآخر للعملة: التأثيرات المعجزة الناجمة عن دوافعه وصراعاته العُصابية. كان قد تم تناول جزء من هذا العمل خلال الخطوات السابقة لكن من الحيوي أن تكون الصورة كاملة بكل تفاصيلها. وبعد ذلك فقط سيشعر المريض بالحاجة لأن يتغير. يتطلب الأمر حافزاً قوياً شديداً ليرجح على كفة القوى المثبطة في ضوء حقيقة أن كل شخص عُصابيٍّ منقادٌ للمحافظة على الوضع الراهن لديه. يمكن أن يتأتى مثل هذا الحافز فقط من رغبته الشديدة

في الحرية الباطنية وفي السعادة وفي النمو، ومن الإدراك أن كل مشكلة عصبية تقف حجر عثرة لتحقيقها. وإذا كان ميالاً نحو نقد الذات المحط من القدر عليه أن يرى كيف يبّد هذا الاحترام ذاته ويتركه يائساً. وكيف يجعله مكروهاً ومقاسياً الأذى، وهذا يدفعه بدوره ليصبح حقوداً ومشلول الحوافز والقدرة على العمل. وكيف يضطر تحاشي السقوط في هاوية احتقار الذات، ولا اتخاذ مواقف الدفاع كتعظيم الذات والابتعاد عن ذاته، واكتساب أحاسيس وهمية عن نفسه وبذلك يديم مرضه العُصابي.

عندما يكون صراع معين مرئياً أثناء عملية تحليل النفس فيجب العمل على أن يعي المريض تأثيره على حياته. في حال توفر صراع ثابت بين ميول إزالة الذات، والحاجة للانتصار يجب أن تفهم جميع المشاعر المكبوتة المعوقة الكامنة في السادية الارتكاسية. يجب أن يرى المريض كيف يستجيب لكل تحرك يتميز بالقضاء على الذات بأسلوب احتقار الذات وبالغیظ من الشخص الذليل وكيف يستجيب لكل محاولة منتصرًا على بعض الناس باشمئزاز شديد من ذاته وبخوف من المقابلة بالمثل.

أحياناً، يحدث أن يصبح أحد المرضى على وعي بسلسلة العواقب المناوئة ولا يبدي اهتماماً من أجل التغلب على الموقف العُصابي الخاص. وفوق ذلك تبدو العضلة وكأنها قد تلاشت من الصورة. فهو يزيحها جانباً بلا وعي تقريباً دون أن يكسب شيئاً. إن

افتقاره للاستجابة يلفت النظر على أنه كان قد شاهد الضرر كله والذي يصاب هو به. ومع ذلك ما لم يكن المحلل داهية في تمييز هذا النوع من رد الفعل فقد يمرّ تجاهل المريض دون ملاحظته. فيتناول المريض موضوعاً آخر ويتبعه المحلل حتى يصلأ ثانيةً إلى مأزق مشابه. سيكون المحلل واعياً بالحقيقة في أن التغييرات التي حدثت عند المريض لا تتناسب مع الجهد المبذول.

إذا علم المحلل أنه قادر على توقع رد فعل من هذا النوع فإنه سيسأل عن العوامل المؤثرة في باطن المريض والتي تمنعه من قبول الحقيقة. عليه أن يغيّر الموقف المعين بما يجرّ خلفه من سلسلة من العواقب المضرة. هناك بعض من هذه العوامل في العادة، ومن المستطاع مقارعتها شيئاً فشيئاً. وقد يكون المريض مشلولاً بتأثير قنوطه شللاً عظيماً بحيث لا يفكر في إمكان التغيير. وقد يكون دافعه في الانتصار على المحلل وفي إحباط همته وفي جعله أضحوكة نفسه، أقوى من مصلحته الذاتية. وقد يكون ميل المريض للتخريب لا يزال عظيماً جداً بحيث أنه بالرغم من إدراكه للعواقب لا يستطيع أن يفهم نفاذ البصيرة على نفسه. وقد تكون حاجته للشعور بالقدرة الكلية ما زالت قوية جداً بحيث أنه بالرغم من رؤيته للعواقب كأمر لا بدّ منه فهو يخلق تحفظاً ذهنياً ضد قدرته على تجنبها. كما قد تكون ما زالت صورته المثلى متصلبة جداً بحيث لا يستطيع مواكبة أية مواقف أو صراعات عُصائية. بعد ذلك سيحاسب نفسه وسيشعر أنه ينبغي أن

يكون قادرًا على قهر المشكلة المعينة لأنه مطلع عليها بوضوح. من المهم متابعة هذه الاحتمالات لأنها إذا أهملت فسوف تؤدي بحافز المريض نحو التغيير، ومن المستطاع أن ينحدر تحليل النفس بسهولة إلى ما يدعوه هاوستون بيترسون «الهوس النفسي» أي علم النفس لذاته كعلم للنفس. يمثل دفع المريض لقبول ذاته في هذه الظروف كسبًا واضحًا. فهو سيحصل على شعور عميق بالارتياح وسيوضح أنه يريد حل عقدة شراك العنكبوت المستقرة في دخيلته حتى ولو لم يكن قد تغير أي شيء في الصراع نفسه. وحالما يكون قد أنجز بناء هذا الظرف المناسب للعمل فإن التغييرات ستحدث عاجلاً.

إن العرض المذكور لا يقصد به أن يكون رسالة تتعلق بالبراعة الفنية للتحليل. فلم أكن قد حاولت أن أعرض كل العوامل التي تزيد الطين بلة والتي تفعل فعلها خلال العملية ولا الإشارة إلى كل العوامل المعافية. إذ لم أكن قد ناقشت أيًا من المصاعب أو المنافع التي تتضح بتقديم المريض كل الخصوصيات والإمكانات لعلاقته مع محلل النفس، رغمًا عن أن هذه تمثل عنصرًا ذا أهمية بالغة. وتؤلف الخطوات التي كنت قد وصفتها بالعمليات الأساسية والتي يجب المرور عبرها في كل مرة لتصبح فيها إحدى النزعات أو الصراعات الجديدة ظاهرة للعيان. في الغالب، يكون من المستحيل التقديم ضمن ترتيب معين سلفًا لأن مشكلة ما قد لا تكون في متناول المريض حتى وإن كانت قد تبلورت بوضوح تام. وقد تفصح مشكلة عن أخرى

ولا بدّ أن تحلل أولاً، كما شاهدنا في المثال المتعلق بانتحال الحقوق. إنّ الترتيب أهمية ثانوية طالما أنّ كل خطوة تعالج في نهاية المطاف.

حقاً إنّ التغيرات المشيرة للأعراض المرضية الدقيقة والناجمة عن التحليل تختلف باختلاف الموضوع المراد. فقد تهدأ حال من أحوال الذعر حينما يميز المريض غيظه الكظيم اللاواعي مع خليفته. وقد تزول الكآبة حينما يرى المريض الدوامة التي أُسر فيها. لكن كل جزء من التحليل الذي أُتقن إجراؤه يُحدّث أيضاً تغيرات عامة معينة في موقف المريض تجاه ذاته وتجاه الآخرين، تغيرات تحدث بغض النظر عن المشكلة المعنية التي كانت قد حُررت تدريجياً.

لو حدث أن أخذنا تلك المشكلات المختلفة كالمبالغة في التأكيد على الجنس والاعتقاد باتفاق الحقيقة مع أمنيات المرء والتحسس العنيف للإكراه فسنجد تحليلها مؤثراً في الشخصية بالطريقة نفسها تماماً. ليس من المهم أن تحلل أية واحدة من هذه المشكلات فالعدوان والعجز والخوف والاعتراب عن الذات ستتلاشى كلها. دعنا نشاهد كيف يقلل الاعتراب عن الذات كل هذه الحالات. إن الشخص الذي يتهالك على الجنس سوف يشعر بالنشاط في الممارسات والخيالات الجنسية الجامحة وتقتصر انتصاراته وهزائمه على عالم الجنس، كما أن الشيء الثمين الوحيد يصبح مولعاً بجوانب أخرى من الحياة وهكذا يسترجع ذاته، كما أن الشخص الذي تحاط حقيقته بمشاريع وخطط مخيلته كان قد أخفق في اعتبار نفسه مخلوقاً إنسانياً يؤدي دوره. فهو لا

يبصر حدوده ولا مؤهلاته الواقعية. وعبر تحليل النفس سيكشف عن الخطأ باعتبار إمكاناته منجزات وسيكون قادرًا ليس على المواجهة فحسب، بل على الإحساس بذاته. إنَّ الشخص المفرط في التحسس بالنسبة للإكراه كان قد أصبح غافلاً عن رغباته ومعتقداته الذاتية حيث يشعر أن الآخرين هم المسيطرون عليه والمستغلون له. وعندما تحلل هذه الحال فسيبدأ بمعرفة ما يريد حَقًا ومن هذا المنطلق سيقدر على مواصلة السير باتجاه أهدافه الخاصة.

في كل تحليل للنفس سيبرز العدوان في الواجهة وبغض النظر عن نوعه ومصدره فهو يحيل المريض أشد قابليةً للانفعال. غير أنه في كل مرة ينبري فيها موقفٌ عُصابي سيضعف العدوان غير الموجّه. وسيكون المريض أقل حقدًا، إذ يرى بعضًا من مشاكله بدلاً من اللجوء إلى تخريبها، وحينها يصبح أقل عرضةً للانفعال وأقل تخوفًا وأقل اتكالاً وأقل مطالبًا وهكذا.

يخف العدوان بانخفاض العجز بصورة رئيسة. فكلما أصبح الشخص أقوى قلَّ إحساسه بأنه مهدد من قبل الآخرين. فتزداد القوة نتيجة لمصادر متنوعة. إذ إن مركز ثقله الذي كان قد انتقل إلى الآخرين سابقًا استقر في دخيلة ذاته مدركًا بأنه أكثر حيوية وقدرة لتأسيس قيمه الذاتية. تدريجيًا ستوفر له طاقة أعظم إذ تُحرَّر الطاقة المكبوتة في جزء من ذاته سابقًا ليصير أقل كبتًا وأقل شعورًا بالمخاوف وأقل احتقارًا لذاته وأقل عجزًا. وبدلاً من أن يكون مسيرًا أو مقاتلاً

أو منقّساً لاندفاعاته العُصابية بلا رويّة سيكون بوسعه التنازل بيسر
وهكذا يصبح أشدّ ثباتاً.

أخيراً على الرغم من أن القلق يستثار مؤقتاً بتقويض الدفاعات
المكينة فإن كل خطوة تتخذ بصورة مجدية تقود لاضمحلاله لأن
المريض يصبح أقلّ خوفاً من الآخرين بل ومن نفسه.

تكون المحصلة العامة لهذه التغييرات تحسناً في صلوات المريض
مع الآخرين ومع نفسه. فتقل عزلته إلى الحدّ الذي يصبح فيه أقوى
وأقلّ خصومة، ويتوقف الآخرون تدريجياً عن كونهم مثار تهديد له،
ويتعين عليه محاربتهم أو مناورتهم أو تحاشيهم. كما يقدر على امتلاك
مشاعر المودة تجاههم. وتتحسن صلواته مع ذاته عندما ينبذ التخريح
ويزول عنه احتقار الذات.

إذا مَحَصْنَا التغييرات التي تحدث أثناء التحليل، فسنرى انطباقها
على الظروف نفسها والتي سببت الصراعات الأصلية. بينما تصبح
جميع الضغوط أشدّ حدة خلال تطور العُصاب يأخذ العلاج الطريق
المضادة. فتصبح المواقف التي نشأت عن الحاجة للتغلب على العالم
من خلال مواجهة العجز والخوف والعدوان والعزلة متجردة من
معناها أكثر فأكثر ومن هنا يمكن الاستغناء عنها تدريجياً. لماذا يرغب
أي امرئ أن يضحى بذاته في سبيل أشخاص يمقتهم ومن يطؤونه
بأقدامهم إذا امتلك القدرة لملاقاة الآخرين على قدم المساواة؟ لماذا
ينبغي على أي امرئ امتلاك رغبة شديدة من أجل السلطة والتميز

إذا شعر أنه آمن في قرارة نفسه ويستطيع أن يجيأ ويكافح مع الآخرين بلا خوف دائم من كونه مغمورًا؟ لماذا ينبغي على أي امرئ أن يتحاشى بلهفة الاتصال بالآخرين إذا كان قادرًا على أن يُحِبَّ وليس خائفًا من أن يقاتل؟

يتطلب تنفيذ هذا العمل وقتًا، إذ كلما كان شخص ما معقدًا وضعيفًا تطلب ذلك منه وقتًا أطول. إن الرغبة في توفر علاج تحليلي قصير أمر يمكن أن يفهم بسهولة تامة. إذ ينبغي أن نرى عددًا أكبر من الناس يستفيدون من كافة وسائل التحليل. كما ندرك أن بعض المساعدة هو خير من عدم جودها على الإطلاق. تتنوع أمراض العُصاب في شدتها بصورة كبيرة ومن المستطاع المعاونة في أمراض العُصاب المعتدلة خلال فترة وجيزة نسبيًا. وبينما تبشر بعض تجارب التحليل الموجز بالأمل والجدوى، فإن البعض منها قائم على أفكار التمني أو الجهل بالقوى الجبارة التي تفعل فعلها في مرض العُصاب. إنني أعتقد أن إجراء التحليل يجب أن يوجز فحسب في حال أمراض العُصاب الحادة، عن طريق تحسين فهمنا لبنية الشخصية العُصابية إلى درجة كبيرة، بحيث يضيع وقت أقصر في تلمس هذه التفسيرات.

لحسن الحظ لا يمثل تحليل النفس الطريقة الوحيدة لتصريف الصراعات العُصابية. ما زالت الحياة نفسها المعالجَ ذا التأثير الأعظم. إن مختلف أنواع الخبرة لدى أي امرئ قد تكون واضحة جدًا لتحدث تغييرات في الشخصية. ومنها المثال الملهم لشخص

عظيم حقًا، أو مأساة عامة تنتشل الشخص العُصابي من عزلته الذاتية عن طريق دفعه للاتصال الوثيق بالآخرين، وقد تكون اتصالاً بأشخاص يلائمون طباعه إلى درجة تبدو معها مناورتهم أو تجنبهم أقل ضرورة. في أحوال أخرى، قد تكون عواقب السلوك العُصابي متطرفة جدًا ومتكررة الحدوث، بحيث أنها تطبع نفسها في ذهن الشخص العُصابي وتجعله أقل تخوفًا وأقل تصلبًا.

إن العلاج الذي تحققه الحياة لا يقع تحت سيطرة المرء، على كل حال. إذ ليس من المستطاع أن تُهيأ المشاكل أو الصداقات أو المشورة الدينية لتكون في مواجهة حاجات الفرد الخاصة. فالظروف المواتية لأحد الأشخاص قد تسحق الآخر كليًا. وكما شاهدنا تكون قابلية الشخص العُصابي لتمييز عواقب سلوكه العُصابي والتعلم منها محدودة جدًا، وبإمكاننا القول إن بوسعنا أن نوقف أي تحليل إذا كان المريض قد اكتسب هذه القابلية ذاتها مستفيدًا من تجاربه. أعني إذا كان بوسعه تمحيص حصته من المشكلات التي تظهر وفهمها وتطبيق نفاذ البصيرة على حياته.

إن معرفة الدور الذي تلعبه الصراعات في العُصاب وإدراك إمكانية تصريفها يجعل من الضروري إعادة النظر في تعريف أهداف المعالجة التحليلية. إذ رغم أن العديد من الاضطرابات العُصابية يرجع إلى عالم الطب، غير أنه ليس من العملي معرفة الأهداف من خلال التعابير الطيبة. يجب تعريف أهداف العلاج من خلال

بنية الشخصية، ذلك لأنه حتى الأمراض الناشئة عن التفاعل بين الظواهر الجسدية والنفسية تبدأ أساسًا ذروة التعبير عن الصراعات في داخل الشخصية.

إذا أخذنا ذلك الاعتبار فهي تشمل عددًا من الأهداف. يجب أن يحرز المريض القابلية على تحمل مسؤولية نفسه، بمعنى إحساسه بنفسه كقوة فعالة مسؤولة في حياته، وأن يكون قادرًا على صنع القرارات وتحمل العواقب. كما يصحب ذلك قبول المسؤولية تجاه الآخرين استعدادًا لتنفيذ الالتزامات التي يؤمن بقيمتها إن ارتبطت بأطفاله أو أبويه أو أصدقائه أو مستخدميه وزملائه وجماعته أو بلده.

إن الهدف من تحقيق استقلالٍ باطنيٍّ مرتبطٍ بذلك ارتباطًا وثيقًا هو هدفٌ يتعد كثيرًا عن مجرد تحدي آراء واعتقادات الآخرين كابتعاده عن مجرد تبنيها. إن هذا يعني بصفة رئيسة قدرة المريض على بناء تسلسل هرمي لقيمه الخاصة وتطبيقه على حياته الواقعية. ذلك سيتضمن بالنسبة للآخرين احترام فرديتهم وحقوقهم وهكذا سيؤلف القاعدة المتجهة نحو مشاركة حقيقية متبادلة. والأخيرة ستفق مع المثل الديمقراطية الحقّة.

كذلك بوسعنا تعريف الأهداف بلغةٍ عفويةٍ الإحساس أي وعي وحيوية المشاعر، إن تعلق ذلك بالحب أو الكره والسعادة أو الحزن والخوف أو الرغبة. سيتضمن هذا القدرة على التعبير وكذلك على السيطرة الطوعية. ينبغي الإشارة في هذا الصدد إلى القابلية للحب

والمودة لأنها أمر حيوي بصورة خاصة. الحب الذي لا يمثل اتكالية طفيلية ولا يمثل تسلطاً سادياً، بل يمثل، عندما نقتبس كلمات الكاتب مكجري «علاقة... ليست لها غاية وراء ذاتها؛ علاقة ترتبط بها لأن من الطبيعي للكائنات البشرية أن تشارك في خبراتها وأن يفهم أحدها الآخر وأن تجد المتعة والسكينة في العيش سوية وفي التعبير والكشف عن مكونات أحدها للآخر». مكتبة سُر من قرأ تتمثل أشمل صياغة لأهداف المعالجة في النضال من أجل المصادقية. أي أن يكون المرء خالياً من الادّعاء وأن يكون صادقاً عاطفياً، وأن يكون قادراً على أن يُعبّر عن كل وجوده في مشاعره وفي عمله وفي معتقداته. ويمكن الاقتراب من ذلك بمقدار تصريف هذه الصراعات.

ليست هذه أهدافاً استبدادية كما أنها ليست أهدافاً صحيحة للعلاج، لأنها ببساطة تتسق مع المثل التي أتبعها الحكماء في كل الأزمنة. لكن الاتساق لم يولد مصادفةً، لأن هذه هي العناصر التي تستقر عليها الصحة النفسية. إن لدينا مبرراتنا للتسليم بهذه الأهداف لأنها تنبع منطقياً عن معرفة بالعوامل المسببة للأمراض في العُصاب. وتستند جرأتنا في تحديد مثل هذه الأهداف الخطيرة على الاعتقاد بأن بوسع الشخصية الإنسانية أن تتغير. ليس الوليد الصغير هو الممتلك لقابلية التغير والتكيف فحسب. إننا جميعاً نحفظ بقابلية التغير وملاحقة أحوالنا الأساسية، طالما أننا على قيد الحياة. إن

الخبرة تدعم هذا الاعتقاد. ويمثل تحليل النفس أعظم السبل حيوية في إحداث تغيرات جوهرية. وكلما فهمنا القوى المؤثرة في مرض العُصاب كانت فرصتنا أعظم في إحداث التغيير المرغوب.

ليس من المحتمل أن يتوصل أي من المحلل أو المريض لكل هذه الأهداف. إنها مُثُلٌ نكافح من أجلها، تكمن أهميتها العملية في توجيهها لنا، وفي علاجنا، وفي كل أوجه حياتنا. إذا لم نكن على بينة من مغزى هذه المُثُل، فقد نرتكب الحماقة بإحلال صورةٍ مُثلى قديمة محلّ أخرى جديدة، ويجب أن نعيّ كذلك أنه ليس بوسع محلل النفس أن يُحِيلَ المريضَ كائنًا بشريًا خاليًا من العيوب. بل إنّ بوسعه أن يُعيّنه ليصبح حرًا من أجل النضال والتقرب من هذه المُثُل. وهذا يعني منحه الفرصة لأن ينضج ويتطور كذلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa



كل قراءة تثمر عن اقتباس مختلف...

شاركه معنا عبر

اقتباسات_قراء_منشورات_نصوص

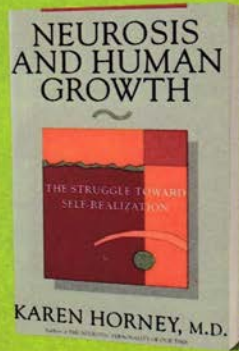


#في_سبيل_المعرفة

كلما أدرکنا مقدار الضرر الكبير الذي تحدثه الصراعات العصبية في الشخصية كلما بدت الحاجة ماسة حقاً لتصرفها. إن هذا التصريف لا يمكن أن ينفذ بالقرار الواعي ولا بالمراوغة ولا ببذل قوة الإرادة، فكيف ينفذ إذا؟ هناك طريقة واحدة فحسب، إن تصريف الصراعات يمكن عبر تغيير تلك الظروف الكامنة في داخل الشخصية والتي أدت فيما بعد إلى ظهورها.

إنها طريقة جذرية وصعبة، كما ندرک جيداً الصعوبات المتصلة بتغيير أي شيء من دواخل أنفسنا إذ ينبغي أن نجوس في الأرض بحثاً عن سبلي مختصرة، ربما كان ذلك هو السبب في أنّ المرضى غالباً ما يتساءلون: هل يكفي أن يبصر المرء صراعه الأساس؟ الجواب بوضوح هو كلا.

وعندما يستطيع المحلل أن يُعين المريض على إدراك هذا الصدع بعد اكتشافه بصورة مبكرة للعناية، وكيف يكون المريض منقسماً على نفسه بالضبط، فإن نفاذ البصيرة هذا لن يكون ذا فائدة على الفور، وقد يكتسب المريض شيئاً من الراحة حيث يبدأ برؤية سبب ملموس لمشاكله هذه بدلاً من أن يكون ضائعاً وسط ضباب كثيف من الغموض، ولكنه لن يستطيع الاستفادة من ذلك في حياته، إذ إن تصوّره كيف تعمل وكيف تتداخل أجزاءه المتنافرة مع بعضها فذلك لن يجعله أفضل إنقساماً على ذاته.





كارين هورني

ولدت كارين هورني (1885-1952) في مدينة هامبورغ بألمانيا، ودرست في جامعة برلين، ثم حصلت على شهادتها في الطب عام 1913. منذ عام 1914 حتى عام 1918 درست الطب النفسي في برلين - لانكوتيز، بألمانيا، ومن عام 1918 حتى عام 1932 أصبحت أستاذة في معهد برلين للتحليل النفسي. لقد ساهمت في العديد من المؤتمرات العالمية، ومن ضمنها المناظرة التاريخية عن تحليل النفس الاعتيادي التي ترأسها سبجموند فرويد.

حضرت الدكتورة هورني إلى الولايات المتحدة عام 1932، وأصبحت المدير المشارك في معهد تحليل النفس بمدينة شيكاغو لمدة سنتين، ثم ذهبت إلى مدينة نيويورك عام 1934 حيث أصبحت أحد أعضاء الهيئة التدريسية في معهد نيويورك لتحليل النفس حتى عام 1941، عندما أضحت أحد مؤسسي جمعية الارتقاء بتحليل النفس والمعهد الأمريكي لتحليل النفس، وقد كانت عميدة المعهد الأخير حتى رحيلها. كما كانت، بالإضافة لتهجها الفعال كمدربة ومعالجة نفسية، محررة المجلة الأمريكية لتحليل النفس، محاضرة في المدرسة الحديثة للبحث الاجتماعي، في نيويورك، زميلة جمعية طب النفس الأمريكية، وغالبًا ما ساهمت في الطلقات العلمية الدراسية لتلك الجمعية، كما كانت رئيسًا فخريًا لمؤسسة كارين هورني لأغراض تبني خدمات تحليل النفس ذات الكلفة القليلة للمجتمع. تضم مؤلفاتها شخصية عصرنا العصامي، طرق حديثة في تحليل النفس، تحليل الذات، صراعاتنا الباطنية، هل تفكر حديثًا بالتحليل النفسي؟ والغضب والنمو الإنساني.

مراعاتنا الباطنية

مهما تكن نقطة الانطلاق وكيفما تكن الطريق ملتوية، فإننا يجب أن نصل في النهاية إلى اضطراب في الشخصية كمصدر للعلّة النفسية، نستطيع أن نردد القول نفسه عن هذا كما نستطيع التحدث عن أي اكتشاف نفسي آخر تقريبًا: فهو واقعيًا إعادة الاكتشاف. لقد عرف الشعراء والفلاسفة في كل العصور أن الشخص الهادئ المتزن لن يقع ضحية الاضطرابات النفسية، بل الشخص الذي تمزقه الاضطرابات الباطنية، إن أي عُصاب، مهما كانت صورة الأعراض المرضية، هو بلغة العصر، عُصاب الشخصية. لذلك يجب أن تتجه جهودنا في النظرية والعلاج، نحو فهم أفضل لبناء الشخصية العُصابية.

في الواقع، تركز جهود فرويد الريادي على هذه الفكرة بصورة متصاعدة - رغم أن أسلوبه في النشوء لم يتح له فرصة التوصل إلى صياغته على نحو يّين. غير أن الآخرين الذين واصلوا وطوروا جهد فرويد - بصفة بارزة: فرانز الكساندر، أتورانك، ولهليم رايج، وهارالد شولتز هانكه- كانوا قد قاموا بتعريفه بصورة أكثر جلاءً، على أية حال، لم يتفق أحد منهم حول كنه الطبيعة المحددة والقوى المحركة وراء بنية هذه الشخصية.

في سبيل المعرفة



نستذكر **جوناثان سولك** الطبيب والعالم وباحث قام بتطوير التجربة الناجحة الأولى للقاح لم يكن يسعى للثروة أو الشهرة من خلال ابتكاراته الشهيرة، في إحدى المقابلات جاء فيها سؤال "من يملك براءة اختراع لقاح شلل الأطفال؟" فأجاب "لا أحد: هل يمكنك استخراج براءة اختراع للشمس؟"
نستذكر دائمًا العلم ومن ضحى في سبيله...

ISBN: 978-9953-592-43-5

